



الجامعة الإسلامية - غزة

عمادة الدراسات العليا

كلية أصول الدين

قسم التفسير وعلوم القرآن

الموعظة في ضوء القصص القرآني

"دراسة موضوعية"

إعداد الطالبة

مرفت محمد أحمد حماد

إشراف الدكتور

محمود هاشم محمود عنبر

قدمت هذه الرسالة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

1436 هـ - 2015 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فُوَادِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 120)

إهداء

إلى:

- ❖ روح الغائب الحاضر أخي الاستشهادي البطل/ إبراهيم محمد أحمد حماد
 - ❖ إلى شهداء معركة البنيان المرصوص، التي عصفت بالغاصب المحتل حتى كان كالعصف المأكول
 - ❖ إلى والدي الحبيبين
 - ❖ إلى أخوتي الأحبة، وصديقاتي العزيزات
 - ❖ إلى كل من وقف بجانبني حتى وصلت هذه المرحلة
- شركة (القدس للتنمية البشرية)
- منتدى المعلم الفلسطيني
- دائرة العمل النسائي
- مؤسسة مهجة القدس

أهدي هذا الجهد المتواضع، والله أسأل أن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة

شكرتقائيد

عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (إبراهيم:7) ، وتادباً بأدب الإسلام العظيم، فإنني أحمده الله تعالى حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، أن من علي بإتمام هذا البحث على هذا الوجه.

وأقدم بالشكر الجزيل والعرفان، إلى أستاذي ومشرفي د/ محمود هاشم عنبر، الذي تفضل باختيار موضوع هذه الدراسة، ولم يدخر جهداً ولم يوفّر وقتاً في توجيهي وإرشادي ودعمي بكل السبل لإكمال هذه الرسالة.

كما وأقدم بالشكر للأستاذين الكريمين الذين تفضلاً بقبول مناقشة الرسالة:

حفظه الله

الأستاذ الدكتور / زكريا إبراهيم الزميلي

حفظه الله

الدكتور / وليد محمد العامودي

ولاً أنسى أن أقدم بالشكر لأساتذتي في قسم التفسير وعلوم القرآن خاصة، وأساتذة كلية أصول الدين في جامعتنا الغراء عامة، على ما قدموه من عناية وجادوا به من دعم وتوجيه.

والشكر موصول إلى الدراسات العليا التي أتاحت لنا إكمال دراستنا.

والى جامعتي الغراء، وكل من شملهم إهدائي.. أجدد شكري وعرفاني

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله بارئ النسم ومجري القلم ومخرج الحي من العدم، الحمد لله حمد مقصرٍ عن تعداد النعم، ومعطينا الهمم، ومبعداً عنا شر النقم، وأصلي وأسلم على خير الأنام والبشر محمد بن عبد الله، وآله وصحبه ومن والاه ... أما بعد،

يمثل القصص القرآني حيزاً كبيراً من مساحة القرآن الكريم، حيث شمل كثيراً من أخبار الأمم الماضية في الأزمنة الغابرة، وتتبع آثار الأقسام مع أنبيائهم وحكى عنهم صورةً ناطقةً لما كانت عليه أحوالهم، كما يظهر القصص القرآني مراحل الدعوات وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذابين.

والقصص القرآني ليس من نسيج الخيال بل هو من الواقع الذي كان يحياه الناس، وهو أحداث تاريخية موافقة للواقع بعيدة عن المبالغة والخيال كما هو حال القصة الأدبية التي يقول عنها مؤلفوها بأنها لا تجمل إلا بالمبالغة، وصدق الله إذ يقول : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:62)، وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يفصل بين أحداث القصص القرآني بمواعظ ونصائح تنبه القارئ إلى الهدف المنشود من وراء القصة، ومن ثم تربط على قلب الإنسان برباط الخشية والمراقبة الإلهية، وتنمي ملكة الضمير وبالتالي تصلح سلوك الإنسان وأعماله في هذه الحياة الدنيا.

وقد تنوعت الأساليب التي سيقنت بها الموعظة وتعددت ميادينها في القصص القرآني مما دفعني لاختيار بحث بعنوان:

" الموعظة في ضوء القصص القرآني "

"دراسة موضوعية "

حيث قمت بدراسة هذا الموضوع دراسة تفسيرية موضوعية من خلال القرآن الكريم.

أولاً: أهمية الموضوع

1. تبرز أهمية هذا الموضوع في كونه يتعلق بأشرف كتاب وهو كتاب الله تعالى.
2. كما تبرز أهميته أيضاً من خلال حاجة المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة في التعرف على ميادين الموعظة وأساليبها وآثارها في ضوء القصص القرآني.
3. اعتبار أن الأنبياء والرسل فيهم القدوة الحسنة للبشرية.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

1. الرغبة في التأمل والتدبر في كتاب الله تعالى واستقصاء مواطن الموعظة في ضوء القصص القرآني.
2. كثرة المواعظ والنصائح بين ثنايا القصص القرآني والتي يؤخذ منها عبر كثيرة وعظات نافعة.
3. إرشاد وتشجيع مشرفي الدكتور محمود عنبر على البحث في هذا الموضوع.
4. افتقار المكتبة الإسلامية إلى موضوع تفسيري قرآني محكم يتناول موضوع (الموعظة في ضوء القصص القرآني) في إطار دراسة تفسيرية موضوعية.
5. حاجة المدعوين في كل عصر إلى المواعظ القرآنية، والتي كان لها الأثر البالغ في الأقسام الماضية، وتركت بصمات واضحة في سير الدعوة إلى الله.

ثالثاً: أهداف البحث وغاياته: للبحث أهداف عديدة وغايات سامية أذكر أهمها:

1. ابتغاء مرضاة الله تعالى أهم هدف وأسمى غاية أرجوها من كتابة هذا البحث.
2. خدمة القرآن الكريم، وذلك من خلال البحث في جانب من جوانبه وهو القصص القرآني.
3. إثراء المكتبة الإسلامية ببحث قرآني عن الموعظة وميادينها في إطار دراسة موضوعية محكمة.
4. حث المسلمين على الموعظة بالحسنى واتباع طريق الهداية والحق والصواب.
5. بيان عظمة القرآن الكريم وشموليته، من خلال إدراكه لمصالح المؤمنين الدنيوية والأخروية.
6. إبراز بعض النماذج البشرية المتميزة من خلال مواعظ الأنبياء والصالحين التي وردت في سياق القصص القرآني.

رابعاً: الدراسات السابقة

بعد البحث والاطلاع حول ما كتب في الموضوع، تبين أنه لم يكتب فيه رسالة علمية محكمة، وبعد المراسلة لمركز الملك فيصل في المملكة العربية السعودية أفاد بأنه لا يوجد دراسات قرآنية محكمة حول هذا الموضوع في قاعدة معلومات الرسائل الجامعية.

خامساً: منهج البحث: المنهج المتبع في هذه الدراسة، هو المنهج الاستقرائي التحليلي وذلك كما يلي:

1. جمع الآيات القرآنية التي وردت الموعظة بين ثناياها ودرستها دراسة تفسيرية موضوعية.
2. عزو الآيات القرآنية المذكورة إلى سورها مع ذكر رقم الآية وتوثيق ذلك في متن البحث تجنباً لإتقال الحواشي.
3. وضع العناوين المناسبة للفصول والمطالب مستخدمةً الألفاظ القرآنية ما أمكن.
4. تفسير الآيات القرآنية تفسيراً إجمالياً وفقاً لطبيعة البحث في التفسير الموضوعي.
5. الوقوف على اللطائف والإشارات والعبير والعظات واستنباط الأحكام التي تخدم موضوع البحث، مع ربط الموضوع بواقعنا المعاصر بما فيه من مستجدات.
6. التركيز على منهج البحث في التفسير الموضوعي والالتزام بكل قواعده وأصوله.
7. الاستدلال بأقوال العلماء والمفسرين مع التوثيق في الحاشية حسب الأصول مع الاستعانة بمصادر ومراجع عامة مما له علاقة بالبحث.
8. الاستدلال بالأحاديث النبوية الشريفة التي تخدم البحث، وعزوها لمطابقتها الأصلية ونقل حكم العلماء عليها ما أمكن.
9. توضيح معاني المفردات الغريبة التي تحتاج إلى بيان في الحاشية وتوثيقها من مصادرها اللغوية.
10. الترجمة للأعلام غير المعروفة التي وردت في البحث.
10. مراعاة الأمانة العلمية في النقل والتوثيق، وذكر المصادر والمراجع في الحاشية ابتداءً بالكتاب ثم المؤلف ثم الجزء والصفحة وعدم ذكر اسم المؤلف في الحاشية إن ذكر في متن الرسالة.
11. عمل الفهارس اللازمة التي تخدم البحث وتسهل الوصول للمعلومات.

سادساً: خطة البحث

وتتكون من مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وفهارس، وذلك كما يلي:

المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه وغاياته والدراسات السابقة ومنهج البحث، وخطة البحث.

التمهيد

مفهوم الموعظة والقصة القرآنية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم الموعظة وورودها في السياق القرآني

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الموعظة لغةً واصطلاحاً

المطلب الثاني: الموعظة في سياق القصص القرآني

المبحث الثاني: مفهوم القصة القرآنية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القصة لغةً واصطلاحاً

المطلب الثاني: أنواع القصص القرآني

المطلب الثالث: أهداف القصة وخصائصها

الفصل الأول

ميادين الموعظة في ضوء القصص القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج من المواعظ العامة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: موعظة سيدنا نوح عليه السلام لقومه

المطلب الثاني: موعظة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه

المطلب الثالث: موعظة سيدنا لوط عليه السلام لقومه

المطلب الرابع: موعظة سيدنا هود عليه السلام لقومه

المطلب الخامس: موعظة سيدنا صالح عليه السلام لقومه

المطلب السادس: موعظة سيدنا موسى عليه السلام لقومه

المبحث الثاني: نماذج من المواعظ الخاصة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مواعظ الآباء للأبناء

المطلب الثاني: مواعظ الأبناء للآباء

المطلب الثالث: مواعظ الأخوة

المطلب الرابع: مواعظ للطغاة والمتجبرين

الفصل الثاني

أساليب الموعظة وآثارها في ضوء القصص القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أساليب الموعظة في ضوء القصص القرآني

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: اللين

المطلب الثاني: الشدة

المطلب الثالث: الترغيب

المطلب الرابع: الترهيب

المطلب الخامس: الحكمة

المطلب السادس: المجادلة بالتّي هي أحسن

المطلب السابع: الوعد والوعيد

المبحث الثاني: آثار الموعظة في ضوء القصص القرآني

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التوبة والإيمان

المطلب الثاني: الإعراض والصد

المطلب الثالث: الإخراج من الديار

المطلب الرابع: السجن ومحاولة القتل

المطلب الخامس: الحرق والنار

الفصل الثالث

نماذج للناجين بالموعظة والهالكين بالإعراض عنها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج للناجين بالموعظة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: سحرة فرعون

المطلب الثاني: آسيا زوجة فرعون

المطلب الثالث: أصحاب الأخدود

المطلب الرابع: أصحاب الجنة

المبحث الثاني: نماذج للهالكين بإعراضهم عن الموعظة

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: ابن نوح عليه السلام

المطلب الثاني: النمرود بن كنعان

المطلب الثالث: زوجة لوط عليه السلام

المطلب الرابع: قارون

المطلب الخامس: صاحب الجنة

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس:

وتشتمل على:

- 1- فهرس الآيات القرآنية
- 2- فهرس الأحاديث النبوية
- 3- فهرس الأعلام المترجم لهم
- 4- فهرس المصادر والمراجع
- 5- فهرس الموضوعات

التمهيد

مفهوم الموعظة والقصة القرآنية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم الموعظة وورودها في السياق القرآني

المبحث الثاني: مفهوم القصة القرآنية

المبحث الأول

مفهوم الموعظة وورودها في السياق القرآني

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الموعظة لغةً واصطلاحاً

المطلب الثالث: الموعظة في سياق القصص القرآني

التمهيد

مفهوم الموعدة والقصة القرآنية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم الموعدة وورودها في السياق القرآني

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الموعدة لغةً واصطلاحاً

أولاً: تعريف الموعدة لغةً

مادة "الموعدة" اللغوية هي (الواو والعين والطاء)، فالوعظ: التخويف، والاسم منه: العظة، يقال: وَعَظْتُ الرَّجُلَ أَعِظُهُ عِظَةً وَمَوْعِظَةً، وَاتَّعَظَ: تَقَبَّلَ الْعِظَةَ، وَهُوَ تَذَكِيرُكَ إِيَّاهِ الْخَيْرِ وَنَحْوَهُ مِمَّا يَرِقُّ لَهُ قَلْبُهُ. وَمِنْ أَمْثَالِهِمُ الْمَعْرُوفَةُ: لَا تَعْظِينِي وَتَعْظُ عِظِي، أَي: اتَّعَظِي أَنْتِ وَدَعِي مَوْعِظَتِي⁽¹⁾.

ومن أقوال علماء اللغة: "الوَعْظُ: النُّصْحُ وَالتَّذَكِيرُ بِالْعَوَاقِبِ، تَقُولُ: وَعَظْتُهُ وَعَظًا وَعِظَةً فَاتَّعَظَ، أَي قَبِلَ الْمَوْعِظَةَ، يُقَالُ: السَّعِيدُ مِنْ وَعَظَ بغيره، والشقيُّ من اتعظ به غيره"⁽²⁾.

وقيل "وَعَظَهُ يَعِظُهُ وَعَظًا وَعِظَةً: أَمَرَهُ بِالطَّاعَةِ وَوَصَّاهُ بِهَا، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ (سبأ: 46)، أَي أَوْصِيكُمْ وَأَمُرُكُمْ، فَاتَّعَظَ أَي انْتَمَرَ وَكَفَّ نَفْسَهُ، وَالِاسْمُ: الْمَوْعِظَةُ وَهُوَ وَعَظٌ وَالْجَمْعُ وَعَظَاتٌ"⁽³⁾.

(1) انظر: العين، للخليل بن أحمد، ج2، ص 228

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للفارابي، ج3، ص 1181

(3) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، ج 2، ص (665، 666)

قال ابن سيده⁽¹⁾: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، وفي التنزيل: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (البقرة: 275)، ولم يجئ بعلامة التأنيث لأنه غير حقيقي أو لأن الموعظة في معنى الوعظ، حتى كأنه قال: فمن جاءه وعظ من ربه، وقد وعظه وعظاً وعِظَةً، واتعظ هو: قَبِلَ المَوْعِظَةَ، حين يذكر الخبر ونحوه⁽²⁾.

ويرى الفيروزآبادي⁽³⁾ في مادة "وَعَظَهُ، يَعِظُهُ، وَعِظاً وَعِظَةً وموعظة: ذكره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب، فاتعظ " ⁽⁴⁾، ويعرّف الزبيدي الوعظ بأنه التخويف والإنذار⁽⁵⁾.

من خلال ما سبق، تبين للباحثة أن الموعظة في اللغة جاءت بمعنى التخويف والإنذار، والتذكير بالخير، وبمعنى النصح والتذكير بالعواقب، والأمر بالطاعة والوصية بها، وتذكير الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب.

ثانياً: تعريف الموعظة اصطلاحاً

توسّع العلماء والمفسرون في تفسير معنى الموعظة، لاسيما الموعظة الحسنة التي كانت أساساً لدعوة الأنبياء والمرسلين، وهذه بعض تعريفات العلماء:

(1) ابن سيده: هو علي بن إسماعيل أبو الحسين، إمام في اللغة وآدابها، ولد في الأندلس عام 398 هـ، كان ضريباً كأبيه، اشتغل بنظم الشعر ونبغ في آداب اللغة ومفرداتها، من أعماله (المخصص، المحكم الأعظم وشرح ما أشكل من شعر المتنبي والأنيق)، توفي سنة 458 هـ. انظر: الأعلام، للزركلي، ج4، ص 263

(2) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج 7، ص 466

(3) الفيروزآبادي: هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، محمد الدين الشيرازي، من أئمة اللغة والأدب، ولد بكارزين عام 729 هـ، وانتقل للعراق وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، من أشهر أعماله (القاموس المحيط وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، توفي سنة 817 هـ. انظر: الأعلام، للزركلي، ج 7، ص 146

(4) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ج1، ص699

(5) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، ج20، ص 290

- 1- يعرفها الإمام الطبري بقوله: "هي التخويف والترهيب مما سيحيق بالمقصود بالموعظة إذا ما تعنت وأبى أن يستجيب" (1).
- 2- ويرى الخليل بن أحمد (2) أن الوعظ "هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب" (3)، وذلك من صميم ما تهدف إليه الدعوة إلى الله سبحانه، فذكر الخير الذي ينال المهتدين يرقق القلب.
- 3- ويعرفها الإمام الجرجاني بقوله: "والموعظة هي التي تلين القلوب القاسية، وتدمع العيون الجامدة، وتصلح الأعمال الفاسدة" (4).
- 4- ويعرفها الإمام ابن القيم (5) قائلاً: "أن الموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة" (6)، وهو يجمع في هذا التعريف دفتي ميزان الدعوة فالنفس التي لا تلين بذكر الخير يلينها النذير من الشر، وذلك ما فطر الله تعالى عليه الناس.
- 5- ويقول الإمام الشوكاني: "هي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها، قيل: وهي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة" (7).

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج2، ص180

(2) الخليل بن أحمد: هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليماني، أبو عبد الرحمن، ولد سنة 100 هـ، من أئمة العلم والأدب، واضع علم العروض، أخذ من الموسيقى وكان عارفاً بها، وهو أستاذ سيبويه النحوي، من أعماله (العين في اللغة، العروض، النقط والشكل والنغم)، توفي عام 170 هـ. انظر: الأعلام، للزركلي، ج2، ص314

(3) العين، للخليل بن أحمد، ج2، ص228.

(4) كتاب التعريفات، للجرجاني، ج1، ص236

(5) ابن القيم الجوزية: هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار العلماء، ولد في دمشق سنة 1292م، وتوفي فيها سنة 1350م، من أعماله (إعلام الموقعين، مفتاح دار السعادة، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية)، انظر: الأعلام، للزركلي، ج6، ص56

(6) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج1، ص153

(7) فتح القدير، للشوكاني، ج3، ص242

وقد خص الله سبحانه المتقين المؤمنين بالموعظة كما جاء في قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 138)، لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير دون غيرهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَدَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَتَفَعُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: 55)⁽¹⁾.

وبعد الدراسة والبحث الدقيقين، وجدت الباحثة أن المعاني اللغوية لمادة (وعظ) أشمل وأعم وأدق من المعاني الاصطلاحية، وبالنظر في التعريفات السابقة استنبطت الباحثة واجتهدت في وضع تعريف تراه جامعاً ومانعاً للموعظة وهو: (النصح والإرشاد المدعوم بالدلائل والبراهين وأساليب الإقناع على تنوعها واختلافها، مشتملة التبشير بالخير والثواب، والإنذار والتخويف من الشر والعقوبة)

المطلب الثاني: الموعظة في سياق القصص القرآني

بعد البحث والاطلاع حول مادة (وَعَظَ) في السياق القرآني، وجدت الباحثة أنها وردت على الصيغ التالية: (موعظة- يعظكم- يوعظ- موعظة- فعظوهن- عظهم- يوعظون- تعظون- توعظون- أعظك- أوعظت- الواعظين- أعظكم).

وقد وردت مادة (وعظ) واشتقاقاتها في القرآن الكريم في ثلاثة وعشرين موضعاً، تسعة مواضع منها في السور المكية وأربعة عشر موضعاً في السور المدنية.

أولاً: الموعظة ومشتقاتها في الآيات المكية

وردت الموعظة ومشتقاتها في القرآن المكي في تسعة مواضع، موزعة على تسع آيات، في ست سور، وذلك على النحو التالي:

المادة	الآية	رقمها	السورة
موعظة	وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً	145	الأعراف
موعظة	يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ	57	يونس

(1) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 1، ص 57

أعظك	إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ	46	هود
موعظة	وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ	120	هود
يعظكم	وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ	90	النحل
موعظة	ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ	125	النحل
أوعظت	قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ	136	الشعراء
الواعظين	قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ	136	الشعراء
أعظكم	قُلْ إِنَّمَا أَعْظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفَرَادَى	46	سبأ

ثانياً: الموعظة ومشتقاتها في الآيات المدنية

وردت الموعظة ومشتقاتها في القرآن المدني في أربعة عشر موضعاً، موزعة على أربع عشرة آية، في سبع سور، وذلك على النحو التالي:

المادة	الآية	رقمها	السورة
موعظة	فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ	66	البقرة
يعظكم	وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ	231	البقرة
يوعظ	ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ	232	البقرة
موعظة	فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ	275	البقرة
موعظة	هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ	138	آل عمران
فعضوهن	وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ	34	النساء
عظهم	فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ	63	النساء
يعظكم	إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا	58	النساء
يوعظون	وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ	66	النساء

المائدة	46	وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ النُّورِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ	موعظة
الأعراف	164	لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ	تعظون
النور	17	يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ	يعظكم
النور	34	وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ	موعظة
المجادلة	3	فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تَوْعِظُونَ بِهِ	توعظون

وبالنظر في الجدولين السابقين، تلاحظ الباحثة أن لفظة وعظ ومشتقاتها قد وردت في الآيات المكية في سياق الحديث عن الأمم الماضية مع أقوامهم، كالمواعظ التي وردت في الألواح التي جاء سيدنا موسى عليه السلام لقومه، وحكايته عن نوح عليه السلام مع ولده، وموعظة هود عليه السلام مع قومه، وهذا يتناسب مع طبيعة الدعوة وحالة المدعويين، حيث نزل أغلب قصص القرآن الكريم في العهد المكي لإنذار أهل مكة وتوعدهم بأن مصيرهم سيكون كمصير تلك الأقوام التي وعظت من قبل أنبيائهما فرفضت دعوة الله وصدت عن سبيل الله.

وأما الآيات المدنية، فقد وردت لفظة الموعظة ومشتقاتها في سياق الآيات التي تحدثت عن الأحكام والكفارات والمشكلات الزوجية، ككفارة الظهار وحادثة الإفك وعلاج نشوز الزوجة، وكل هذه الموضوعات وردت في المجتمع المدني بعد أن نزل التكاليف وأصبح للمؤمنين كيان ودولة.

المبحث الثاني

مفهوم القصة القرآنية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القصة لغةً واصطلاحاً

المطلب الثاني: أنواع القصص القرآني

المطلب الثالث: أهداف القصة وخصائصها

المبحث الثاني: مفهوم القصة القرآنية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القصة لغةً واصطلاحاً

أولاً: تعريف القصة لغةً

ومادتها (قِصَصٌ)، وقِصٌّ أثره، أي: يَفُصُّه (قِصًّا) وقِصِيصًا، والقِصُّ: اتِّبَاعُ الأَثَرِ، ويُقَالُ: خَرَجَ فُلَانٌ (قِصًّا فِي أَثَرِ فُلَانٍ) وَقِصًّا، وَذَلِكَ إِذَا افْتَصَّ أَثَرَهُ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (القِصص: 11) أَي تَتَّبِعِي أَثَرَهُ، وَقِيلَ: القِصُّ: تَتَّبِعُ الأَثَرَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَصَّ فِي القِصِّ تَتَّبِعُ الأَثَرَ بِاللَّيْلِ، وَالصَّحِيحُ فِي أَيِّ وَفْتٍ كَانَ⁽¹⁾.

وقِصٌّ عَلَيْهِ الخَبَرُ (قِصًّا) وَ (قِصًّا): أَعْلَمَهُ بِهِ، وَأَخْبَرَهُ، وَمِنْهُ: قِصَّ الرُّؤْيَا. يُقَالُ: (قِصَصْتُ الرُّؤْيَا) أَقْصَيْتُهَا قِصًّا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَارْتَدًّا عَلَى آثَارِهِمَا قِصًّا﴾ (الكهف: 64)، أَي رَجَعَا مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَاهُ! يُقْصَانِ الأَثَرَ، أَي يَتَّبِعَانِهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القِصَصِ﴾ (يوسف: 3) أَي نُبَيِّنُ لَكَ أَحْسَنَ البَيَانِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (القِصُّ: البَيَانُ) والقِصُّ الاسمُ، والقاصُّ: مَنْ يَأْتِي بالقِصَّةِ عَلَى وَجْهِهَا، كَأَنَّهُ يَتَّبِعُ مَعَانِيهَا وَأَلْفَاطَهَا، وَقِيلَ: القاصُّ: يُقْصُ القِصَصَ لِاتِّبَاعِهِ خَبْرًا بَعْدَ خَبْرٍ، وَسَوَّاهُ الكَلَامَ سَوَّاقًا⁽²⁾.

والقِصُّ هو فعل القاصِّ إذا قص القِصص، والقِصَّةُ معروفة، ويقال: في رأسه قصة: يعني الجملة من الكلام⁽³⁾.

(1) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، ج 18، ص 98

(2) انظر: المرجع السابق، ج 18، ص 99

(3) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج 7، ص 73

"و(قَصَّ) أَثَرُهُ: تَتَبَعَهُ، وَكَذَا (اِقْتَصَّ) أَثَرُهُ وَ (تَقَصَّصَ) أَثَرُهُ، وَ (الْقِصَّةُ) الْأَمْرُ وَالْحَدِيثُ، وَقَدْ (اِقْتَصَّ) الْحَدِيثَ: رَوَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَ (قَصَّ) عَلَيْهِ الْخَبَرَ (قَصَصًا)، وَالِاسْمُ أَيْضًا (الْقِصَصُ) بِالْفَتْحِ وَضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ حَتَّى صَارَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ، وَ (الْقِصَصُ) بِالْكَسْرِ جَمْعُ (الْقِصَّةِ) الَّتِي تُكْتَبُ"⁽¹⁾.

ثانياً: تعريف القصة اصطلاحاً

القصة في الاصطلاح هي: " الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضاً"⁽²⁾، وقد يضم هذا التعريف القصة القرآنية وغيرها، وقد أفرد العلماء تعريفات خاصة للقصة القرآنية، ومنها أنها هي: "إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلهم، وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفراداً وجماعات، من كائنات بشرية أو غير بشرية، بحق وصدق، للهداية والعظة والعبرة"⁽³⁾، أو هي " ما حدث به القرآن من أخبار القرون الأولى في مجال الرسالات السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال، وبين مواكب النور وجحافل الظلام"⁽⁴⁾، وذلك كقصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وداوود وسليمان ولقمان وذي القرنين، إلى غير ذلك من القصص المذكور في القرآن الكريم، وقيل: هي "مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة"⁽⁵⁾.

وبعد استعراض التعريفات المتعددة للقصة لغوياً واصطلاحياً، ترى الباحثة أن القصة القرآنية هي: (متابعة ما يسرده القرآن الكريم من أحداث ومشاهد مثيرة تتحدث عن الأمم السابقة وأنبيائهم ومواطن العبرة والموعظة لأقوامهم، وذلك كله بأسلوب شيق ممتع وجميل).

وبعد الدراسة والبحث الدقيقين، وجدت الباحثة أن المعاني اللغوية لمادة (قَصَصَ) أشمل وأعم وأدق من المعاني الاصطلاحية.

(1) مختار الصحاح، للرازي، ج1، ص254

(2) أصول في التفسير، لابن عثيمين، ج1، ص57

(3) القصص القرآني، لعبد الباسط بليول، ج1، ص36

(4) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، لعبد الكريم الخطيب، ج1، ص40

(5) مفاتيح الغيب، للرازي، ج8، ص250

المطلب الثاني: أنواع القصص القرآني

يراعي القرآن الكريم الميل الطبيعي للإنسان إلى القصة، فيقدم العديد من القصص المحتوية على مضامين إيمانية تربوية عميقة كأسلوب فعال في تربية المسلمين، مستخدماً كل أنواع القصة، وهي كالتالي:

النوع الأول: القصة التاريخية الواقعية

ومنه كل قصص الأنبياء وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من هلاك ودمار نتيجة هذا التكذيب، وهي قصص تذكر بأسماء أشخاصها ومواقع حدوثها المكانية وزمن حدوثها مثل قصص نوح وقومه، وإبراهيم وإسماعيل، ولوط وقريته، وشعيب ومدين، وصالح وثمود، وموسى وفرعون، وعيسى وبني إسرائيل. ويستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج، ومنه قصة ابني آدم قابيل وهابيل، وما كان منهما من طاعة وعصيان، ورضا وسخط، وطيبة وحسد⁽¹⁾.

النوع الثاني:

وهي قصص تتعلق بالحوادث التي حدثت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، كغزوة بدر وأحد في سورتي آل عمران والأنفال، وغزة حنين وتبوك في سورة التوبة وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، وحادثة الإسراء والمعراج في سورة الإسراء⁽²⁾.

(1) انظر: بناء المجتمع الإسلامي، لنبيل السمالوطي، ج1، ص (145، 146)

(2) انظر: دراسات في القرآن وعلومه، أ.د. زكريا الزميلي، أ.د. عصام زهد، د. عبد الكريم الدهشان ج1، ص 37

المطلب الثالث: أهداف القصة وخصائصها

أولاً: أهداف القصة القرآنية

أهداف القصة عديدة، منها ما يتجه نحو العبادة أداءً وتحسيناً، ومنها ما يتجه نحو الأخلاق لاختيار مكارمها والبعد عن سوئها، ومنها ما يتجه نحو التنفير من الكفر والمعصية أياً كانت، وللقصة أهداف رئيسة يمكن تلخيصها في ثلاثة أهداف.

الهدف الأول: دعوة الناس إلى الإسلام

فذكر الأمم الغابرة وما كان منها وما آل إليه أمرها تبعاً لإيمانها أو كفرها كقيل بأن يرقق القلوب القاسية ويفتح الأسماع والأفهام الغليظة، وبذلك تكون القصة القرآنية أداة مهمة وفعالة من أدوات الدعوة إلى الله.

الهدف الثاني: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد صرح الله تعالى بذلك في غير موضع من القرآن الكريم، مثال قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود:120) ، حيث يُطلع الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم على ما كان مع إخوانه الأنبياء من أمر أقوامهم، من صدِّ وتعنتٍ وكفرٍ وعناد، فيكون ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة له.

الهدف الثالث: ترابط الدعوات الإلهية

فهما اختلف الأنبياء واختلفت معهم الرسائل الإلهية والكتب السماوية، فالدين واحد، والرسالة واحدة، لأنهم يلتقون على أصول واحدة⁽¹⁾.

الهدف الرابع: بيان العبرة والعظة

لقد ذكر الله سبحانه قصص الأمم الماضية وأخبارهم وما حاق بهم من العذاب والهلاك نتيجة لتكبرهم على الحق وتكذيبهم للرسول وعنادهم وتجبرهم في الأرض بغير الحق، وأوضح الحق تبارك وتعالى قدرته

(1) انظر: القصة في القرآن الكريم، لمريم السباعي، ج1، ص 277

في استئصال المعاندين المكذبين ليكونوا عبرة لمن سيأتي من بعدهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف: 59).

الهدف الخامس:

تصديق الأنبياء السابقين وإحياء دعوتهم وبيان لنعمة الله عليهم، مثل قصة سليمان وداوود وأيوب وإبراهيم وموسى وعيسى وزكريا ويونس عليهم السلام، حيث كانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تظهر نعمة الله عليهم في كثير من المواقف.

الهدف السادس:

القصص القرآني يكشف عن الزيف والتحريف الذي قام به أهل الكتاب، ويوضح ما كتموه من البينات والهدى، ويتحداهم بكشفه عما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل من الحقائق، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: 93)⁽¹⁾.

ثانياً: خصائص القصة القرآنية

ليست القصة القرآنية عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه، وإدارة حوادث كما هو شأن القصة العادية، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن إلى إبراز الأغراض الدينية التي تكفل للإنسان السعادتين⁽²⁾. وخصائص القصة القرآنية هي ما تمتاز به عن غيرها من القصص، التي يؤلفها البشر فيحورونها ويؤولونها كما تميل أهواؤهم وحسب ما تجود به مخيلاتهم، وهي خصائص متفردة تمنح القصص القرآني سمواً وتفرداً لا يجب ولا يكون لغيرها.

(1) انظر: دراسات في القرآن وعلومه، أ.د. زكريا الزميلي، أ.د. عصام زهد، د. عبد الكريم الدهشان ج1، ص 42

(2) انظر: القصة في القرآن، لمحمد قطب، ج1، ص25

وهي خصائص ريبانية بلا شك، منحها سبحانه وتعالى لذلك القصص القرآني ليكون بذلك مهياً لهداية البشر وتخليصهم مما هم فيه من كفر وضلال، وبسمو هذا الهدف تسمو تلك الخصائص، وتستعرض الباحثة تلك الخصائص وتناقشها كما يلي:

أولاً: أسباب النزول / المناسبة

"القصة القرآنية جزء لا يتجزأ من الوحي الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، "والقصص القرآني جزء من القرآن الذي أوحى الله تعالى به إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في مقدمات بعض القصص وفي أعقابها فجاء في أول سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)﴾ (يوسف: 2-3)" (1).

ويتضح مما سبق أن القصص القرآني إنما نزل بوحي من الله تعالى من دون علم سابق للرسول صلى الله عليه وسلم بها، وذلك مما أثبتته سبحانه صراحةً في القرآن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: 49)

ثانياً: التزام القصة بالحق

وصف الله سبحانه في غير موضع من كتابه العزيز القصص القرآني بأنه الحق، لا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا مكان ولا مجال للأساطير ولا الخرافات التي كانت تنتقلها الشعوب والأمم الغابرة، ومن شك في صحة القصص القرآني وكونها عين الحقيقة، فقد شك في القرآن ذاته، والوحي والتنزيل، والعياذ بالله.

(1) القصة في القرآن الكريم، لمريم السباعي، ج1، ص 48

ويشير الله سبحانه إلى أن القصص القرآني قائم على الحق في آياتٍ عديدة، في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَا هُمْ هُدًى﴾ (الكهف: 13)، وقوله: ﴿تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (القصص: 3)، وقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ (المائدة: 27)، والمقصود بالحق هنا: هو الحق الموافق لما وقع⁽¹⁾.

إن التزام القصة القرآنية بالحق، حقيقة قامت الأدلة عليها بما لا يدع مجالاً للشك، وذلك:

أ- أن الأدلة القاطعة قامت على أن القرآن الكريم كلام الله المنزل، وأن محمداً بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه قد بلغ ما أنزل إليه من ربه، وإذا كان كذلك فكل ما جاء في القرآن من خبر فهو صادق، وإذا كان صادقاً فلا بد أن يكون مطابقاً للواقع.

فما جاء في القرآن من قصص إنما هو كلام رب العزة، أوحى به إلى الرسول الأكرم ليكون مأخذ عبرة، أو موضع قدوة، أو مجالة حكمة، وما كان كذلك لا يكون إلا حقاً من صميم الواقع⁽²⁾.

ب- القرآن حجة الله على خلقه جملةً وتفصيلاً، وإطلاقاً وعموماً، وهذا يأبى أن يحكى فيه ما ليس بحق ثم لا ينبه عليه، فكل ما ورد فيه على وجه الإخبار فهو حقٌ موافق للواقع.

وكل هذه الأدلة وغيرها تبرهن على أن القصة القرآنية حقيقة تاريخية لا شبهة فيها، ولذلك اعتبرت أعمدة رصينة في كل أبحاث التاريخ سواء تعلقت بحوادث عاصرت نزوله أو تخص أمماً غابرة كانت قبل نزوله، فالقرآن أصح مصدر عرفه التاريخ، ويشهد بذلك أن الباحثين على اختلافهم اعتمدوه أول وثيقة تاريخية تُعرف بها أحداث الجزيرة وأوضاعها في صدر الإسلام، ولم يستطع أحد من المؤرخين أن يأتي بأي رواية تعارض ما جاء في القرآن من أخبار، ولا يقول بغير ذلك إلا حاقد على الإسلام وأهله⁽³⁾.

(1) انظر: القصة في القرآن الكريم، لمريم السباعي، ج1، ص51

(2) انظر: الواضح في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا، ج1، ص (181، 182)

(3) انظر: المرجع السابق، ج1، ص182

"وبناء على ما سبق، فإن التاريخ هو الذي يستمد قوته من حديث القرآن وأخباره، وليس القرآن يستمد قوته من أخبار التاريخ، وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: 111)"⁽¹⁾.

ثالثاً: واقعية القصة في القرآن

من أهم الخصائص التي امتاز بها القصص القرآني، واقعيته، ويقع ذلك في أمرين:

أولاً: واقعية الحدث

ويظهر ذلك من خلال سرد الأحداث كما وقعت في القصص، مثال قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ثم قصته مع نبي الله شعيب وزواجه من إحدى ابنتيه، وغير ذلك من الأحداث في مختلف القصص، حيث يوردها الله سبحانه في واقعية طبيعية دون تكلف أو تزييف، أو نقص أو إضافة، وبإيجاز رائع وبيان واضح.

ثانياً: واقعية الأشخاص

ويظهر ذلك في معالجة القصص القرآني لشخصية الأنبياء عليهم السلام، ودورهم في القصة القرآنية، فإلى جانب ما حباهم الله سبحانه به من عصمة ورفعة في الأخلاق والخلقة، لم يُغفل القصص القرآني طبيعتهم البشرية وصفاتهم المشتركة مع غيرهم من أقوامهم، بل وكان يؤكد عليها، ليقدم نموذجاً رائعاً يُحتذى، يمارس حياته على الأرض كغيره، يسعى لربه بيتغي رضاه⁽²⁾.

(1) الواضح في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا، ج1، ص (182، 183)

(2) انظر: القصة في القرآن الكريم، لمريم السباعي، ج1، ص (61، 62)

رابعاً: تسامي أهداف القصة القرآنية

حرص الدين دائماً على الارتقاء بالإنسان، والنهوض به لتحريره من حاجاته وضروراته الأرضية، وشهواته وغرائزه الحيوانية، ليسمو فوق ذلك كله واهباً نفسه لله رب العالمين، ليكون هدفه الأساسي وهمه الأكبر، هو عبادة هذا الخالق العظيم، وتعمير الأرض كما أمره ربه وخالقه، بالطريقة التي يحبها ويرضاها.

كان ذلك هو الأساس الذي قام عليه الدين منذ آدم وحتى محمد عليهما الصلاة والسلام، ولذلك كله، كان لا بد وأن يكون تسامي الأهداف من أبرز خصائص القصص القرآني التي جاءت في الوحي الكريم، الوسيلة الأساسية لتحقيق ذلك السمو والارتقاء.

ولعل المتأمل في كل ما جاء في الذكر الحكيم من قصص قرآني، يجد أن الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وعبادته دون غيره من حجر أو بشر أو شجر، كان الهدف الأول في كل الرسالات، فلا شيء أسمى وأكرم من أن يتحرر الإنسان من عبودية المخلوقات والموجودات، وأن يتخلص من سطوتها وثقلها بأن يكون عبداً لله الواحد القهار، ومن بعد تحقيق الهدف الأول المتمثل بالتوحيد، تركز الدعوة في الرسالات كلها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق ونبذ الرذائل وذميمة العادات⁽¹⁾.

ولعل أشهر القصص القرآني التي بدا فيها تسامي القصص القرآني واضحاً، قصة يوسف عليه السلام، وما كان من أمره مع امرأة العزيز حين راودته عن نفسه وغلقت عليه الأبواب لكي تتاله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (يوسف:23) وذلك ولا شك، موقف تملؤه الإيحاءات والإشارات، غير أن الذكر الحكيم قد عالج القصة بأسلوب غاية في الروعة، فقد أوصل المعنى كاملاً دون حذف أو نقص، من غير أن يחדش الحياء أو أن يطلق العنان للخيلات المريضة والنفوس الرديئة.

والقصص القرآني حين يعرض قصص الفاحشة، لا يعرضها لإثارة تليذ القارئ أو السامع بالمشاعر المنحرفة، كما تفعل القصص الواقعية والطبيعية في المذاهب الحديثة الضالة، فلحظة الجنس -منحرفة

(1) انظر: القصة في القرآن الكريم، لمريم السباعي، ج1، ص77

أو غير منحرفة- لا تستأهل الوقوف عندها بأكثر من مجرد الذكر، إنها ليست هي الحياة، إنها عارض يعرض في الحياة ويقضى، يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق⁽¹⁾.

"تلك قاعدة مرعية في كل قصص القرآن عن الفاحشة، وهي كذلك ينبغي أن تكون مرعية في كل القصص الإسلامي، إن الإسلام لا يحرم الفن، ولا يحرم وصف المشاعر الجنسية - نظيفة أو غير نظيفة - ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف، ولكنه يعرضها كما ينبغي أن تعرض، لحظة ضعف لا لحظة بطولة، ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يلبث دائراً في حلقتها المرتكسة على الدوام"⁽²⁾.

"وهكذا تلتقي مطالب الفن ومطالب التصور الإيماني دون تعارض ولا نزاع، ويستفيد الإسلام بالقصة في التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصيلة، أو بجانب الحق، أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير " ⁽³⁾.

وفي مثال آخر لتسامي الأهداف في القصص القرآني، يقول تعالى: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتَتَزَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) ﴾ (الشعراء: 143-152)

" يقول الرازي: واعلم أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكل والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الشعراء: 151)

(1) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، ج1، ص199 (بتصرف)

(2) المرجع السابق، ج1، ص 200

(3) المرجع السابق، ج1، ص 200

وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها⁽¹⁾.

ولا شك بأن الأمثلة الواردة أعلاه، وأمثلة كثيرة تزخر بها آيات الذكر الحكيم، من قصص قرآني يأمر بكل ما هو خير وينهى عن كل ما هو شر، يمدح أخلاق أناس ويذم تصرفات آخرين، ثم يبين مصائر المحسنين والمسيئين في الدنيا قبل الآخرة، دليل دامغ على مدى عناية القصص القرآني بالسمو الإنساني، ومدى اتصافه بالتسامي في الأهداف والمعاني.

(1) مفاتيح الغيب، للرازي، ج24، ص 525

الفصل الأول

ميادين الموعظة في ضوء القصص القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج من المواعظ العامة

المبحث الثاني: نماذج من المواعظ الخاصة

المبحث الأول

نماذج من المواعظ العامة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: موعظة سيدنا نوح عليه السلام لقومه

المطلب الثاني: موعظة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه

المطلب الثالث: موعظة سيدنا لوط عليه السلام لقومه

المطلب الرابع: موعظة سيدنا هود عليه السلام لقومه

المطلب الخامس: موعظة سيدنا صالح عليه السلام لقومه

المطلب السادس: موعظة سيدنا موسى عليه السلام لقومه

الفصل الأول

ميادين الموعظة في ضوء القصص القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج من المواعظ العامة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: موعظة سيدنا نوح عليه السلام لقومه

بعث الله أنبياء كثيراً إلى أقوامهم ليعلموهم أمور دينهم ويرشدوهم إلى طريق الحق والهداية بعيداً عن الضلال والغواية، وتستعرض الباحثة في هذا الفصل نماذج رائعة من مواعظ الأنبياء لأقوامهم، حيث تبدأ في هذا المطلب مع سيدنا نوح عليه السلام، واحد من أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير موضع من كتابه العزيز، في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصفوات وأنزل فيه سورة كاملة هي سورة نوح، وتستعرض الباحثة القصة حيث جاءت بتفصيل أكبر في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ
 أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ
 افْتَرَيْتُهُ فَعَلِّي إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرُمُونَ (35) وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ
 آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
 مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ
 مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى
 إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ
 آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
 (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ
 الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ
 وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ
 وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
 مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ
 صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
 أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ
 مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمِعَتْهُمْ نَمًا يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
 الْعِيبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴿

(هود: 25-49)

وقد جاءت قصة نوح عليه السلام تسلية لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليربط الله على قلبه أمام
 ما يواجهه من أذى المشركين، فيكون قدوة له، فيعاين كيف تعالى عليه عليه قومه ولم يؤمن به من قومه
 إلا الضعاف الفقراء⁽¹⁾.

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج7، ص22

"وموضع الاعتبار هنا أن قوم نوح يحاربونه بما حارب الملأ من قريش محمداً صلى الله عليه وسلم ودعوة نوح هي دعوة محمد الخالدة، وهي دعوة النبيين من قبل، وهي الحقيقة الأزلية، هي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له"⁽¹⁾.

وقد احتج المشركون من قوم نوح على نبيهم بقولهم: ﴿ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود: 27)

ولم يكن قوم نوح متفردين بدعواهم أنهم لا يصدقون أن يرسل الله تعالى بشراً رسولاً لهم، فقد احتج بذلك كل أقوام الأنبياء من بعدهم، ثم احتجوا بدعواهم أنه لم يؤمن به إلى من وصفوهم أرادلهم من الفقراء وأصحاب المهن المتضعة، وفي قولهم ﴿ بَادِي الرَّأْيِ ﴾ " ثلاثة أوجه: أحدها: إنك تعمل بأول الرأي أي من غير فكر، والثاني: أن ما في نفسك من الرأي ظاهر، تعجيزاً له، والثالث: يعني أن أرادلنا اتبعوك بأقل الرأي وهم اذا فكروا رجعوا عن اتباعك"⁽²⁾.

"وغرضهم هنا منه التعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أرادل ليسوا قدوة ولا أسوة، والثاني أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا الى ذلك ارتجالاً ومن غير فكر ولا روية"⁽³⁾.

ولعل القوم المتباهين بقوتهم وثرانهم قد أرادوا توجيه الإهانة لنبي الله نوح عليه السلام ومن تبعه بوصفهم أرادل، فالأردل هو الخسيس الدنيء في أعين الناس، وردال كل شيء هو نفايته، فهم يصفون من آمن مع نوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع الذي يعيشون فيه"⁽⁴⁾.

"وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ردالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأرادل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف،

(1) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 7، ص 3698

(2) تفسير الماوردي، للماوردي، ج 2، ص 465

(3) إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين درويش، ج 4، ص 340 (بتصرف)

(4) انظر: تفسير الشعراوي، للشعراوي، ج 1، ص 6429

ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته⁽¹⁾.

ويرد عليهم النبي الحكيم بقوله " يا قوم"، وفي الكلمة كعادة الأنبياء عليهم السلام كثير من التلطف والتودد لمن هم هدف دعوته، لعل الكلم الطيب يلقي عندهم مكاناً، فهو في نسبتهم لنفسه يقربهم منه ويجعلهم أهله وعشيرته، تقريباً وتأليفاً، ويسألهم عن موقفهم إن كان يملك الدلائل والبراهين على صدق النبوة والإيمان الذي جاءه رحمة من ربه وخفي عليهم، مطمئناً لهم أنه غير مكرهم على شيء هم له كارهون⁽²⁾.

ولسان حال النبي الكريم في الآيات يقول: "أخبروني إن كنت على بينة من ربي، أي: على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إليّ من التوحيد والهدى، فخفي ذلك كله عليكم، ولم تعتقدوا أنه حق، أيمكنني أن ألزمكم به؟ وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل الله علي بها، ورحمني بإيتائها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن كان واضحاً جلياً لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله جل وعلا إليه"⁽³⁾.

"والخطاب أرفق ما يكون لقربهم إليه، ولم يقل كفرتم بل قال: " خفيت عليكم " وترك الأمر لاختيارهم، ووجه أنظارهم إلى أن الأمر ليس لفضل شخصي، ولكن لهدى إلهي، ولأن رسالات الله بينات وهداية،

ثم بين أن المسألة ليست أمراً دنيوياً، حتى تتنافسوا عليه، إنما هو أعلى مما عندكم وما تتنافسون فيه وطمانهم إلى أنه لا يسألهم مالا، والمال عنصر حياتهم المادية التي بها يستعلون وهو زخرف الحياة وزينتها، ولكن يسألهم هداية، وأجره على الله وحده"⁽⁴⁾.

ولم يكن أمر الكفر والإيمان أول ما يُهم عليه قوم نوح عليه السلام وأخطره، وإنما كان الكبر والخيلاء، فقد طلبوا من النبي الكريم أن يطرد أتباعه من أراذل القوم لكي يتبعوه، وأنهم لن يرضوا أن يكونوا هم

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 4، ص 316

(2) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج7، ص 3700

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، ج2، ص 177

(4) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 7، ص 3700

وأولئك الضعفاء في الأمر سواء، وذلك كما قال زعماء قريش للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن فقراء الصحابة: اطرده هؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك فإننا نستحي أن نجلس معهم في مجلسك⁽¹⁾.

لكن النبي الكريم يأبى ذلك معلناً لقومه: "لن أطردهم لأن ذلك ليس من حقي بعد أن آمنوا، وبعد أن تكفل الله بمحاسبتهم، ولكني مع هذا البيان المنطقي الواضح، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس عند الله، وتجهلون أن مرد الناس جميعاً إليه وحده سبحانه ليحاسبهم على أعمالهم، وتتطاولون على المؤمنين تطاولاً يدل على طغيانكم وسفاهتكم"⁽²⁾.

ويتابع النبي الكريم في عظته قومه قائلاً: "﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي رزقه وأمواله حتى جددتم فضلي، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً، أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أقول في شأن من استرذلتموهم لفقركم ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فإن ما أعده الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك"⁽³⁾.

وكعادة أهل الكفر حين يعجزهم أنبياؤهم بالحجة والبيان، يتجاوزون كل كلام ومقال ويتحدون أنبياءهم بكل صلف وجهل، فيطالبونه بأن ينزل بهم العقاب الذي ينذرهم إن كان من الصادقين، فقد سئمو المناقشة والجدل.

ويجيبهم النبي الكريم أن إنزال العذاب بهم إنما هو من أمر الله وحده، فلن ينفعهم نصحه إن كان الله أراد بهم العذاب⁽⁴⁾.

(1) انظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 7، ص 185

(2) المرجع السابق، ج 7، ص 185 (بتصرف)

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج 3، ص 133

(4) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب القنوجي، ج 6، ص 175

وقد بلغ الأسى والحزن في نفس رسول الله نوح عليه السلام مبلغه، حتى كان يبكي ويتأسف على حالة قومه ودعوته لهم، ويرسل الله سبحانه وحيه إلى نبيه يخبره أن أمل القوم قد انقطع من التوبة والإنابة، وأنه لن يؤمن منهم إلا من قد سبق وفعل، ثم يأمره بألا يبتئس وألا يحزن بما كانوا يفعلون⁽¹⁾.

ويرشد الله عزَّ وجلَّ نبيه إلى طريق الخلاص والنجاة ولأهله ومن آمن معه، فيأمره ببناء سفينة تكون بإذن الله طريقهم للنجاة، بينها بهداية الله ووحيه ورعايته، ويصدر سبحانه حكمه بهلاك القوم الظالمين، ناهياً نبيه أن يدعوه أو يرجوه لهم بقوله: ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم، ﴿ إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه⁽²⁾.

ولقد أقام القوم الظالمون على ظلمهم، وشرعوا يسخرون من رسول الله وهو بيني السفينة، غير مصدقين بإنذاره لهم من الطوفان، يعييون عليه صناعة سفينة في اليابسة، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: "صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً"⁽³⁾.

و "السخر: الهزاء، قيل: وهو النظر إلى المسخور بعين النقص، وقال القرطبي: إنَّ السخرية وهي اسم منه، الاستحقار والاستهانة، والتنبية على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه"⁽⁴⁾.

ويرد عليهم النبي الواصل في ربه فيقول لهم: إن تسخروا منا اليوم فإننا نسخر منكم بعد الهلاك يصيبكم جزاء السخرية منا، وإن تستجهلونا بهذا الفعل -بناء السفينة- فإننا نستجهلكم بترك الإيمان، وسوف تعلمون بعد هذا من أحق بالسخرية، ومن يهلكه الله ويذله وينزل عليه عذاباً دائماً لا ينقطع أبداً⁽⁵⁾.

وقد طال انتظارهم لما كان يتوعددهم به نوح عليه السلام على وجه الاستبعاد، ولم يزدتهم تطاول الأيام إلا كفراً، وصمّوا على عقد تكذيبهم، العناد والفجور والسخرية والاستهزاء بالنبي الكريم ومن معه، حتى جاء

(1) انظر: المرجع السابق، ج6، ص 175

(2) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج 3، ص 134

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج3، ص 134

(4) تفسير آيات الأحكام، للسايس، ج1، ص707

(5) بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص 150 (بتصرف)

أمر الله، وركب في سفينة النجاة من ركب وتخلف عنها من تخلف، وكان وعد الله، فانطلقت المياه تتبع من الأرض وتهطل من السماء حتى كان الطوفان، وغرق المكذبون⁽¹⁾.

وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ منهج نبي الله نوح عليه السلام في دعوة قومه، وذلك في سورة كاملة سماها باسمه، اتضحت فيها مثابرة النبي الكريم في دعوة قومه كما اتضح صلفهم وإصرارهم على الكفر والفجور⁽²⁾، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) ﴾ (نوح: 5-9)

فبعد أن بذل عليه السلام غاية الجهد وضاق عليه الحيل، توجه إلى ربه شاكياً صلف قومه، فهو عليه السلام لم يدخر جهداً ولا حيلة في دعوة قومه في ليلٍ ولا في نهار، ولكنَّ دعوته لهم لم تزد لهم إلا شروداً عن الحق وإعراضاً عنه، وكلما دعاهم ليقروا بوحدانية الله تعالى ليغفر لهم خطاياهم وذنوبهم سدوا آذانهم لئلا يسمعو دعوته، وغطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم لكيلا تقع عليه عيونهم كراهةً وبُغضاً، وأصروا على الكفر واستكبروا عن الإيمان، ولم تؤثر فيهم دعوته لهم جهاراً على رؤوس الأشهاد، ولا جذبتهم الدعوة سراً وخفية، لقد أعياه صلفهم وكبرهم عن الحق فلم يتركوا له سبيلاً يسلكه في سبيل الدعوة إلى الله إلا أغلقوه في وجهه⁽³⁾.

ثم يتوجه النبي الكريم داعياً ربه تعالى بقوله: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) ﴾ (نوح: 26-27)، دعا عليهم عليه السلام ألا يبقي الله تعالى منهم أحداً على وجه الأرض، فقد علم النبي الكريم أن الله سبحانه قد ختم على قلوب قومه فلا يأذن لها بالإيمان لأنها لا تستحقه، ولا أمل بأن يأتي من أصلابهم من يقر بوحدانية الله ويعبده، وهم فوق ذلك ليسوا وبالاً على أنفسهم وذريتهم وحسب، وإنما خطر على من مس الإيمان قلبه

(1) انظر: تفسير القشيري، للقشيري، ج 2، ص 136

(2) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للنيسابوري، ج1، ص 1135

(3) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج3، ص 428

فآمن بالله ونبذ الشرك به، يضلونهم بالفتنة والاضطهاد، فكان فناؤهم عن وجه الأرض خيراً من بقائهم عليها⁽¹⁾.

ومن خلال ما سبق، يتبين لنا أن الباطل لا بد له من نهاية ولو بعد حين، وأن الله ولي الذين آمنوا، وأن معية الله لأوليائه سنة من سنن الله ماضية في الآخرين كما مضت في الأولين، وإن ما يشهده العالم بين الحين والآخر من زلازل وبراكين وأعاصير وفيضانات يدك الله بها حصون أهل الباطل ليست حوادث عرضية بمحض الصدفة، وإنما هي عقوبات يزلزل بها الله أركان الباطل وأهله، ليذكر الناس أن سنن الله ماضية لا تتبدل ولا تتغير، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 148

المطلب الثاني: موعظة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه

تستعرض الباحثة في هذا المطلب عظة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام لقومه، وكان قومه كغيرهم من أهل الأرض غارقين في غيهم وضلالهم، يعبدون من دون الله ما لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، إما أصناماً ينحتونها فيعبدونها وإما كواكب ونجوماً.

وقد وردت قصة النبي إبراهيم عليه السلام في كثير من مواضع القرآن الكريم في العديد من السور الكريمة، حيث جاءت في سورة الأنعام، الأنبياء، الشعراء، الصافات، مريم وغيرها.

ويورد سبحانه وتعالى قصة نبيه إبراهيم فيقول:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)﴾ (الأنعام: 74-84)

حيث يأمر الله عزَّ وجلَّ نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقص على قومه عابدي الأصنام ما كان من قول نبي الله إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر حيث كان يعبدها، حين استتكر على أبيه أن يعبد من دون الله أصناماً وتمائيل منحوتة لا تملك نفعاً ولا ضرراً لا لنفسها ولا لغيرها، ولم يجد إبراهيم عليه السلام وصفاً لما يرى أباه وقومه فيه إلا أنه الضلال المبين والجهل المقيم⁽¹⁾.

وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: 75) وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض، لأنه تعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالقهم فجازه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض والملكوت: الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة، فيريه ذلك كله ليكون من الموقنين بالله وقدرته⁽²⁾.

ويبدأ النبي الكريم حواراً مع قومه يداريهم فيه محاولاً أن يلفت أنظارهم وعقولهم إلى حقائق لم يكونوا قد وعوها قبل ذلك، فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري فقال هذا إذاً ربي : أي على زعمكم، وقد قال ذلك على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام: 76) أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك، لأن الرب لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال لأن ذلك من صفات الأجرام⁽³⁾.

"ولا يخفى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يؤمن بالكوكب وغيره إيماناً يقينياً؛ وما كان له أن يقر بالربوبية لغير الله - وقد اختاره للنبوة والرسالة والإمامة - وحاشا أن يتصف إبراهيم بمثل هذا، وإنما قال ما قال، وفعل ما فعل: لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه، وتسفيهاً لأحلامهم"⁽⁴⁾.

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج 2، ص 125

(2) المرجع السابق، ج 2، ص 126 (بتصرف)

(3) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 1، ص 372

(4) أوضح التفاسير، لمحمد الخطيب، ج 1، ص 161

ويتابع النبي الكريم درسه لقومه في استدراج عقولهم وقلوبهم لما يجب أن يفكروا فيه لعلمهم يهتدون إلى الحقيقة الكبرى، ألا وهي أنه لا مستحق للعبادة إلا الله رب العالمين، وبعد أن نفى الربوبية عن النجم الذي أفل، يبرز القمر المنير، فيتابع درسه في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الأنعام: 77)، أي: هذا إذا ربي، لفتناً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم، فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين، وفيه تعريض لقومه بأنهم على ضلال، ثم يختم النبي الكريم الدرس لقومه، حين أشرقت عليهم الشمس، في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: 78)، أي: قال بل هذا هو ربي، لأن الشمس أكبر، أي أكبر من الكوكب والقمر، فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم وأصنامكم⁽¹⁾.

والنبي إبراهيم عليه السلام " كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية"⁽²⁾.

"ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ (الأنعام: 78) أي: أنا بريء من عبادتهن ومولاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنتظرون"⁽³⁾.

وبذلك تكون قد انتهت نظرات وتأملات إبراهيم الناشئ -وسياق المؤرخين يدل على أنه في ذلك الإبان كان ناشئاً، ولم يكن قد بلغ أشده- اتجه إلى رفض عبادة النجوم، والأصنام التي تسمت بأسمائها، واتجه

(1) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج1، ص (372، 373)

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 3، ص 292

(3) المرجع السابق، ج3، ص 292

إلى خالق الكون وما فيه، ومن فيه، وقد آمن بأن له موجداً لا محالة، وباطلاً أن يكون كوكباً أو نجماً، أو قمراً أو شمساً، فلم يبق إلا أن يكون واجداً واجب الوجود، وليس واحداً مما رأى، ولذا اتجه إليه وحده، لا على أنه قد عرف ذاته، ولكن آمن بوجوده وكفاه ذلك معرفة. اتجه إلى الخالق لأنه عرفه مما خلق، والأثر يدل على المؤثر ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - أدرك الله تعالى بفطرته بعد أن أبعد عنها ضلال الوثنية، وقد وصف نبي الله إبراهيم بقوله: ﴿ حَنِيفًا ﴾ (الأنعام: 79) أي متجها ناحية الحق وحده دون غيره، فهو الحق وإن لم أره وهو الكمال وإن لم أحسه بالجراحة فقد أدركته بعقلي وقلبي، وهو ملء نفسي، وقد ختم بقوله: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: 79) نفي أن يكون من المشركين، أي نفي أن يكون في عداد المشركين الذين أشركوا النجوم مع الله أو الأصنام التي تسمت بأسمائها، وبذلك انزعج من الشرك وأهله، وصار حجة للمؤمنين على الكافرين. (1)

ثم بعد أن أقام الحجة عليهم بدأت المواجهة والمحاجة بينه وبين قومه، والمحاجة التي أقاموها بينهم وبينه كانت محاجة بين اثنين، أحدهما اعتمد على الهداية والعقل، والثاني اعتمد على الخرافة والوهم. وكانت خصومتهم أنهم حين سمعوه عاب آلهتهم فقالوا له: أما تخاف تخيلك فتهلك؟ فقال: إني لا أخاف ما لا يسمع ولا يبصر، فقد وسع ربي كل شيء علماً، فهو يعلم السر والعلانية، فكيف لا تتعظون فتؤمنون به؟ وتطلبون مني أن أخاف ما أشركتم من عبادة الأصنام ولا تخافون أن تشركوا بالله لما حجة لكم عليه ولا كتاب، فأينا يكون أحق بالأمن من العذاب الموحد أم المشرك؟ فما خاف من تهديدهم إياه واعتصم بالله تعالى، وهو يرى أن ما يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع. (2).

ويتابع سبحانه ليكمل ما بعد قصة نبيه عليه السلام: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) ﴾ (الأنعام: 82-84)

(1) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج5، ص (2563، 2564)

(2) انظر، بحر العلوم، للسمرقندي، ج 1، ص 463

بعد المجادلة المطولة بين إبراهيم عليه السلام وقومه، ينزل الله عزَّ وجلَّ على نبيه وقومه ما يرشدهم فيه إلى طريق الجادة، بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: 82) ، ومراده سبحانه أن " الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأي لون من ألوان الشرك كما يفعله فريق المشركين حيث إنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنهم ما عبدوها إلا ليتقربوا بها إلى الله زلفى، أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم في ضلال مبين" (1).

ومعنى الظلم في الآية هو الشرك، ذلك أنه " { لما نزلت هذه الآية الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترون إلى قول لقمان لابنه ﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: 13) { (2) يعني: إن الظلم أراد به الشرك، وكان الشرك ظلماً، لأنه تجاوز الحد المعقول، إذا كان الظلم تجاوز الحد، فالشرك أشد الأمور تجاوزاً للحد، لأن العصاة وإن كانوا يدخلون في أهل القبلة ليسوا في أمن من العذاب إنما يعذبون بمقدار ذنوبهم إلا أن يتغمدهم الله تعالى برحمته" (3).

بذلك تكون انتهت محاجة إبراهيم لقومه الذين كانوا يعبدون الأوثان والكواكب والنجوم، وقد كانت محاجة بين حكم العقل، وحكم الأصنام، وانتهت ببيان أن الأمن والهداية في جانب الحق، ولقد قال سبحانه وتعالى إن حجة إبراهيم هي حجة العقل، وهي الجديرة بأن تنسب إلى الله، وقد نسبها الله سبحانه وتعالى إليه. فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: 83) أي: وفقناه للحجة يخاصم بها قومه بإلهام الفطرة السليمة، والعقل الحنيف الذي لا يميل إلا للحق، ولا يتجه إلا إليه، وكانت هذه حجة قوية، انتصر بها على قومه، وقامت الحجة عليهم (4).

ويقرر الله عزَّ وجلَّ رفعتة لمن شاء من عباده بالحجج الظاهرة في الدنيا، وفي الآخرة بالدرجات، فالوجود الإنساني يستمر الخير فيه بوجود الهداة المرشدين، والمستمعين الأخيار الذين يستمعون فيقولون سمعنا

(1) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 5، ص 115

(2) أخرجه البخاري، عن أبي الوليد، عن شعبة، عن بشر بن خالد، عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة عن عبد الله/ رقم (32)، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، ج1، ص15.

(3) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 5، ص 2570

(4) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج5، ص 2572

وأطعنا، وبجوار هؤلاء أولئك الذين يستمعون طيب القول، فيقولون سمعنا وعصينا، وبذلك يتفاعل الخير والشر في هذه الحياة؛ وسيق لبيان العاقبة للمتقين⁽¹⁾.

ثم يبين عزَّ وجلَّ نعمته وفضله على نبيه وداعيته بعدما ظهرت حجته وعلت كلمته بإذن الله على قومه المشركين، بأن وهب له إسحاق ويعقوب فضلاً منه ورحمة، وجعلهما أنبياء صالحين، وكذلك هدى وأنعم على غيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

وتزخر الآيات الكريمة بكثير من الفوائد، لعل أهمهما⁽²⁾:

- 1- إنكار الشرك على أهله، وعدم إقرارهم ولو كانوا أقرب الناس إلى المرء.
- 2- فضل الله تعالى وتفضله على من يشاء بالهداية الموصلة إلى أعلى درجاتها.
- 3- مطلب اليقين وأنه من أشرف المطالب وأعزها، ويتم بالتفكر والنظر في الآيات.
- 4- الاستدلال بالحدوث على وجود الصانع الحكيم وهو الله عز وجل.
- 5- سنة التدرج في التربية والتعليم.
- 6- وجوب البراءة من الشرك وأهله.

وترى الباحثة أن في هذه الآيات المباركة مسائل وعظات، من الخير أن يتم إبرازها لينتفع بها كل داعية إلى الله، وهي أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله تعالى في التوحيد ونصرها وذب عنها عدد سبحانه وجوه نعمه وإحسانه عليه، وكانت:

أولها: أن الله تعالى هو من آتاه تلك الحجة وهداه إليها وأوقف عقله على حقيقتها، وذلك يدل على أن إيتاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب.

وثانيها: أنه تعالى خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة.

وثالثها: أنه جعله عزيزاً في الدنيا، وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله، ومن ذريته وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون

(1) المرجع السابق، ج5، ص 2572 (بتصرف)

(2) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر الجزائري، ج2، ص (81،82)

من عقبه الأنبياء والملوك، والمقصود من هذه الآيات تحديد أنواع نعم الله على إبراهيم عليه السلام جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد⁽¹⁾.

ولا تقف قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام عند هذا الحد مع قومه الضالين المغالين في ضلالهم وشرور أنفسهم، بل امتد إلى امتحان عظيم وابتلاء جليل ابتلاه الله به بأن هم قومه بإحراقه عقوبة له على تسفيه أحلامهم وشم آلهتهم وتحطيمها، وهو ما سنتوسع فيه الباحثة، وتناقش تفاصيله وأحداثه لاحقاً في أحد المطالب من هذه الرسالة.

(1) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ج13، ص 51

المطلب الثالث: موعظة سيدنا لوط عليه السلام لقومه

خلق الله سبحانه كل شيء بقدر وحكمة، وأمر الناس أن يهتدوا بما آتاهم على لسان الرسل والأنبياء كي ينالوا خير ما في هذه الدنيا ويتجنبوا شر ما فيها، لكن البشر اعتادوا على مخالفة شرع الله والشذوذ عن تعاليمه وهدديه، أملين أن يصلوا إلى الحد الأقصى من الشهوات التي تشغلهم عن ذواتهم الإنسانية وعن غاية وجودهم في هذه الحياة، ألا وهي عبادة الخالق وإعمار الأرض.

ولعل قوم لوط وعملهم القدر في تبديل سنة الله وإتيان الذكور شهوة من دون النساء، وهو ما يندرج اليوم تحت مسمى الشذوذ الجنسي من أبرز النماذج لمثل هذه الظواهر المقيتة، فقد كانوا في زمانهم وما قبلهم وحدهم مختصين بهذه الفاحشة⁽¹⁾.

وتستعرض الباحثة في هذا المطلب قصة سيدنا لوط عليه السلام وقومه الذين كانوا أول من شذ عن السنة الإلهية في هذا الكون وأتوا ما لم يأت به قبلهم أحد من العالمين، وقد ذكر الله عز وجل قصة لوط عليه السلام وقومه في أكثر من موضع في القرآن الكريم مختلطة مع قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام في سور العنكبوت، الأنبياء، هود، الحجر والذاريات، كما وردت منفصلة في سور الأعراف، الشعراء، النمل، الصافات والقمر، يقول سبحانه:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) ﴾ (الشعراء: 160-175)

(1) انظر: الكشاف، للزمخشري، ج 3، ص 330

يبدأ الله عزَّ وجلَّ قصتهم بأنهم كانوا كغيرهم من أقوام الضلال مكذبين لمن جاءهم من الرسل، وتتبيء الآيات الكريمة عن أن الضالين يسارعون إلى التكذيب، وينكرون رسالة الله إلى أهل الأرض، وكذلك قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط⁽¹⁾.

ويدل سياق الآيات أن لوطاً عليه السلام كان من هؤلاء القوم ومنهم فعبر عن ذلك بـ (أخوهم)، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء والمرسلين، يرسلهم الله إلى أهاليهم وعشائرتهم فيكونوا أعلم بدواخل أمورهم وأشد حرساً وإشفاقاً عليهم.

"ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح، يستنكر استهتارهم ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى، ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ"⁽²⁾.

ويتساءل النبي الكريم تساوئلاً ملؤه العجب والنفور بقوله: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: 165)، "والاستفهام لاستنكار الواقع بمعنى التوبيخ وبيان شناعة العمل، لأنه ضد الفطرة، فهو إفساد للفطرة، وأحسن من عبر عنه بالشذوذ الجنسي؛ لأنه دليل على فساد الفطرة وشناعة الفعل في ذاته، وقوله تعالى ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من أهل المعرفة والعلم، ولا يرضى بذلك إلا من هو أشد فساداً من الفاعلين، وإن ذلك يشيع ويكثر كلما فسدت الفطر"⁽³⁾.

وقوله: ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: 165) "أي بل أنتم قوم متعدون متجاوزون الحد في جميع المعاصي أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث زدم على سائر الناس بل أكثر الحيوانات، وقيل: متجاوزون الحد في الظلم حيث ظلمتم بإتيان ما لم يخلق للإتيان وترك إتيان ما خلق له، لأن الله سبحانه وتعالى جعل لهذه العلاقة مكاناً نظيفاً، ويثمر طفلاً يعين أبويه حينما يكبران، لكن الطريق الشاذ، طريق قذر، وطريق يسبب تحطيماً لنفسية الصغير، ويبعث شعوراً بالذنب لدى الكبير، إن هذا كله يفتت المجتمع، فهم بذلك أول من سن هذه الفاحشة وعليها يتحملون وزرها ووزر من قام بها إلى يوم الدين!"⁽⁴⁾.

(1) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج10، ص 5396

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج 5، ص 2613

(3) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج10، ص 5397

(4) فتح القدير، للشوكاني، ج4، ص132

وكعادة المجرمين في كل زمان، يواجه النبي الكريم كفار قومه بجريمتهم، فلا يحاولون أن يتفكروا فيها أو يعيدوا حساباتهم عليهم يُرحمون، لكن كبر عنادهم، وإمعانهم في الإجرام، وهددوه من شدة شكيمتهم وضغينتهم إذا لم ينته عن وعظهم ولم ينزجر عن تشنيعهم وتقييح فعلهم فسيكون من المخرجين المنفيين من قريتهم على أقبح وجه وأسوأ شكل، وبعد ما سمع لوط عليه السلام منهم ما سمع من الغلظة والتشديد في التهديد، انطلق لسانه مستوحشاً منهم مستكراً عليهم ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ (الشعراء: 168) أي من المبغضين، المنكرين فعله قولاً وعملاً، ولكن الأمر قد سقط من يد لوط عليه السلام، وهنا يركن لوط عليه السلام إلى جنب الله الذي رباه على طهارة النفس والروح والجسد ونبذ الخبائث داعياً الله ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ (الشعراء: 169) من عقوبتك إياهم وغضبك عليهم فأنا بريء مما اقترفوا⁽¹⁾.

"فقد يدعو المعصوم بالحفظ عن الوقوع فيما عصم عنه كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: 35) وهو مسلم، إلا أن الظاهر أن المراد النجاة مما ينالهم بسبب عملهم من العذاب الدنيوي، وبؤيده ظاهر قوله تعالى: ﴿فَنَجِّينَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ (الشعراء: 170) أي وأهل بيته، ويجوز أن يكون المراد بهم من تبع دينه مجازاً فيشمل أهل بيته المؤمنين وسائر من آمن به، وقيل: لا حاجة إلى هذا التعميم إذ لم يؤمن به عليه السلام إلا أهل بيته"⁽²⁾.

وكسنة الله جلّ وعلا في خلقه وأنبيائه، لم يترك عزّ وجلّ نبيه لوطاً عليه السلام وحده بين أولئك الظالمين، فأجاب الله تعالى دعاءه فقال: ﴿فَنَجِّينَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ (الشعراء: 171) والمراد بهذه العجوز، امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها،، أي: فاستجبنا للوط دعاءه، فأنجينا وأهله المؤمنين جميعاً، إلا امرأته العجوز فإننا لم ننجها بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها"⁽³⁾.

(1) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية ، للنخجواني، ج2، ص50

(2) فتح القدير، للشوكاني، ج4، ص132

(3) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 10، ص273

وعلى الرغم من كل الفجور الذي واجهه نبي الله لوط عليه السلام من قومه، إلا أنه لم يكن يلقي العنت والفجور من قومه الضالين فحسب، وإنما تضاعفت معاناته أضعافاً كثيرة، فالفتنة امتدت إلى بيته نفسه، وخانته زوجته بتعبير القرآن الكريم، ليس بمنطق خيانة الزوجة لزوجها، وإنما مالت إلى قومها ودلتهم على ضيف لوط، ولأنه جَلَّ وعلا الحق المطلق والعدل المطلق، لم يستثنِ زوجته التي كفرت بملء إرادتها وأقرت الفاحشة، فقال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ (الشعراء: 171) أي في الباقين، لطول مرور السنين عليها، فصارت هرمة، فإنها أهلكت من بين أهل لوط، وقد قيل: إنما قيل في الغابرين لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، إنما أصابها الحجر بعد ما خرجت عن قريتهم مع لوط وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطر على بقايا قوم لوط من الحجارة، نكالا لهم بظلمهم أنفسهم (1).

وينبئ الله عزَّ وجلَّ عن مصير قومه المصرين على عنادهم وقذارتهم في إتيانهم المنكر، فيجعل أعلى قريتهم سافلها، خسف بهم الأرض ونكسهم كما نكسوا هم الفطرة، فدمرهم وأبادهم عن آخرهم، ولم يكن ذلك وحده كافياً لمكافئة الجرم الذي أتوا، فأمطرهم مطراً عجبياً أمره، أمطرهم حجارة من سجيل منضود (2). "وقوله سبحانه: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ بيان لسوء مصيرهم، أي: دمرنا هؤلاء القوم، وأمطرنا عليهم مطراً من الحجارة زيادة في إهانتهم، فساءت عاقبتهم، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار.

ثم يختم سبحانه قصة لوط عليه السلام مع قومه، بمثل ما ختم به القصص السابقة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) ﴿ (الشعراء: 174-175)﴾ (3).

(1) انظر: لفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية ، للنخجواني، ج2، ص51

(2) انظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج10، ص 274

(3) المرجع السابق. ج10، ص 274

المطلب الرابع: موعظة سيدنا هود عليه السلام لقومه

قبيلة عاد هي قبيلة عربية من إرم، كانوا يسكنون الأحقاف، وهو واد باليمن فيه منازلهم بين عمان ومهرة من أرض اليمن⁽¹⁾، زادهم الله في الخلفة والقوة وبسط لهم في أجسامهم، وأنعم الله عليهم من ثمرات كل شيء في الزرع والضرع، لكنهم كفروا نعمة الله عليهم فعبدوا غيره، فبعث الله عز وجل لهم نبياً منهم هو نبي الله هود عليه السلام عليهم يرجعون.

وقد وردت قصة نبي الله هود وقومه في سور متعددة من سور القرآن الكريم، تارة بصورة فيها بعض التفصيل، كما في سور: الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، الأحقاف، وتارة بصورة موجزة، كما في سور: فصلت، الذاريات، القمر، الحاقة، الفجر، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع؛ ليعتبر بمصرعهم المؤمنون⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿وَالِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿ (60)﴾

(هود: 50-60)

(1) انظر: الوسيط للزحيلي، للزحيلي، ج 3، ص 2420

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 4، ص 329

وأول ما يلفت النظر في الآيات، قول الله تعالى مخبراً عن نبي الله هود ﴿أَخَاهُمْ﴾، فقد كان عليه السلام من نسبهم⁽¹⁾، وتلك سنة الله يرسل إلى الأمم رسلاً منها، فيكونون أعلم بأحوالهم وأكثر شفقة بهم، فكانت دعوته لقومه دعوة الأنبياء والرسل جميعاً، دعوة التوحيد ونبذ ما دون الله من الأوثان والأزلام.

وفي قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود: 50) "لا يحتمل أن يكون هو قال لهم هذا في أول ما دعاهم إلى التوحيد، وفي أول ما ردوا إجابته وكذبوه؛ لأنهم أمروا بلين القول لهم وتذكير النعمة عليهم؛ كقوله لموسى وهارون حيث بعثهما إلى فرعون بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ (طه: 44)، ولكن كأنه قال لهم ذلك بعد ما سبق منه إليهم دعاء غير مرة، وأقام عليهم الحجة والبراهين فردوها"⁽²⁾.

"وقوله ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود: 50): يحتمل في تسميتهم الأصنام التي عبدوها آلهة، يقول: إن أنتم إلا مفترون في ذلك، ويحتمل أنه سماهم مفترين فيما قالوا لله أمرهم بذلك، يقول: أنتم مفترون فيما ادعيتم الأمر بذلك، أو مفترون في إنكارهم البعث والرسالة"⁽³⁾.

"أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، ووضح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه، ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد له فقال ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (هود: 51) أي: غرامة من أموالكم، على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً، فما ألتمس أجراً ولا ثواباً إلا من الله رب العالمين"⁽⁴⁾.

ولا شك أن في تنبيه النبي الكريم لقومه عدم احتياجه أو طلبه أموالهم أثر هام، فأكثر ما يهمل أولئك العصاة الكافرين بربهم هو متع الدنيا لاسيما المال، وطمأننتهم بأنه ليس معنياً بأموالهم يزيل عائقاً من أهم العوائق أمام إيمانهم وإذعانهم، وإقناعاً لهم أكثر بصدق رسالته، إذ إنه لا يفعل ما يفعل إلا ابتغاء وجه الله، لا تشغله الدنيا ولا ما فيها.

(1) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج12، ص 94

(2) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 142

(3) المرجع السابق، ج6، ص 142

(4) تفسير السعدي، للسعدي، ج 1، ص 383 (بتصرف)

ويتابع النبي الكريم في عظته لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 52)

"وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ لم يرد به أن يقولوا: نستغفر الله، ولكن أمرهم أن يطلبوا السبب الذي به تجب لهم المغفرة وتحق وهو التوحيد، كأنه قال: وحدوا ربكم فأمنوا به ثم توبوا إليه، أو يقول: اطلبوا المغفرة بالانتهاة عن الكفر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: 38)"⁽¹⁾.

وتأتي (ثم) في استغفروا ثم توبوا للترتيب الرتبي، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك: مقدم على طلب المغفرة⁽²⁾.

وترغيباً لأولئك الضالين في اتباع الإيمان والإذعان للحق، يرغب الرسول الكريم قومه بثمرات التوبة من الشرك واستغفار الله، في قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 52)، وقد ورد إنه قد كان انقطع عنهم المطر وانقطع نسلهم، فأخبر أنكم إن تبتم إلى الله، واستغفرتهم ربكم سيكرمكم الله بخير كثير ومطر وغيث وفير حتى تتاسلوا وتتوالدوا فيزدكم قوة أفعالكم إلى قوة أبدانكم؛ لأنهم كانوا أهل قوة وأهل بطش⁽³⁾.

ولا يخفى على مسلم فضل الاستغفار وأهميته، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة﴾⁽⁴⁾ وهو المغفور له ما تقدم وما تأخر.

"قال الألويسي⁽⁵⁾: "رغبهم - عليه السلام - بكثرة المطر، وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، وقيل: حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار، ومضاعفة القوة بالتنازل"⁽⁶⁾.

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص (242، 243)

(2) انظر: الوسيط، لطنطاوي، ج 7، ص 223

(3) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 143

(4) أخرجه البخاري عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رقم (6307)، كتاب: الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم، ج 8، ص 6307

(5) الألويسي: هو محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، شهاب الدين، أبو النشاء، مفسر، محدث، أديب، من المجددين، ولد في بغداد عام 1217 هـ في مدينة أوس في العراق وتقلد الإفتاء فيها، من أعماله روح المعاني، غرائب الاغتراب، دقائق التفسير، وغيره، توفي في بغداد عام 1270 هـ. انظر: الأعلام، للزركلي، ج 7، ص 176

(6) الوسيط، لطنطاوي، ج 7، ص 223

ويختم عليه السلام عظته محذراً إياهم من التولي والبيغي بغير وجه حق لئلا تأخذهم العزة بالإثم كما أخذت كثير ممن قبلهم ومن بعدهم قائلاً: لا تتولوا عما أدعوكم فيه؛ فتكونوا مجرمين، والمجرم هو الوثاب في الإثم⁽¹⁾.

"والى هنا يكون هود عليه السلام قد وضّح لقومه دعوته، ورجبهم في الاستجابة لها، وحذرهم من الإعراض عنها، وناداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات، توددا إليهم، وتذكيراً لهم بأصرة القرابة التي تجمعهم وإياه، لعل ذلك يستثير مشاعرهم، ويحقق اطمئنانهم إليه، فإن الرائد لا يكذب أهله، ولكن قوم هود- عليه السلام- قابلوا كل ذلك بالتناول عليه، والسخرية منه"⁽²⁾.

ويرفض أهل الشرك والضلال أن يذعنوا للحق الذي جاءهم، فيبادرون نبيهم أن ما جاءهم به من حجج ليس جديراً عندهم بأن يتركوا آلهتهم المزعومة، ولا هو كافٍ بالنسبة لهم لأن يتبعوه، ولم يكتفوا بذلك بل تمادوا بأن ادعوا أن آلهتهم الزائفة قادرة على النفع والضرر، زاعمين أن آلهتهم تلك قد أصابت النبي بسوء وضر حتى خبلته فهو يهذي بما يقول لهم.

"﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ (هود: 54) أي مسك بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴿بِسُوءٍ﴾ أي بجنون، لسببك إياه، وصدك عنها، وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك، بسوء الجزاء، ومن ثم تتكلم بما تتكلم.

قال الزمخشري⁽³⁾: دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد لا يباليون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم⁽⁴⁾.

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 143

(2) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 7، ص 224

(3) الزمخشري: هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخشتر عام 467 هـ، وتوفي سنة 538 هـ، برع في الآداب وصنف التصانيف، ورد العراق وخراسان، من أشهر أعماله: الكشف، أساس البلاغة، المفصل، المقامات، الجبال والأمكنة والمياه. انظر: الأعلام، للزركلي، ج 7، ص 178

(4) محاسن التأويل، للقاسمي، ج 6، ص 108

ويرد النبي الكريم على دعواهم الزائفة : ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴾ (هود: 55)، ويأخذ الحوار الجدلي عند هذه النقطة منحىً جديداً يقطع فيه النبي كل آمالهم ومطامعهم بأن يعلن لهم ولآلهتهم المكذوبة تحديه السافر دون خوف أو وجلً قائلاً: ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم فيما تدعونني من الهلاك أو السوء، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ أي: ثم لا تمهلون في ذلك، ولا تمهلوني في أمري ولا تضعفوا ولا تقتروا في مكري⁽¹⁾.

"ولعل هذا التحدي الواثق ضرب آخر من ضروب الدعوة وفنونها، بأن يؤكد النبي للمرجفين ومن شاكلهم أنه خالٍ من أي ذرة شكٍ أو ريبة في صدق إيمانه وما يدعوهم إليه، قال ذلك بين أظهر الأعداء ولم يكن معه أنصار ولا أعوان؛ دل أنهم إنما قالوا ذلك بالله وذلك من آيات النبوة"⁽²⁾.

"وهذا من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقتة بريه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنتشب فيه مخالبيهم"⁽³⁾.

ويتابع الرسول الكريم في تحديه: ﴿ إِنِّي قَدْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ (هود: 56) لا أبالي بكم وشركائكم ولا أحزن لمكرهم ومكرهم بعد ما أتمكن بمقر التوحيد إذ ما من دابة تتحرك على الأرض إلا هو سبحانه بذاته ويبيد قدرته متحكماً بوجوهها يقودها نحوه ويتصرف فيها كيف يشاء حسب إرادته اختياراً إن في جميع شئونه وتطوراته على صراط مستقيم لا اعوجاج له⁽⁴⁾.

ويأتي هنا دور الوعيد النهائي ليضعهم أمام مسئوليتهم موضعاً لهم بعد الترغيب بما رغبهم به والتحدي الذي واجههم به ما ستؤول إليهم الأمور إن أصروا على تكذيبهم وتعنتهم لعلمهم يستفيقون بالوعيد والترهيب إن لم يفعلوا بالترغيب قائلاً: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود: 57)

(1) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، للنخجواني، ج 1، ص 356

(2) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 144

(3) تفسير الكشاف، ج 2، ص 276

(4) الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، للنخجواني، ج 1، ص 356 (بتصرف)

فإن تتولوا وتعرضوا عما جئتمكم به، فقد بلغتمكم رسالتي و أديت ما عليّ من الإبلاغ، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم فقد جاءكم النذير، وقامت الحجة عليكم، وما بقي إلا هلاككم، وسيستخلف الله قوماً آخرين غيركم - وفي ذلك إشارة إلى إبادتهم وفنائهم - يسكنون دياركم، ويعمرون بلادكم، فإن عتوا وطغوا سلك بهم مسللكم، ولن تضروونه أيها الضالون بتوليكم عن الإيمان به، أو لا تضروونه شيئاً إذا أهلككم واستخلف غيركم، إن ربي على كل شيء في هذا الوجود حفيظ، فلا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم⁽¹⁾.

وتنتهي القصة هنا بين أخذ ورد بين النبي وقومه، يحاول أن يهديهم سواء السبيل وينفرون كما تنفر الدابة من عقالها، ثم تنتهي المدة الإلهية التي منحها عزّ وجلّ لهم ليروا جادة الصواب ويتبعوها، ولكن لا حياة لمن تنادي.

ويأخذ عزّ وجلّ الكلام على لسانه موضحاً لمكذبي اليوم والغد بما حل بمكذبي الأمس عليهم يتفكرون فيتعظون، فيقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ يَا مَعْشَرَ الْبَشَرِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (59) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)﴾ (هود: 58-60)

" ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ (هود: 58) : عذابنا، أو أمرنا بالعذاب، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ (هود: 58)، وكانوا أربعة آلاف، ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود: 58)، وهو ريح السموم، وكانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أديبارهم فتقطع أمعاءهم، والتكرير لبيان ما نجاهم منه، وإعلاماً بأنه عذاب غليظ، وتعديداً للنعمة في نجاتهم. ويحتمل أن يريد بالنجاة الأولى: من عذاب الدنيا، وهو الريح الذي نزل بقومهم، وبالنجاة الثانية: عذاب الآخرة، وهو العذاب الغليظ، ولذلك عطفه على النجاة الأولى التي أراد بها النجاة من الريح"⁽²⁾.

(1) انظر: البحر المديد، لأبي العباس الصوفي، ج 2، ص 537

(2) المرجع السابق، ج 2، ص 538

وفي قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ (هود:59)، يشير الحق سبحانه إلى قبيلة عاد أو إلى قبورهم وآثارهم تهويلاً وتهديداً، فيخبر عنهم أنهم كفروا بآيات ربهم، وعصوا الرسل، وقد جمع الله سبحانه هنا صيغة "رسول" مع أنه لم يأتهم إلا رسول واحد هو هود عليه السلام، لأن من عصى رسولاً فكأنما عصى الكل لأنهم متفقون في الدعوة، ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود:60) يعني: كبراءهم الطاغين، فعصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (هود:60) أي: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين في الدنيا أهلكتهم، وفي الآخرة أحرقتهم⁽¹⁾، وعنيد: أي الكافر المشرك بربه⁽²⁾، وقيل: "المجتنب للهدى المعاند له"⁽³⁾.

(1) انظر: البحر المديد، لأبي العباس الصوفي، ج2، ص538

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، ج6، ص2047

(3) تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين، ج2، ص296

المطلب الخامس: موعظة سيدنا صالح عليه السلام لقومه

بعد أن أباد الله قبائل عادٍ في وادي الأحقاف، جعل من بعدهم خلائف من قبيلة ثمود، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى واد القرى⁽¹⁾، اشتغل أهلها بالزراعة، يحفرون الآبار ويحريثون الحقول، ويحريثون بيوتهم في قلب الجبال، وكانت مواشيتهم ترعى في المروج بسلام، فازدهرت بساكنيتهم ومزارعهم وأصبحت محملة بالثمار، غير أنهم كغيرهم تمردوا على الله فعبدوا غيره، وكان من بين أظهرهم، نبي الله صالح عليه السلام الذي عرفوه رجلاً حراً كريماً حتى كان بينهم ذا شأن عظيم.

وقد وردت قصة النبي صالح مع قومه مفصلة في سور الأعراف وهود والحجر والشعراء وفصلت، وبالإيجاز في الإسراء والنمل والذاريات والحاقة والفجر والشمس، وأشير إليها إشارة في التوبة وإبراهيم والحج، يقول تعالى:

﴿وَالِي ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)﴾ (الأعراف: 73-79)

ومثل غالبية أقوام الأمم الغابرة، يرسل الله عز وجل إليهم واحداً منهم، يعلم بواطنهم ويشفق عليهم، ويتوجه نبي الله صالح عليه السلام إلى قومه داعياً إياهم ليؤمنوا بالله وحده بقوله: " يا قوم " ناسباً إياهم لنفسه، مستندراً ما في قلوبهم من المحبة والود وتقديرهم لصالح الذي خبروه عمراً؛ ولأنه منهم فكان أحرى بهم إجابة الدعوة إلى وحدانية الله، وتصديق المعجزة الدالة على صدق رسالته.

(1) انظر: مراح لبيد لكشف معاني القرآن المجيد، للبننتي، ج 1، ص 381

"وفي قوله: ﴿ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:73) وجهان، قيل: إما أن تكون الناقة التي جعلها الله آية لرسالة صالح أو آيات ظهرت لهم على لسان صالح، وجرت على يديه ما يدل على رسالة صالح ونبوته، لكنهم قابلوا تلك الآيات بالتكذيب وعاندوا" (1).

روي أنه تعالى لما أهلك عادا قام ثمود مقامهم وطال عمرهم، وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً فطالبوه بالمعجزة فقال: ما تريدون؟

فقالوا: تخرج معنا في عيدنا، ونخرج أصناما فتسأل إلهك ونسأل أصنامنا فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعنا فخرج معهم ودعوا أوثانهم فلم تجبهم، ثم قالوا له أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة كبيرة جوفاء وبراء فإن فعلت ذلك صدقناك، فأخذ صالح عليهم الموثيق أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا، فصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل، ثم انفرجت عن ناقة عشاء جوفاء وبراء، وكانت في غاية الكبر، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فأمن به قليل منهم وكفرت بقيتهم (2).

وأمرهم تعالى ألا يمسوها بسوء اختباراً لهم وابتلاءً بعد أن جعل للناقة وفصيلاً يوماً ترد فيه ويوماً آخر لمواشيهم فينظر كيف يصنعون، لكي يقيم عليهم الحجة، وقد أضاف الله تلك الناقة إليه في قوله: ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ تعظيماً لتلك الناقة ومنزلتها عند الله ؛ فلا يقربوها بسوء.

" وإضافة الناقة إلى الله، جل ذكره، على طريق إضافة الخلق إلى الخالق، وفي إضافة الناقة إلى الله سبحانه معنى التشريف والتخصيص، والتحذير من أن يصيبوها بسوء، وهو في التخصيص كقولهم: " بيت الله "، و " عباد الرحمن "، فكله فيه معنى التشريف والتفضيل (والتخصيص)، إضافة خلق إلى خالق، كقولهم: " خلق الله "، و " أرض الله "، و " سماء الله " وهو كثير" (3).

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 4، ص 479

(2) انظر: مراح لبيد لكشف معاني القرآن المجيد، للبننتي، ج 1، ص 382

(3) الهداية إلى بلوغ النهاية، للقيرواني، ج4، ص 2427 (بتصرف)

ويحتمل معنى الإضافة إليه وجهاً آخر، وهو: أنه لم يجعل منافع هذه الناقة لهم، ولا جعل عليهم مؤنتها، بل قال ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ (الأعراف: 73) فليست كسائر النوق التي جعل مؤنتها عليهم، ومنافعها لهم بإزاء ما جعل عليهم من المؤمن فالرازق الله و الرزق لله (1).

وهنا يبدأ الصراع بين الرسول وقومه حين يدعوهم إلى تعظيم آية الله وألا يتعرضوا لها قتلاً ولا قطعاً ولا عقراً؛ فهي ناقة الله وآيته ويحذرهم من وقوع عقاب الله عليهم إن تجرؤوا فعصوا الرسول أن يأخذهم عذاب أليم في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة.

وقوله ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: 73) هو جواب النهي: أي إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء أخذكم عذاب أليم، أي: شديد الألم، واذكروا إذ استخلفكم في الأرض وجعلكم ملوكاً فيها، من بعد عاد، تتخذون من سهولها قصوراً، وسهول الأرض ترابها، يتخذون منه اللين والآجر ونحو ذلك فيبنون به القصور وتتحتون في الجبال بيوتاً تسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها لأن الأبنية والسقوف كانت تقنى قبل فناء أعمارهم، فتذكروا كل هذه الآلاء والنعم التي من الله بها عليكم ولا تتولوا مفسدين في الأرض (2).

وكما جرت العادة في دعوة الأنبياء، انشق الناس إلى شطرين، شطر آمن وشر كفر، وما كان ليؤمن من القوم إلا الضعفاء وما كان ليكفر إلا الأثرياء المتكبرين، يتضح ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) ﴿ (الأعراف:

(76-75)

وقد مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم وإلى كل دعوة إصلاح؛ لأنه لا ينقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، والأغنياء المترفون؛ لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرووسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم

(1) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 4، ص 479

(2) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج 2، ص 251.

عليهم الإسراف الضار، وتوقف شهوراتهم عند حدود الحق والاعتدال، وعلى هذه السنة جرى الملاء من قوم صالح في قولهم للمؤمنين منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟⁽¹⁾.
"قيل: إن السؤال للتهكم والاستهزاء، ولا مانع من جعله استفهاماً حقيقياً إذ سألوهم عن العلم بأنه مرسل لارتياحهم في اتباعهم إياه عن علم برهاني، وتجريزهم أن يكون عن استحسان ما وتفضيل له عليهم، واختيار لرياسته على رياستهم"⁽²⁾.

ويجيب أولئك المؤمنون من المستضعفين: نعم، إنا بما أرسل به مصدقون بأنه جاء به من عند الله تعالى ومدعون له بالفعل، وكان مقتضى مطابقة الجواب للسؤال أن يقولوا نعم، أو نعلم أنه مرسل من ربه، أو إنا برسالته عالمون، ولكنهم أجابوا بما يستلزم هذا المعنى ويزيد عليه، وهو أنهم علموا بذلك علماً يقينياً إذ عانوا له السلطان على عقولهم وقلوبهم، إذ آمنوا به إيماناً صادقاً كاملاً صار صفة من صفاتهم الراسخة التي تصدر عنها أعمالهم، فيرد أولئك المستكبرون كغيرهم في الأمم السابقة واللاحقة بقولهم: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) ﴾ (الأعراف: 75-76) ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون لأنه يتضمن إثبات أصل الرسالة له، ولو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بأنهم جاحدون للحق على علم لمحض الاستكبار⁽³⁾.

وأقدم المجرمون من قوم صالح عليه السلام على ما كان حذرهم منه وخوفهم من عواقبه، ألا وهو عقر الناقة التي خلقها الله لهم آية، لم يرعهم أن الله أضافها لنفسه تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها، تجاوزوا ذلك كله وأمروا شقيماً منهم فعقرها، وبذلك كانوا قد تجاوزوا الحد وانقطع عنهم الأمل في الرجوع أو الإنابة.

"قال لهم صالح عليه السلام: تصبحون غداً وجوهكم مصفرة، وبعد غدٍ وجوهكم محمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأناجاه الله تعالى إلى أرض

(1) المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا، ج 8، ص 448 (بتصرف)

(2) المرجع السابق، ج 8، ص (448، 449)

(3) انظر: المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا، ج 8، ص 449

فلسطين، ولما كان اليوم الرابع واشتد الضحى تحنطوا بالصبر وتكفئوا بالأنطاع، فأنتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض فتقطعت قلوبهم وهلكوا⁽¹⁾.

فتولى نبي الله عنهم وخرج من بينهم قبل موتهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (الأعراف: 79)، فبالرغم من كل العنت والفجور الذي واجه صالحاً عليه السلام في دعوته قومه، حزن لما أصابهم ووقع بهم، وتلك شيم الأنبياء بلا شك، فهو أكثر الناس رافة بأهاليهم وعشائهم أياً كانت الآلام التي يكابدون في سبيل الدعوة إلى الله، قائلاً لهم أنهم نصحهم وبلغهم، لكنهم لا يحبون الناصحين ولا يمتثلون لأوامرهم.

وقوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، مغتماً متحسراً على ما فاتته من إيمانهم، منكرراً إصرارهم حين رأوا العلامات قبل نزول العذاب بهم ولسان حاله يقول يا قوم لقد بذلت فيكم وسعى ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم لا تحبون الناصحين لكم المذكورين لكم بالله رب العالمين⁽²⁾.

ويختتم النبي الكريم قصته مع قومه بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (الأعراف: 79)، " فإن قال قائل: كيف خاطبهم وقد هلكوا؟ قيل: هو كما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم الكفار القتلى يوم بدر حين ألقاهم في القلب؛، وقيل: إنما خاطبهم به؛ ليكون عبرة لمن خلفهم، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: فتولى عنهم، فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك أن الله - تعالى - ما كان ليعذب قوماً ونبيهم بينهم" ⁽³⁾.

(1) مراح لبيد لكشف معاني القرآن المجيد، للبتتني، ج 1، ص 383

(2) الموسوعة القرآنية، للأبياري، ج9، ص 503 (بتصرف)

(3) تفسير القرآن، للسمعاني، ج2، ص 195

المطلب السادس: موعظة سيدنا موسى عليه السلام لقومه

تستعرض الباحثة في هذا المطلب قصة عظة نبي الله موسى عليه السلام لقومه، ولعل قصة موسى عليه السلام مع قومه هي أشهر قصص الأنبياء على الإطلاق، فلا تكاد سورة من سور القرآن الكريم الطوال تخلو من ذكر شيء منها.

وقد وردت قصة نبي الله موسى عليه السلام في العديد من سور القرآن الكريم، كسورة البقرة، النساء، الأنعام، الأعراف، طه، الأنبياء، القصص، فاطر، الصافات، الشعراء، الزخرف، غافر والمؤمنون.

يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَنْ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ (29) قَالَ أَوْلُو جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (37) فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِبُونَ (44) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأَلْقَىٰ السَّحَرَةَ

سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ (68) ﴾ (الشعراء: 10 - 68)

تعد قصة موسى عليه السلام من أهم القصص القرآني وأكثرها زخماً وثراءً سواء كان في الأحداث أو في الدروس المستفادة والعظات، فهو عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وتحمل في سبيل الله ما لا يكاد يطيقه أحد من العالمين، ما بين ضنك بني إسرائيل في مصر وحالتهم المزرية قبل ولادته وبعثته، وبين عنادهم وكفرهم وغلوهم في الكفر والعناد والمكابرة والتحريف، وتبديل الكفر بالإيمان والأدنى من كل الأمور بالذي هو خير، مروراً بصلف فرعون وهامان وجنودهما وإصراره على ادعاء الألوهية ورفض الهداية.

ولعل المتأمل في قصته عليه السلام، يستطيع أن يعي لماذا خصّه الله بتكليمه وشرفه بكلامه مباشرة من غير واسطة⁽¹⁾، كأن الله جلّ وعلا أراد أن يمنحه يقيناً لم يمنحه أحداً غيره من العالمين فيكون ذلك عوناً له في وجه الكفر والعناد والصلف والجبروت والخذلان وكل ما سيواجهه أثناء دعوته سواء من قومه العاتين أو من فرعون وملاه.

(1) انظر: التفسير الوسيط للزحيلي، الزحيلي، ج 1، ص 414

يبدأ الله عزَّ وجلَّ القصة بالأمر الإلهي لموسى عليه السلام بالمباشرة بالدعوة إلى الله، ويسأل موسى ربه العون والمدد لعلمه بصعوبة ما هو مقبل عليه، كيف لا وهو مقبل على مواجهة فرعون الأرض الذي بلغ حداً جنونياً من العنت بأن ادعى لنفسه الألوهية فوق الناس، فيخشى من نفسه أن يضيق بما هو مقبل عليه إن كذبوه ، أو ألا ينطلق لسانه هادراً بالحق المبين فلا يستطيع أن يقنعهم أو أن يفهمهم بالحجج والبراهين، فيتضرع إلى الله أن يرسل معه أخاه البار هارون، فيكون عوناً له في الرسالة وسنداً ومشيراً ناصحاً أمام الأهوال التي سيواجه من فرعون وقومه العاتين⁽¹⁾.

ويستذكر موسى عليه السلام ما وقع منه من قتل المصري حين استجار به ابن جلدته الإسرائيلي كما ورد في القصص القرآني، وبراها سبباً إضافياً يزيد في حقهم عليه لبيطشوا به، أو لعله يكون الحجة أو العلة التي يأخذونه بها إن لم يستطيعوا أن يعيبوا عليه دعوتهم إلى عبادة الله الواحد؛ ويأتيه الرد الإلهي بضرورة الاعتماد على الله والتوكل عليه بغض النظر عن كل الصعاب التي قد يواجه مهما كانت وأيا كان المكذوبون⁽²⁾.

" وقد التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعدار كلُّ واحدٍ منها مرتب على ما قبله وهي: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وعدم انطلاق اللسان، فالتكذيبُ سببٌ لضيق القلب، وضيق القلب سببٌ لتعسر الكلام، وبالأخص على من كان في لسانه حُبسه "⁽³⁾.

ويتوجه الرسولان الكريمان إلى فرعون بالأمر الإلهي أن أطلق سراح بني إسرائيل وأرسلهم معنا من دون أن يمسه منك عذاب ولا جور، وهنا يبدأ فرعون عناده برد الدعوة، ويلجأ في ذلك إلى أسلوبين مختلفين يحاول بهما محاصرة النبي الكريم فلا يستطيع رده أو مجادلته.

فأما الأولى: فيمن عليه أنه كان ربيبه في قصره، بعد أن ساقته الأقدار الإلهية إلى قصره بعد أن ألقته أمه في التابوت في البحر كما أمرها الله، ثم التقطته زوجة فرعون لتتخذه ولداً لها، وربّاه حتى اشتد عوده وصار في مصاف الرجال، وهو بذلك يحاول أن يستميل قلبه فيشعره بالحرص لعله يتراجع عن دعوته⁽⁴⁾.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص 400

(2) انظر: المرجع السابق، ج 2، ص 551

(3) صفة التفسير، لمحمد علي الصابوني، ج1، ص 245

(4) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص 552

وأما الثانية: فيخوفه بما فعله من قبل بقتله المصري، وهو بذلك يضع أمامه مبرراً جاهزاً للقضاء عليه، فهو إن لم يبطش به بسبب دعوته - وهو السبب الحقيقي لحنقه عليه - بطش به قصاصاً منه لذلك المصري القتل⁽¹⁾.

وموسى صلى الله عليه وسلم لم يقتل متعمداً القتل ولا مشتهداً له، وإنما كان حادثاً عارضاً أراد أن ينصر أخاه فوكز المصري فقتله، وقد كان عليه السلام قوي البنية بين القوة، فكانت وكزته مقتلاً للمصري لحكمة أرادها الله لما سيكون لها من أثر فيما بعد. وقيل أنه لبث في قوم فرعون ثلاثين سنة، خرج بعدها إلى مدين وأقام بها عشر سنين ثم عاد يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ⁽²⁾.

وقد توجه فرعون للرسول الكريم بعد منته عليه بتربيته وتبليغه مبلغ الرجاء بتوبيخه بقتله المصري، متهماً إياه بكفره النعمة، أي نعمة فرعون عله بالتربية، لكن الرسول الكريم يتماسك أمامه ويجيبه: ﴿فَعَلَّتْهَا إِذَا﴾ (الشعراء: 20) أي: إذ ذاك ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء: 20) أي: من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه، ثم فررت منكم إلى مدين لما خفتكم على نفسي أن تقتلوني فوهب لي ربي النبوة وجئتم رسولاً منه⁽³⁾.

ويرد الرسول الكريم على فرعون بمنطق مقارعة الحجة والحجة، ليستنكر عليه المنة التي واجهه بها، كأنه يقول له أنني كنت في غنى عنك وعن قصرِك وتربيتك لو أن تركتني عند أهل بيتي دون ترهيب وخوف، فلولا ما أقدمت عليه من قتل صبيان قومي لما اندفعت أُمي لإلقائي في التابوت خوفاً علي من القتل، وقد اكتوى قلبها بنار الفراق والخوف على وليدها المسكين.

"ولسان حاله يقول، ولئن كنت قد أحسنت إليّ فقد أسأت وتجاوزت في حق أقراني من بني إسرائيل وأثخنت فيهم قتلاً وسفكاً"⁽⁴⁾.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص 552

(2) انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس الصوفي، ج 4، ص 129

(3) انظر: المرجع السابق، ج4، ص 129.

(4) المرجع السابق، ج4، ص 129.

والتربية لها حق يراعى ويجب شكرها، ولا فرق بين تربية البشرية والروحانية فلم يجحد موسى حقَّ التربية والإحسان إليه في الظاهر، ولكن بيّن أنه إذا أمر الله بشيءٍ وَجَبَ اتباعُ أمره، وإذا كانت تربية المخلوقين تُوجب حقاً، فتربية الله أولى بأن يعظّم العبدُ قدرها، فكل من أحسن إلى بشرتك بشيءٍ وجب عليك شكره بالإحسان إليه، ولو بالدعاء، وكل من أحسن إلى روحانيتك بالعلم أو بالمعرفة، وجب عليك خدمته وتعظيمه، وإنكار ذلك سبب المقت والطرده، والعياذ بالله⁽¹⁾.

ويتجاوز فرعون ما دار من حوار بعد عجزه أن يتابع، ويتساءل مستخفاً مستكراً من هو رب العالمين؟ ويجيبه النبي الكريم: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (الشعراء:24).

ولما عجز فرعون عن الجواب استعان بالشرذمة الفاسقة حوله في مواجهة موسى موجهاً إليهم الكلام: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء:25) فقد "أعرض فرعون عن خطاب موسى واستثار نفوس المألم من حوله وهم أهل مجلسه فاستفهمهم استفهام تعجب من حالهم كيف لم يستمعوا ما قاله وهذا التعجب من حال استماعهم وسكوتهم يقتضي التعجب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب فهو كناية عن تعجب آخر"⁽²⁾.

ويتابع الرسول الكريم: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ (الشعراء:26)، وهو هنا لم يتوان عن مواجهتهم بالحق الذي يكرهون وإن كانوا غير راضين، فصلف فرعون وسخرية من حوله لم يثته عن المجاهرة بالحق⁽³⁾.

ولما لم يجد فرعون مهرباً ولا سبيلاً إلى ثني موسى عما هو مقدم عليه، قطع حوار المنطق والمقارعة بالحجة لينفوه ببعض التفاهات التي اعتادها المكذبون قائلاً: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء:27)

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس الصوفي، ج 4، ص 131. (بتصرف)

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 19، ص 118

(3) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 252

ويأخذ هنا الحوار منحى آخر، يلجأ إليه الطغاة دائماً كلما أعيتهم الحجة، فبعد أن فشل في ثني موسى عما جاء من أجله، وخاب في أن يشعره بالحرص بالترغيب أو بتخويفه بالترهيب من فعلته القديمة، قرر أن يواجه موسى بالتهديد المباشر: ﴿ قَالَ لئن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء:29).

" هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد، غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يغلقها ويستريح، ﴿ قَالَ: أَوْلَوْ جِنَّتُكَ بِشْيءٍ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:30)⁽¹⁾. " وفي هذا إخراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته، وهو يدعي أنه مجنون، ومن ثم وجد نفسه مضطراً أن يطلب منه الدليل: ﴿ قَالَ: فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الشعراء:31) فهو ما يزال يشكك في موسى، خيفة أن تترك حجته في نفوس القوم شيئاً"⁽²⁾.

ويشرح الرسول الكريم في إثبات نبوته بالبرهان والدليل، ويأتيهم بمعجزتي العصا التي استحالت إلى ثعبان مبین، تحولت في طبيعتها وليس مجرد خداع للبصر، ثم معجزة اليد نزعها فإذا هي بيضاء للناظرين، لكن المجرمين ليسوا بحاجة إلى آيات أو معجز لكي يؤمنوا، فهم عازمون على الكفر مصرون عليه. ثم يعود فرعون ليشرك من حوله من علية القوم في مهاجمة موسى أملاً بالنيل منه بالكثرة الباغية، فيرميه أمامهم بالسحر والشعوذة ناسباً ما قام به أمامهم من معجز العصا واليد إلى قدرات السحرة المنتشرة في كل أرجاء مصر ذلك الوقت، ثم يثير فيهم نزعة أخرى بتخويفهم أن مراده هو طردهم من بلادهم العامرة وقصورهم وجنانهم ليس أكثر، فيجيبونه بالألا يقتلها وإنما يحبسهما ويرجئهما إلى حين، وأن يرسل منادياً في كل أرجاء مصر لحشد مهرة السحرة لإبطال ما قام به موسى من سحر - على حد قولهم - ولعلمهم

(1) في ظلال القرآن، لسيد قطب، ج 5، ص 2593

(2) المرجع السابق، ج 5، ص 2593

بذلك لم يدركوا حقيقة الأمر وخطورته، فأرادوا أن يواجهوا موسى أمام الناس بسحرتهم لإبطال دعوته من أساسها والحد من انتشارها في الأرجاء، وتم تحديد يوم الزينة للاجتماع الكبير بين السحرة وموسى عليه السلام⁽¹⁾.

وقبل أن يبدأ السحرة في مهمتهم وكعادتهم في كل الأزمنة والعصور والمواقف، يؤكدون لفرعون انتظارهم الأجر والثواب منه إن هم نجحوا فيما هم مقدمون عليه، فيعدهم بالثواب الجزيل بل ويمعن في إغرائهم بوعدهم بالقربى من ملك البلاد والهها المزعوم.

ويقص الله سبحانه المشهد المهيّب الذي وقع بين موسى والسحرة في يوم الزينة، يقول عز وجل: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْفُوا فَاذًا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أُشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَافْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) ﴿ (طه: 65-76)

وفي قولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى﴾ قال السحرة ذلك مراعاة للأدب، وخيروه بين أن يلقي عصاه أو يلقوا عصيهم، قال: ﴿بَلْ أَلْفُوا﴾ مقابلة أدب بأدب، وعدم مبالاة بسحرتهم، وليستندوا أقصى وسعهم، ثم يظهر الله سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه⁽²⁾.

(1) انظر: الوسيط، للزحيلي، ج 2، ص 1825

(2) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للزحيلي، ج 16، ص 240

ولم يخف موسى ولم يرتبك - كما جاء في سياق الآيات - لأنه غير واثق في نصر الله وقدرته، بل كان واثقاً ثقةً كاملة غير منقوصة، ولكنه ظن أنه لو فشل في إبطال سحرهم فسيهزم أمام السحرة وتظهر حجة فرعون عليه، فينصرف عنه جموع الحاضرين وعن دعوته.

وقيل " إن السبب كان أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم ﴿ وَيُنَكِّمُ لَا تُقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ (طه: 61) التفت فإذا جبريل على يمينه فقال له يا موسى ترفق بأولياء الله، فقال موسى: يا جبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم لليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردوا دين الله، تقول: ترفق بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة، فلما قال له ذلك، أوجس في نفس موسى وخطر أن ما يدريني ما علم الله في، فلعلي أكون الآن في حالة، وعلم الله في على خلافها كما كان هؤلاء⁽¹⁾.

ويجئ التأييد الإلهي لموسى عليه السلام في التو واللحظة، ويطمئنه الله بقوله: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ (68) ﴿ (طه: 68) ويتمالك موسى نفسه و يتوكل على الله ويلقي عصاه لتستحيل بقدرة الله شعباناً ضخماً لم يرَ أحد مثله قط، يلقف كل ما صنعوا من الأعياب السحر.

" في قوله تعالى ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أوتر الإبهام تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيداناً بأنها ليست من جنس العصي المعهودة، المستتعبة لآثار المعتادة، بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة، لكنها مستتعبة لآثار غريبة، وكأن العصا، لفخامة شأنها، لا يحيط بها نطاق العلم نحو ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، ويجوز أن يكون الإبهام للتحقير، بأن يراد لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العود الذي في يدك، فإنه بقدرة الله تعالى يلقفها، مع وحدته وكثرتها، وصغره وعظمتها⁽²⁾.

ولأنهم يعون جيداً ما هو السحر وما هي حدود قدراته، لم يأخذ منهم الأمر سوى دقائق معدودة أمام هول هذا المشهد ليعلموا إسلامهم وإيمانهم برب العالمين، غير آبهين بحضور فرعون، فلم يعد لإغرائه بالمال

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 11، ص (222، 223)

(2) الجدول في إعراب القرآن الكريم، لمحمود صافي، ج16، ص391

والقريبى أهمية، ولا لجبروته و بطشه أثر أو خطر، فمجرد رؤيتهم الحقيقة كان كافياً جداً ليستحيلوا في لحظات من كفرة سحرة، إلى مؤمنين بل وإلى مجاهدين يقفون في وجه الطاغوت وقفة المؤمن الصلد الذي لا يخشى في الله لومة لائم⁽¹⁾.

وأمام ذلك المشهد المهييب، لم يصدق فرعون ما ترى عيناه فقال: إياي تعنون؟ فيجيبه السحرة بل رب موسى وهارون، ويستثيب فرعون غضباً، ويتهمهم بأنهم مجرد سحرة خضعوا لساحرهم الأكبر موسى الذي علمهم السحر، ثم يقطع سيل اتهاماته غير المجدية ليتجاوزها إلى الوعيد والتهديد بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم، فيقابلون وعيد فرعون بمزيد من الاستهانة والاستخفاف، قائلين له أن كل ما يعد ويهدد به إن هو إلا من أمر الدنيا الفانية الزائلة وليس بذي خطر عندهم، وأن هدفهم الأساسي هو الله وما أعد لهم من نعيم وغفران في الآخرة إن هم آمنوا وصبروا على ما هم مقبلون عليه من العذاب⁽²⁾.

ويأمر الله رسوله أن يخرج بقومه من مصر، ويجيء المشهد الأخير والقول الفصل في هذه المواجهة، "وقوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ ﴾ (الشعراء: 61) يعني: تقاربا ورأى بعضهم بعضاً، وذلك أن فرعون أرسل في المدائن حاشرين ليحشروا الناس، فركب وركب معه ألف ومائتا ألف فارس سوى الرجال، أي المشاة، فلما دنوا من عسكر موسى قال أصحاب موسى لموسى عليه السلام ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (الشعراء: 61) يعني: يدركنا فرعون قال موسى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: 62) يعني: سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة"⁽³⁾.

ويأمر الله عز وجل موسى أن يضرب البحر بعصاه، فكانت المعجزة الإلهية بانشقاق البحر إلى نصفين كل منهما كأنه الطود العظيم، ثم ينجي موسى ومن معه ويغرق فرعون وجنوده، ويسدل الستار على واحدة من أعظم قصص صراع الكفر والإيمان التي وقعت في التاريخ، لتكون الخاتمة بأن الغلبة لله ورسوله وللمؤمنين⁽⁴⁾.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص (553، 554)

(2) انظر: المرجع السابق، ج2، ص554.

(3) بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص (555، 556)

(4) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج4، ص 140

وترى الباحثة أن في قصة موسى عليه السلام وعظته آل فرعون، دروساً جمة على كل داعٍ إلى الله أن يأخذ بها في طريق دعوته:

الدرس الأول: أن أقوى سلاح للداعية إلى الله، هو التوكل والاعتماد على الله جلّ وعلا، فهو وحده حسبه ويكفيه عما دونه وأن الخطر والعنت الذي يواجهه الداعية لا يقتصر دائماً على الحاكم الظالم أو السلطان الجائر، وإنما يلاقيه كذلك من قومه وعشيرته وإن كان حريصاً مشفقاً عليهم، يريد لهم الخير والمنفعة.

الدرس الثاني: على الداعية أن يسترشد برأي ومعونة من حوله ممن يتبين أمانتهم وإخلاصهم لله والدعوة، فالأعوان والوزراء الصالحون لهم باع طويل في إنجاح الدعوة وتخفيف المعاناة، ثم لا يتوانى الداعية إلى الله عن الجهر بالحق أياً كانت الضغوطات ومهما بلغت مكابرة المكابرين وسخرية المستهزئين.

الدرس الثالث: ألا ييأس الداعية أبداً من عمله في الدعوة إلى الله مهما بلغ المكذبون من عنت وفجور، وأن يداوم على استخدام الحجة والبرهان في دحض ادعاءاتهم وتقريب الحق إليهم، فلعل الله يحدث أمراً.

والدرس الرابع: أن الإيمان الصادق يصنع المعجزات، فبعد أن كان السحرة من عتاة الكافرين يتحدون رسول الله ويريدون خداع جموع الناس بألاعيبهم، تحولوا لدى رؤيتهم الحق المبين على يد موسى عليه السلام إلى مؤمنين صادقين، بل تجاوزوا ذلك لأن يكونوا مجاهدين صامدين في وجه طغيان فرعون، يلقون عن أنفسهم مغرياته ويتحدون تهديداته القاسية بالويل والعذاب، حتى قيل فيهم أصبحوا سحرة وأمساوا شهداء⁽¹⁾.

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 5، ص 303

المبحث الثاني

نماذج من المواعظ الخاصة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مواعظ الآباء للأبناء

المطلب الثاني: مواعظ الأبناء للآباء

المطلب الثالث: مواعظ الأخوة

المطلب الرابع: مواعظ للطغاة والمتجبرين

المبحث الثاني: نماذج من المواعظ الخاصة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مواعظ الآباء للأبناء

تتطرق الباحثة في هذا المطلب، إلى نموذج قرآني في مواعظ الآباء للأبناء، يتوجه فيه الأب إلى ابنه بالموعظة والدعوة إلى الله، والنصح والإرشاد، راجياً أن ينتشله من الضلالة وأن يعيده إلى طريق الجادة.

أولاً: موعظة نوح عليه السلام لابنه

لا شك أن أشهر هذه القصص هي قصة نوح عليه السلام مع ابنه، وقد وردت قصته مع قومه في مواقع عدة في سورة الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والفرقان والشعراء والصفات والقمر.

وقد جاءت قصته مع ابنه بالتفصيل في سورة هود، حيث يقول جلّ وعلا:

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴾

(هود: 42-49)

ويصف الله جلَّ وعلا المشهد المهول الذي عايشه نوح وأهله، أمواج تتلاطم كأنها الجبال تتقاذف سفينتهم كأنها دمية صغيرة لا حول لها ولا قوة، غير أن الأب الرؤوف والداعية الدؤوب لم يذهل بهذا المشهد القاسي عن ابنه الضال الذي اعتزل أباه وأهله وأوى إلى جبل راجياً أن ينجو من الهلاك المبين الذي حل بقومه الضالين.

" وقوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: 42) هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير آية لهم" (1).

وكعادة الأنبياء الرحماء بكل من هم حولهم من الضالين، يبدأ نوح كلامه مع ابنه الضال بقوله " يا بني" وفي هذا النداء استعطاف واسترحام، لعل هذا النداء يجد لدى الابن الضال مكاناً فيذعن ويسمع لما يقول أبوه ونبيه.

وقد قيل هو ابنه لصلبه، وقد قال قوم: إنه ابن قريب له ودعاه بالنبوة حناناً منه وتلطفاً، غير أن الجمهور على أن الولد كان ابناً لنوح عليه السلام من صلبه وقد دعاه بصفته النبي والأب (2).
لكن أتى للضال أن يسمع أو للكافر أن يهتدي بالكلام الرقيق، فيجيب الابن الضال أباه متكبراً معانداً بقوله: ﴿ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ (هود: 43) وفي قوله هذا تحدٍ واضح ومكابرة وجهل. وترى الباحثة أن هذا مما يجب أن يتوقعه كل داعٍ إلى الله، أن يجد في كل محاولة له للهداية، مزجاً كريهاً من المعاندة المقترنة بالجهل.

فالابن الضال لم ترعه هذه المشاهد المهولة للأمواج العاتية، ولا منح نفسه فرصة في التفكير في وقوع وعيد النبي فعلاً بطوفان يهلك الحرث والنسل، وإنما انطلق معانداً رغم ما هو فيه من شدة وبؤس يتذرع باعتصامه بجبل يعصمه، وهو من بعد ذلك جاهل جهالة مهلكة، فهو يتصور أن مجرد جبل أو غيره يمكن أن يعصمه من أمر الله ووعيده فيرد عليه ألا حماية إلا بإذن الله ورحمته، فلا شيء في هذا الوجود يمكن أن يحول دون إرادة الله، فلا ناجي ولا غانم إلا برحمة الله وفضله (3).

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6 ص 133.

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج 3، ص 173 (بتصرف)

(3) انظر: تفسر الماتريدي، للماتريدي، ج6، ص 134.

ويسبق أمر الله لتنتهي حكاية الابن الضال و ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِقِينَ ﴾ (هود: 43)، و في نهاية القصة، يكمن الجزء الأكثر عمقاً وأهمية في العظة التي قدمها نوح لابنه، فبعد أن انقضى الأمر وانتهت دعوات نوح دون جدوى وغرق الولد الضال، يرق قلب النبي الأب لحال ابنه الهالك، فيتوجه إلى الله بدعائه أن ينجي ولده من العذاب، معتمداً على وعد الله له بأن ينجي أهله أجمعين، فيقول: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ (هود: 45)

قيل أن " ابن نوح لم يكن يظهر الكفر لأبيه في البداية، بل كان يوافق في الظاهر دون الباطن، ويؤمن بلسانه دون قلبه، فلما فوجئ نوح بتتحية عن السفينة واعتزاله واعتصامه بالجبل دعاه ، ثم لما هلك سأل الله النجاة، ولو كان نوح يعلم من ابنه الكفر لما دعا له وقد أمره الله ألا يفعل في قوله ﴿ وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (هود: 37) وكذلك أهل النفاق كانوا يظهرون الموافقة لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه ويضمرون الخلاف له، وكانوا لا يعرفون نفاقهم إلا بعد إطلاع الله إياه؛ فعلى ذلك نوح كان لا يعرف ما كان يضر هو لذلك خرج سؤاله⁽¹⁾.

ونهيه لا تكن مع الكافرين يحتمل أن يكون نهياً محضاً مع علمه أنه كافر، ويحتمل أن يكون خفي عليه كفره فناده ألا يبقى- وهو مؤمن- مع الكفرة فيهلك بهلاكهم، والأول أبين⁽²⁾.

ويجيب الله نبيه قائلاً: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (هود: 46) الذين وعدت النجاة لهم، أو ليس من أهلك؛ لأنه لم يؤمن بي ولم يصدقك فيما أخبرت أنه عمل غير صالح⁽³⁾.

وقد وردت في هذه الآية الكريمة قراءتان، أولاهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، بفتح الميم وضم الراء، وتعني أن الولد بذاته كان عملاً غير صالح، وأصحاب هذه القراءة يميلون إلى أنه لم يكن ابنه لصلبه وإنما كان ابن امرأته، وكان يناديه بـ " يا بني " مجازاً لا حقيقة، وثانيهما قوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، بكسر الميم وفتح الراء، أي أنه عمل عملاً غير صالح بشركه وكفره، وأصحاب هذه القراءة

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 137

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج 3، ص 174 (بتصرف)

(3) انظر: المرجع السابق، ج 3، ص 174

يرون أنه كان ابنه لصلبه لكنه عمل عملاً غير صالح، وذلك استبعاداً منهم لفكرة الخيانة، لأن زوجات الأنبياء لا يزنين⁽¹⁾.

وترى الباحثة أن هذه العظة تقرر حقيقة إيمانية راسخة، وهي أن صلة الدين عند الله أسمى وأعلى من صلة القرابة والدم، وعلى الرغم من كون هذا الولد الضال ابن النبي ومن صلبه، إلا أن كفره قد نفاه من دائرة الرحمة ومنعه من أن يكون من أهل بيت النبي الكريم، وفي ذلك درس لكل مؤمن بالله، فرب أخ لك في آخر أصقاع الأرض مؤمن مهتدٍ هو أقرب إليك وأوثق من أخيك ابن أمك وأبيك المجافي للإيمان برب العالمين.

والتأويل في قوله سبحانه: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: 46) بعد قول نبيه نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود: 45) أنه من أهلك على ما عندك، وليس هو من أهلك فيما بشرتك من نجاة أهلك⁽²⁾.

" وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (هود: 46) يحتمل هذا نهياً عن سؤال ما لم يؤذن له من بعد؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا لا يسألون شيئاً إلا بعد الإذن لهم في السؤال، وإن كان يسع لهم السؤال، أو أن يكون عتاباً لما سبق⁽³⁾.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: 46) هو كما نهى رسول الله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: 35) وأمثاله، وإن كان معلوماً أنه لا يكون من الجاهلين، والعصمة لا تمنع النهي عن الشيء، بل بالنهي تظهر العصمة⁽⁴⁾.

" فأجاب نوح عليه السلام كلام ربه بما يدل على الاتصال مما سأل فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم، فإن كان نوح عليه السلام أراد بكلامه الأول التعريض بالسؤال فهو أمر قد وقع، فالاستعاذة تتعلق بتبعية ذلك أو بالعودة إلى مثله في المستقبل⁽⁵⁾.

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، ج6، ص (2039، 2040)

(2) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 137 (بتصرف)

(3) المرجع السابق، ج6، ص 137

(4) المرجع السابق، ج6، ص 138 (بتصرف)

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 12، ص 88

وقوله تعالى: ﴿وَالَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: 47) هو طلب المغفرة بالكنياية، وهو أبلغ وأكبر من قوله: اللهم اغفر لي؛ لأن في ﴿وَالَّا تَغْفِرَ لِي﴾ (هود: 47) قطع رجاء المغفرة من غيره، وإخبار ألا يملك أحد ذلك، وليس في قوله: اغفر لي قطع كون ذلك من غيره؛ لذلك كان ذلك أبلغ من هذا(1).

ثانياً: موعظة لقمان لابنه

يعتبر لقمان من أشهر الشخصيات القرآنية الواردة في الذكر الحكيم، وقد اقترن اسمه بوصف (الحكيم) لما كان يمتلكه من حكمة وحنكة، وقد اختلف العلماء في اسمه ونسبه، قيل إنه كان قاضياً في بني إسرائيل، وأنه قريبٌ لنبي الله أيوب عليه السلام، وقيل غير ذلك، وكما عوّد الذكر الحكيم المؤمنين به، فقد ورد ذكر العظة دون التطرق كثيراً لتفصيلات النسب والأسماء التي لا تفيد في القصة أو العظة شيئاً، وقد اتفق العلماء على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً(2).

يقول عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)﴾ (لقمان: 13-19)

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 138 (بتصرف)

(2) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج3، ص 397

ويبدأ لقمان في عظته ابنه بتحذيره من أكبر الكبائر وأعظم الخطايا على الإطلاق، ألا وهي الشرك بالله، فإن أجل الأخلاق وأعز الأوصاف التي يمكن أن يتصف بها الإنسان هي التوحيد، وتنزيه الله سبحانه عن كل ما لا يليق به، وإن أخس الأوصاف وأرذل الأخلاق هو الشرك بالله، والاعتقاد بالوهية أو ربوبية غيره سبحانه، وقد وصفه بأن ظلم عظيم، لما فيه من ظلم للنفس، وتجاوز عن الحد⁽¹⁾.

يقول صلى الله عليه وسلم : { ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت⁽²⁾ }

ولكي لا يتوهم أحدٌ أن النهي عن الشرك خاص بابن لقمان وحده، تجيء الآيات معترضة كلام لقمان لابنه، في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) ﴾ (لقمان: 14-15)، حيث يوصي الله سبحانه عباده باجتئاب الشرك، فلا عذر لأي مخلوق في أن يشرك بالله رب العالمين، حتى وإن كان ذلك اتباعاً من الإنسان لوالدين مشركين يلحان عليه أن يتبعهما في الدين، ويذكر الله سبحانه عباده بالألا يدفع اجتناب الشرك الإنسان إلى عقوق والديه المشركين، وإنما يذكره بفضلهما عليه، ويأمره أن يصاحبهما - رغم عصيانه لهما في الإشراك بالله - بالمعروف⁽³⁾.

ويستأنف الحق سبحانه ما كان من موعظة لقمان لابنه، ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: 16)، حيث يعلم ابنه أنه ما من شيء في السماوات ولا في الأرض ولو كان متناهياً في الصغر، حتى لا تدرکه

(1) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، للنخجواني، ج2، ص 131

(2) أخرجه البخاري، عن مسدد، عن بشر بن المفضل، عن الجريري، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، رقم (2654)، كتاب الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، ج 3، ص 172.

(3) انظر: التحرير والتتوير، لابن عاشور، ج 21، ص 156

الحواس، إلا أتى به الله في علمه، وهو بذلك يسد على ابنه الطريق أن يتوهم أن الله سبحانه تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، داعياً إياه أن يتقي الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً في سره وعلانيته. ويتابع سبحانه في قوله: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: 17)

وفي الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾: وصى ابنه بأعظم الطاعات وهي الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يمتلك ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾، يقتضي حضاً على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعار بأن المغير يؤدي أحياناً، وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله، وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾، قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره، وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة⁽¹⁾.

وبعد أن أمر لقمان ابنه ووصاه بأعظم الطاعات وعزائم الأمور، يختم وصيته له بإتمام ما يحب الله ويرضى لعباده المؤمنين من الأخلاق الحميدة، والصفات المحببة حيث يقول: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسِّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (18) **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) ﴿ لقمان: 18-19 ﴾**

وقوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، أي: لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون من (الصعر) وهو داء يعتري البعير فيلوي عنقه، ﴿ وَلَا تَمَسِّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ﴾، أي: فرحاً، أي تمرح مرحاً أو لأجل المرح وهو البطر، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، وذلك علة للنهي عن الفرح والبطر، ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، أي: توسط فيه بين الدبيب والإسراع، ﴿ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾، أي:

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج14، ص69 (بتصرف)

وانقص منه واقصر، وعلة ذلك قوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، وأنكرها أي: أوحشها، والحمير مثل في الذم سيما نهاقه ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين، وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته⁽¹⁾.

وتلك بلا شك، أخلاق حميدة وعادات جيدة، يكمل بها خُلق المرء إن التزم بها، بعد أن يلتزم بعزائم الأمور وأركان الطاعات، من إقام الصلاة وإتمام الفروض، والصبر على الشدائد والإيمان بالله وقدره.

(1) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج4، ص 215

المطلب الثاني: مواظب الأبناء للآباء

بعد أن استعرضت الباحثة نموذجين قرآنيين لمواظب الآباء للأبناء ممثلاً في قصة نوح عليه السلام مع ابنه، تنتقل في هذا المطلب إلى نموذج قرآني آخر لمواظب الأبناء للآباء، حيث يعرض القرآن الكريم نموذجاً لعظة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر لكي يكون نموذجاً أصيلاً يحتذي به كل من أراد أن يوجه نصحاء لمن كان له عليه فضل أو كان له عنده يد، نموذجاً تجتمع فيه الهمة العالية مع الأدب الرفيع، والمثابرة الصلبة مع الصبر والجلد على الأذى والوعيد.

وترد قصة النبي مع أبيه في سورة مريم، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) ﴾ (مريم: 41-50)

وقد بدأ بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وكمال دينه فكأنه قال لهم: إن كنتم مقلدين فقلدوه في ترك عبدة الأوثان وعبادتها، وإن كنتم مستلدين فانظروا في الدلائل التي ذكرها على أبيه⁽¹⁾.

وأول ما يلاحظ هنا هو وصف ربنا عز وجل نبيه بالصديق، وذلك وصف ليس بالغريب ولا الكبير على نبي الله إبراهيم عليه السلام، فهو الصادق المصدق، في كل قول وعمل مع الله ومع الناس، مصدقاً كل ما قال وأخبر جل وعلا من دون ريب ولا تردد، وبتوحيده وآياته وفرائضه⁽²⁾.

(1) غرائب القرآن ورجائب الفرقان، للنيسابوري، ج4، ص490

(2) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص375

" كان صِدِّيقاً ملازماً للصدق في كل ما يأتي ويذر، كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، فالصديق مبالغة في الصدق، يقال: كل من صدق بتوحيد الله وأنبيائه وفرائضه، وعمل بما صدق به فهو صديق، وبذلك سُمي أبو بكر الصديق ⁽¹⁾ .

وقد كان عليه الصلاة والسلام منذ صغره يستخف بالأصنام التي يكلفه أبوه ببيعها، وينادي: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ وينكس رؤوسها في الماء ويقول لها اشربي، حتى جاء أمر الله الذي لم يلق قبول قومه فخطبهم بأشد لهجة مبتدئاً بأبيه صانع تلك الأصنام، ثم أولئك القوم الغارقين في الكفر، وأخبرهم أنهم في ضلال واضح عظيم، أملاً في أن يستفيقوا ويعودوا إلى الحق ⁽²⁾ .

وترى الباحثة أن من قمة البلاغة ابتداء نبي الله عظته بكلمة " يا أبتِ"، وهي كلمة لها معانٍ عظيمة وآثار جمة يمكن أن نجملها في نقطتين:

أما الأولى: فهي بيان لمدى الأدب والاحترام الذي يتحلى به سيدنا إبراهيم عليه السلام ويجب أن يتحلى به كل داعية، فكفر أبي نبي الله وشركه لم يدعُ نبي الله أن يكون فظاً غليظاً مع أبيه، مع أن الشرك بالله أفظع الفظائع وأكبر الجرائم، إلا أن النبي ظل يكلم أباه بأدب واحترام على الرغم مما هو فيه من ضلال كبير.

وأما الثانية: فهي فن فنون الدعوة إلى الله، فكلمة أبتِ فيها رقة وعذوبة، وحنان يضاف إلى مفهوم الأدب والاحترام، وهي من شأنها أن ترقق قلب من تريد دعوته، متجنباً استفزاز مشاعر العناد والمكابرة لديه.

ويتابع نبي الله مع أبيه في عظته بعد مناداته بـ "أبتِ" مستعظفاً متودداً مستفهماً استفهماً إنكارياً: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42)﴾ (مريم:42) وهو في هذا التساؤل يضع أباه أمام حقائق دامغة يخاطب بها عقله ووعيه، يريد أن يلفت نظره إلى أن معبوده أعمى أبكم لا ينفع

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس الصوفي، ج3، ص335

(2) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، ج1، ص 493

ولا يضر أحداً ولا حتى نفسه، لعل سرد هذه الحقائق بهذه الطريقة يسترعي انتباه أبيه ويدعوه لأن يراجع ما هو فيه من كارثة ووبال.

"لقد سلك عليه السلام في دعوته وموعظته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه بأبدع احتجاج، بحسن أدب، وخلق جميل، لكن وقع ذلك لسائر ركب متن المكابرة والعناد، وانتكبت بالكلية عن محجة الصواب والرشاد، أي: فإن من كان بهذه النقائص يأبى من له عقل التمييز من الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي أقصى غاية التعظيم، فإنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام، الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، والشيء لو كان مميزاً سميحاً بصيراً قادراً على النفع والضرر، لكنه ممكن، لاستتكتف العقل السليم عن عبادته، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر"⁽¹⁾.

ثم يبدأ في إخباره أن الله جلّ وعلا قد أكرمه بالرسالة، فيقول: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) ﴾ (مريم:43) يعني بذلك : أطعني فيما أدعوك، ويقال: اتبع دين الله أهديك، يعني: أرشدك صراطاً سويّاً، يعني: طريقاً عدلاً قائماً بترضاه⁽²⁾.

ثم يدعو أباه لئلا يطع الشيطان، والطاعة هنا والعبادة وجهان لعملة واحدة، فمن أطاع شيئاً فقد عبده⁽³⁾. ويعود النبي الكريم هنا لاستعطاف قلب أبيه المشرك قائلاً: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) ﴾ (مريم:45)، أي تكون كذلك إن لم تتدارك أمرك وتثب، فتكون ولياً له أي ناصراً وقريناً في النار⁽⁴⁾، فغرض الدعوة لديه ليس التعدي على أبيه ولا مناكفته، وإنما هو إشفاق المحب على حبيبه من أن يصيبه عذاب الرحمن، فيكون بذلك قد حكم على نفسه أن يكون قريناً للشيطان في جهنم⁽⁵⁾.

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس الصوفي، ج3، ص335

(2) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص 376

(3) انظر: المرجع السابق، ج2، ص 376

(4) انظر: تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، ج1، ص400

(5) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص 376.

وقد استعمل عليه السلام معه الأدب من خمسة أوجه:

الأول: ندائه: بيا أبت، ولم يقل يا أزر، أو يا أبي.

الثاني: قوله: ما لا يسمع، ولم يقل: لِمَ تعبد الخشب والحجر.

الثالث: قوله: جاعني من العلم ما لم يأتك، ولم يقل له: أنك جاهل ضال.

الرابع: قوله: إني أخاف، حيث عبّر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب.

الخامس: في قوله: أن يمسّك، حيث عبّر بالمس ولم يُعبر باللحوق أو النزول⁽¹⁾

ولكن، وكعادة أهل الكفر في كل زمان و مكان، يأبى أبوه ويستكبر، ويمعن في العناد والمكابرة من دون أن يترك لعقله فرصة أن يعقل أو يعي ما يقول ولده الواعظ، ويتساءل مستنكراً: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ (46) ﴾ (مريم:46) وهنا تتجلى المعاندة في أوضح أشكالها، فأزر أبوه لم يكتفِ بعدم الاستجابة لما قال ولده، ولا بالامتناع عن التفكير حتى فيما قال، بل يعاتب ابنه أنه زاهد في آلهته المزعومة نافراً منها.

" انظر إلى أزر، وقد قابل استعطاف إبراهيم عليه السلام وتلطفه في إرشاده بالفظاظة حيث ناداه باسمه بدل قوله: يا بنى وبدأ الكلام بقوله: أراغب، للإشارة إلى أن الرغبة عن الآلهة أمر يهمله أكثر من غيره. وصدرة بهمة الاستفهام المفيدة للإنكار والتعجب وجعلها مسطرة على الرغبة للإشارة إلى أن نفس الرغبة مما ينبغي أن تكون، وأن الآلهة ما ينبغي أن يرغب عنها عاقل"⁽²⁾.

"ولتتكمّل الصورة، يبدأ أزر في التهديد والوعيد لابنه الواعظ، بتهديده بالرجم والهجر ملياً، وكل شيء في القرآن من الرجم فهو القتل غير هاهنا، فإن هاهنا أراد به السبُّ والشتم. وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا، يعني: تباعد عني حيناً طويلاً ولا تكلمني وقيل: مَلِيًّا تعني أبدأ⁽³⁾.

وعلى الرغم من هذه القسوة و الجفاء من جانب أزر، يعود نبي الله إبراهيم ليرسخ ما كان أكده آنفاً من محبته واحترامه و شففته بأبيه المسكين الظالم لنفسه، فبعد كل ما كان من نفور و معاندة و كبر ولوم و

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس الصوفي، ج3، ص336 (بتصرف)

(2) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ج2، ص457

(3) انظر: بحر العلوم للسمرقندي، ج2، ص376

تهديد ووعيد بالرجم والقطيعة، كان جواب إبراهيم عليه السلام على هذا كله: "سلام عليك"، فلا بغضاء ولا حقد ولا كراهية بل سلام و موادعة، ولم يكتف بذلك بل أردف معلناً نيته الطيبة تجاه أبيه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)﴾ (مريم:47)، فمن بعد السلام والموادعة، دعاء و رجاء لله رب العالمين أن يكرمه بالهدى، وأن يعافيه مما هو فيه من بلاء و ظلم لنفسه، وكان يستغفر له ما دام أبوه حياً، وكان يرجو أن يهديه الله عزَّ وجل، فلما مات كافراً، ترك الاستغفار له⁽¹⁾.

ولا عجب، فما دام أبوه حياً كان يستغفر له راجياً أن يهديه الله قبل أن يموت فينجو من الهلاك المبين، وفي ذلك وفاء عظيم تجاه أبيه بأن يدعو له ما دام حياً يرزق دون كلال ولا ملل، وفيه إرادة داعية عظيمة إذ يصر على الدعوة إلى الله مهما بلغت المعوقات وزادت الإحباطات وطال الزمن، ولكن ما إن انتهى الأجل حتى انتهى الأمل، فلا جدوى ولا منفعة من دوام الاستغفار لمن مات كافراً معانداً، رفعت الأقدام وجفت الصحف.

" وقد استغفر المسلمون لقرابتهم من المشركين في ابتداء الإسلام اقتداءً بإبراهيم - عليه السلام - حتى أنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (سورة التوبة: 113 - 114) وقوله ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ﴾ (الممتحنة: 4) فامتتع المسلمون بعد نزول هذه الآيات عن الاستغفار للكفار على أن الاستغفار لهم وهم أحياء بمعنى طلب الهداية والتوفيق لهم في حياتهم شيء لا غبار عليه كما مر في تفسير آيات التوبة، والممنوع هو الاستغفار لهم بعد موتهم⁽²⁾.

ولم يكن رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام رحيماً شفوفاً بأبيه العاصي وحسب، بل كان كذلك مع عموم قومه على الرغم مما هم في من ضلال واستكبار، وعلى الرغم من التكذيب الذي لاقاه إبراهيم عليه

(1) انظر: المرجع السابق، ج2، ص 376

(2) التفسير الواضح، لمحمد محمود الحجازي، ج2، ص458

السلام من قومه إلى أن دعا الله أن يغفر لهم، رحمةً بهم وإشفاقاً عليهم، لا جرم وقد قيل أن معنى (إبراهيم) في السريانية (أب راحم)⁽¹⁾.

ثم يختم الله عزَّ وجل قصة نبيه مع أبيه، فيعلم أولئك الذين يتصدون للدعوة ويخلصون فيها، لا يهمهم العنت ولا العتب، ولا يتأثرون بعبادة أو تعب، ثم يفوضون أمرهم إلى الله، فيقول: ﴿ فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) ﴾ (مريم: 49)، فكانما هي الجائزة الربانية لهذا العبد النقي النقي، فلوم أبيه ومعاداته لم تنته عن القيام بمهمته في الدعوة إلى الله، صمد وصبر ثم أناب إلى الله ورجع إليه، فكافأه الله خير المكافأة وجازاه خير الجزاء، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله أكمل عليه النعمة، وألبسه ثوب العافية ووهب له إسحاق وابنه يعقوب عليهما السلام. والعرب يدعون أنهم على دين إبراهيم، وهم من سلالته، فذكرت لهم قصته وموقفه من أبيه وقومه ليعتبروا ويتعظوا⁽²⁾.

وفي ذلك إشارة إلى أن الله لا يضيع أجر المحسنين، فمهما كابد الداعية ومهما واجه الواعظ في دنياه من عداوة وتعب وألم، فإن المنتهى إلى أجر عظيم وعطاء جزيل في الدنيا والآخرة أجمعين.

(1) التبيان في تفسير غريب القرآن، للجواني، ج1، ص 106

(2) انظر: التفسير الواضح، لمحمد محمود الحجازي، ج 2، ص 458

المطلب الثالث: مواظب الأخوة

تستعرض الباحثة في هذا المطلب نموذجاً قرآنياً آخر، هو مواظب الأخوة، وفيه يتوجه الأخ الواظب إلى أخيه محاولاً هدايته وصرفه عما هو فيه من ضلالة، فيختلط الحرص الفطري للواظب على الهداية بصلة الدم والرحم ليزيد ذلك الحرص قوة ومضاء.

أولاً: موعظة هابيل لأخيه قابيل

كان أول وعظ من أخ لأخيه ذلك الذي وقع في قصة ابني آدم عليه السلام، هابيل وقابيل، حين دبت العداوة والبغضاء في قلب قابيل تجاه أخيه هابيل لما تقبل الله سبحانه قربان هابيل إذ قدم من خير ما عنده من الماشية، ولم يتقبل من قابيل حين قدم شر ما عنده من زرع⁽¹⁾.

ويقصُّ الله سبحانه قصتهما في قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) ﴾ (المائدة: 27-30)

وقد تمكن الحسد من قلب قابيل حتى بدت البغضاء على لسانه بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، على الرغم من أن هابيل لم يرتكب في حق أخيه أي ذنب، لكن الأخ الصالح يتوجه إلى أخيه الضال محاولاً هدايته بتذكيره بالله رب العالمين، يواجهه بحقيقة غائبة عن وعيه بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ "أي إنما أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من قبلي فلم تقتلني، وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ"⁽²⁾.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 1، ص 384

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج2، ص 123

ويتابع الأخ الصالح بقوله: ﴿لَنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)﴾ (المائدة: 28) معلناً له أنه لن يقدم على أذيته حتى لو حاول قتله، مرجعاً ذلك إلى خوفه من الله، داعياً أخاه أن يتق الله ويخشاه كذلك لعله يعود إلى رشده.

وفي قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: 29)، " قال الأنباري⁽¹⁾: إن قابيل لما قال لأخيه هابيل لأقتلنك وعظه هابيل وذكره الله واستعطفه فلم يرجع فلما رآه هابيل قد صمم على القتل وأخذ له الحجارة ليرميه بها قال له هابيل عند ذلك إنني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك أي إذا قتلنتي ولم يندفع فتلك إياي إلا بقتلي إياك فحينئذ يلزمك إثم قتلي إذا قتلنتي فكان هذا عدلاً من هابيل"⁽²⁾.

لكنه العناد والكبر، والحسد الذي يمتلكه القلوب فيعمي البصائر، لم يستمع قابيل موعظة أخيه ولا امتثل لها، فقتل أخاه فكان من الخاسرين.

ثانياً: موعظة موسى عليه السلام لأخيه هارون عليه السلام

وفي مثال آخر، يحكي القرآن الكريم ما كان بين نبي الله موسى وهارون عليهما السلام، حين جعل موسى أخاه هارون عليهما السلام على قومه وذهب لميعاد ربه، فأخبر الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام بأن القوم قد ارتدوا وعبدوا العجل، ليرجع موسى غضبان أسفاً، ليصب جام غضبه على أخيه في قوله: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)﴾ (طه: 92-94)

(1) الأنباري: هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، وكنيته (أبو بكر الأنباري)، ولد في الأنبار سنة 271 هـ وتوفي في بغداد عام 328 هـ، عاش في بغداد والكوفة، من آثاره الشهيرة: كتاب الأضداد، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، غريب الحديث. انظر: الأعلام، للزركلي، ج 6، ص 334

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج 2، ص 33

وتعرض هنا الآيات إلى موقف هارون عليه السلام، ومحاولته السيطرة على هذا الموقف العصيب، فقد تركه أخوه موسى وحيداً مع أولئك الأجلاف الغلاظ القلوب، وقد اجتهد بقدر ما استطاع لإصلاح ما وقع من ضرر ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (طه : 90)

" قال الرازي⁽¹⁾: واعلم أن هارون - عليه السلام - سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل - أولاً - بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله - ثانياً - بقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ ثم دعاهم - ثالثاً - إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾، ثم دعاهم - رابعاً - إلى الشرائع بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾، وهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لا بد قبل كل شيء من إمطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله - تعالى - هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة: فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال، بالتقليد والجمود .."⁽²⁾.

ولما أخذ الغضب كل مأخذ من نبي الله موسى عليه السلام غيرة على دين الله وشفقة على قومه العصاة غلاظ القلوب، اندفع يعنف أخاه النبي آخذاً بلحيته ورأسه، يلومه أنه لم يئد هذه الفتنة التي كانت بعده في بني إسرائيل متسائلاً إن كان قد عصى أمره وانشق عنه: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ (92)، أي: أشركوا، ﴿ أَلَا تَتَّبِعَنِ ﴾ (93)، أي: تتبع أمري ووصيتي وهلا قاتلتهم وقد علمت أنني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم، وقيل معناه ما منعك من اللحاق بي وإخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك إياهم زجراً لهم عما أتوه⁽³⁾.

(1) الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، إمام مفسر، شافعي وعالم موسوعي، ولد في الري سنة 544 هـ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر، توفي في هراة سنة 606 هـ، من أهم

مصنفاته مفاتيح الغيب، معالم أصول الدين. انظر: الأعلام، للزركلي، ج 6، ص 313

(2) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 9، ص (140، 141)

(3) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج 3، ص 210

ويجيب النبي الأخ أخاه بقوله: ﴿ قَالَ بَيْنُنَا لَا تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (طه: 92-94)، فهو عليه السلام يعلم مدى الغضب والحزن الذي ألم بأخيه موسى عليه السلام مما فعل قومه، وقد كان موسى عليه السلام حديد الخلق⁽¹⁾، فيقدر الموقف ويستوعب الصدمة ويجيب بذكاء وفطرة النبي المؤمن مستعظفاً أخاه بمخاطبته بـ " يا ابن أم "، مذكراً إياه بالجامع الروحي والرباط الرحمي الذي يجمعهما وأنه يسوؤه ما يسوء أخيه، ولسان حاله يقول:

"ما حملني على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل، إلا خوفي من أن تقول لي - لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معي من المؤمنين - إنك بعملك هذا قد جعلت بني إسرائيل فرقتين متنازعتين ولم أقدم كذلك على مفارقتهم، بل بقيت معهم ناصحاً واعظاً، حتى تعود أنت إليهم، فتتدارك الأمر بنفسك، وتعالجه برأيك" (2).

وأمام تلك الدعة والتفهم، تنطفئ نار غضب موسى عليه السلام ويهدأ، ويلتفت للمخطئ الحقيقي ألا وهو السامري، وتؤتي العظة ثمرتها المرجوة بين الأخوين النبيين عليهما السلام.

ثالثاً: موعظة الصاحب لصاحبه

ويمثل العلماء لهذا النموذج القرآني موعظة الأخ لأخيه صاحب الجنة، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَاصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كُنْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا

(1) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج4، ص 60

(2) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 9، ص 143

(39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) ﴿ (الكهف: 32-44)

قيل إن الصاحبين المذكورين في الآيات الكريمة كانا من بني إسرائيل، ويبدو من سياق الآيات ما أفاء الله سبحانه على أحدهما من نعم، وأسبغ عليه من عطايا، فقد حباه بجننتين من كروم وأعناب، يحيط النخيل بتلك الكروم ويطوف بها، وكان بينهما زرع ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق⁽¹⁾.

يقول سبحانه: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) ﴾ (الكهف: 35-36)، فلم يشكر ذلك الآثم لله أن أنعم عليه، وبدلاً من أن يستشعر فضل الله عليه فيشكره ويسبحه، طغى وبغى وظلم نفسه حتى شكك في البعث ويوم القيامة، وفي فناء جنتيه العامرتين أبداً، بل وتجراً بأن يدعي أن له القربى عند الله في الآخرة إذا كان هناك قيامة وبعث.

وقد كان المؤمن يحاور صاحبه بالموعظة والدعوة إلى الله، فما كان من صاحبه الضال إلا أن ترفع عليه بجاهه وماله، ثم إنه أراد أن يظهر لأخيه المؤمن كثرة ماله فدخل جنته وأراه إياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور وأخبره بصنوف ما يملكه من المال⁽²⁾.

ويرد المؤمن على صاحبه الكافر بقوله: ﴿ أَكْفَرْتِ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) ﴾ (الكهف: 37-38)، حيث يتساءل الأخ المؤمن

(1) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج3، ص280

(2) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ج21، ص463

مستكراً موبخاً لذلك الكافر: كيف تكفر بالله الذي خلقك وأوجدك من العدم؟ فكنت إنساناً تعيش هذه الحياة وتنتعم فيها، ألم يكن من الخير لك أنك لو دخلت جنتك قلت: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (الكهف: 39)، "أي ما شاء الله في سابق علمه، لا يقف عليه أحد إلا الله تعالى، ولا قوة لنا يا ربنا على أداء ما أمرتنا به في الأصل، والسلامة منه في الفرع، والخاتمة المحمودة إلا بمعونتك"⁽¹⁾، معترفاً أن كل ما أنت فيه من نعمة إنما كان بمشيئة الله وقوته، مفضلاً الأمر في جنائك وفي غيرها إلى الله تعالى تاركاً الافتخار بها، ولتستحضر عظمة الله في نفسك، لأن الذي وهبها قادرٌ على سلبك إياها، ليقودك إلى التوحيد وعدم الشرك، فلا تفرح بها ولا بغيرها مما يفنى لأنه لا ينبغي الفرح إلا بما يؤمن عليه من الزوال⁽²⁾.

فلما يئس المؤمن النقي من أخيه العاصي، دعا ربه أن يرزقه خيراً من جنة أخيه الكافر، آملاً أن يرسل الله على جنة الكافر حساباً من السماء لعله يرجع إلى رشده، وقد كان⁽³⁾. ولم ينفع النصح ولم تجد العظة، فيهلك الله جنته بالكلية، ويستولي عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار، فما كان منه إلا أن قلب قلبه أسفاً وحنناً على ماله الضائع وجهده الذاهب فيها⁽⁴⁾.

وبعد وقوع العقوبة، يندم ذلك الضال، متمنياً أن لو لم يشرك بالله أحداً، ويعقب الله على ذلك المشهد بقوله: ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾، موضحاً ما وصل إليه ذلك الكافر من عجز وضعف، فلم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك، ولا كان هو بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه لو آمن واتقى، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافترخ بهم، وما كان من المنتصرين⁽⁵⁾.

(1) تفسير التستري، للتستري، ج1، ص98 (بتصرف)

(2) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ج12، ص62

(3) تفسير مقاتل، لمقاتل بن سليمان، ج2، ص290

(4) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج2، ص177

(5) انظر: المرجع السابق، ج2، ص177

رابعاً: موعظة الأخ لأخوته

وهذا النموذج القرآني يصور لنا أماً يعظ أخوته بعد أن أهلك الله جنتهم التي بخلوا بثمارها على الفقراء والمساكين، ومنعهم نصيباً كان يؤديه أبوهم إليهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (24) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) ﴾ (القلم: 17-33)

" ذكر بعض السلف: أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه أولاده، قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذ كان يصرف من هذه الجنة شيئاً للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية: أذهب رأس المال، والريح فلم يبق لهم شيء" (1). وفي شأن ما نزل بهم من عقوبة يقول عز وجل: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (القلم: 19)، أي: فيطرقها طارقاً من عذاب الله، نازراً من السماء، فاحترقت وهم نائمون، فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً، وقد حرموها خير جنتهم بذنبهم (2).

كان الأخوة قد نادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم، أن اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنا بكم، فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين، جادين في أنفسهم غير متهاونين (3)، فلما رأوا حديقتهن سوداء محترقة، ظنوا أنهم قد أخطأوا فقصدوا مكاناً

(1) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 15، ص 47

(2) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 3، ص (403، 404)

(3) انظر: تفسير مجاهد، لأبي الحجاج المخزومي، ج 1، ص 669

آخر غير جنتهم، وكان إنكارهم أنها حديقته من هول المفاجأة لشدة الخراب والدمار الذي حل بها، فلما استفاقوا من هول الصدمة أدركوا حقيقة ما هم فيه ووضّح لهم أنها هي، وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها، فقالوا عند ذلك: بل نحن محرومون، حرماناً ثمرها وخيرها بجنايتنا على أنفسنا⁽¹⁾.

يرجع الأخوة إلى رشدهم بعد فوات الأوان، مستدركين أن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، وأنه لا زال بوسعهم أن يرجعوا إلى الله نادمين مستغفرين، يقول عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: 28)، وأوسطهم هنا هو أخوهم وواحد منهم، قيل: "كان خيرهم فعلاً وأعدلهم قولاً"⁽²⁾، ولعله حاول منعهم قبل أن يقدموا على ما فعلوه في بداية الأمر، ثم سار معهم لشدة إلحاحهم وإصرارهم، فلما أفاقوا من غيهم على هول العقاب الإلهي، عاد يستنكر عليهم فعلتهم الشنعاء في حرمان الفقراء وهجر تسبيح الله وتزيهه وطاعته، داعياً إياهم أن يسبحوا الله ويشكروه على ما أعطاهم⁽³⁾.

فقد اعترفوا بذنبهم، وشرعوا يسبحون الله منزهين له عن أن يكون ظالماً لهم فيما فعل بهم وبجنتهم، ويردون ذلك لأنفسهم بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾، فأقروا على أنفسهم بالظلم بمنعم المساكين من نيل حقهم، فكانوا هم الجناة على أنفسهم، ويختمون بقولهم: ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (القلم: 32)، فقد فطنوا أن الله واسع المغفرة ولا ينقطع عنده الأمل، فاستغفروا الله وتابوا إليه، راغبين منه أن يبدلهم خيراً من جنتهم الهالكة إذا تابوا وأنابوا⁽⁴⁾.

(1) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 3، ص 404

(2) غريب القرآن، لابن قتيبة، ج 1، ص 410

(3) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، ج 8، ص 196

(4) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 10، ص 149

المطلب الرابع: مواظب للطغاة والمتجبرين

أولاً: موعظة إبراهيم عليه السلام للنمرود

هذه مناظرة هي الأولى من نوعها على وجه الأرض، مناظرة العقل والفترة مع من أراد أن ينازع الله العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء، يذكر الله تعالى مناظرة خليله إبراهيم عليه السلام مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله، وقلة عقله.

ويذكر الله سبحانه هذه القصة فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)﴾ (البقرة: 257-258)

ساق القرآن الكريم بعض الأمثلة للمؤمنين المهتدين وللضالين المغرورين من خلال قصة النمرود وهو ملك بابل: وهو أول من ملك الدنيا وقد قيل وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: نمرود بن كنعان وبختنصر، وقد أنكر النمرود أن يكون ثمة إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص: 38) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ ولهذا قال: ﴿ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ (البقرة: 258)⁽¹⁾.

قيل إن النمرود كان يحتكر الطعام، وكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترتون منه، وإذا دخلوا عليه سجدوا له، فوفد إبراهيم عليه السلام في جملة من وفد للميرة ولم يسجد له، فقال له النمرود: ما لك لم تسجد؟ فقال: أنا لا أسجد إلا لربي، فكانت بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كئيب من التراب فملاً منه عدليه وقال: أشغل أهلي عني إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكاً فنام، فقامت امرأته سارة إلى

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج1، ص(685،686)

العدلين فوجدتهما ملأين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل⁽¹⁾.

وكانوا قد خرجوا إلى عيد لهم، فدخل إبراهيم عليه السلام على أصنامهم فكسرها، فلما رجعوا، قال لهم: أتعبدون ما تتحتون؟ فقالوا له: من تعبد أنت؟ قال: أعبد ربي الذي يحيي ويميت، وقيل أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة، فأوتى برجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة⁽²⁾.

"وهذا ليس بمعارضة لإبراهيم، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ودليل إبراهيم في غاية الصحة لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة وقدم ذكر الحياة على الموت هنا، لأن من شأن الدليل أن يكون في غاية الوضوح والقوة، ولا شك أن عجائب الخلقه حال الحياة أكثر، وإطلاع الإنسان عليها أتم"⁽³⁾.

ويظهر أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم عليه السلام ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص: 38) ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ (البقرة: 258) أي: إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إليها كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من جهة المغرب في هذا الوقت، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، ولم يكن النمرود قادراً على استباق الأمر مع نبي الله بأن يقول: أنا هو الذي يأتي بها من المشرق فليأت بها ربك من المغرب، لئلا تقوم عليه الحجة لأن الشمس كانت تطلع من المشرق قبل أن يوجد نمرود⁽⁴⁾.

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أي: أخرس فلا يتكلم غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه، وقامت عليه هذه الحجة الدامغة التي قذفها إبراهيم عليه

(1) بحر العلوم، للسمرقندي ج1ص170 (بتصرف)

(2) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج1ص593، (بتصرف)

(3) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج1ص593

(4) انظر: تفسير الإمام ابن عرفة، لابن عرفة، ج2، ص734

السلام في وجه خصمه، قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 258) أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.⁽¹⁾

يقول ابن عباس: "﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: خصم وقصم الذي كفر أي سكت بغير الحجة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الحجة ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين يعني نمرود"⁽²⁾.

ويظهر بذلك أن الآية الكريمة قد أخبرت الناس بلون من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه لكي يكون في ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون.

ثانياً: موعظة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّاعِ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (50) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (56)﴾ (الزخرف: 46-56)

يوجه الله سبحانه كلامه لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أرسله إلى كفار قريش كما كان أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بالحجج والبراهين، يدعوهم إلى توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة، وكما فعل فرعون وقومه إزاء آيات الله التي جاءت على يد موسى عليه السلام، كذلك فعل كفار قريش، إذ سخروا من الآيات والعيبر وضحكوا منها، وتلك تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقليل من شأن أولئك المجرمين من كفار قريش، فأمرهم لا يعدو كونه كأمر غيرهم من سائر الأمم الكافرة

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج1 ص (686، 687)

(2) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، لابن عباس، ج1، ص37

المكذبة من قبلهم⁽¹⁾، ويذكر الله وآياته يطمئن قلب الرسول الكريم، كيف لا وقد كان صلى الله عليه وسلم " ذاكراً لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيته وركوبه وسيره ونزوله، وطمعته وإقامته"⁽²⁾، وهو في ذلك قدوة لنا وأسوة حسنة كما أخبر رب العز تبارك وتعالى، " والأسوة هي القدوة التي يطيب التأسي بها في الأقوال والأفعال"⁽³⁾.

ويعقب الله سبحانه على موقف أولئك المجرمين من قوم فرعون، أنه سبحانه ما كان يريهم من آية من الآيات إلا هي أكبر وأظهر دلالة على كمال قدرته وصدق نبيه من أختها من الآيات السابقة عليها، ومع ذلك أنكروا كل الآيات واستهزأوا بالرسول عدواناً وظلماً، وبعد ما بالغوا في العتو والعدا أخذهم الله سبحانه بالعذاب العاجل من القحط والطاعون وغيرها رجاء أن يرجعوا عن إنكارهم وكفرهم، ومع ذلك لم يرجعوا، بل قالوا عند نزول البلاء وهجوم العناء بدعاء موسى عليه السلام مسترجعين نحوه متهمكين: يا أيها الساحر الماهر في السحر والشعوذة، ادع لنا ربك الذي زعمت أن لا منزل للمصيبة سواه ولا كاشف لها أيضاً إلا هو، بمقتضى ما وعدك وعهد معك أن لا يعذب من آمن بك وصدقك، فإن انكشف الضر بدعائك فإننا مؤمنون لك مصدقون بنبوتك ورسالتك وجميع ما دعوتنا إليه، فلما كُشف عنهم العذاب بعد دعاء نبي الله موسى عليه السلام، نكصوا على أعقابهم ونكثوا ما عاهدوا بغتة مبادرين على الإنكار والعدا بلا تراخٍ ولا وتأخير⁽⁴⁾.

وعلى سنة الأولين والآخرين من الطغاة والجبارين، وبعد كل ما كان من عرضٍ لآيات الله لهم، ثم إنزال العذاب بهم لكفرهم، ثم كشفه عنهم بالدعاء والعهود التي قطعوها على أنفسهم، ينادي فرعون في مجمع قومه من القبط مباحياً بما معه من الجاه وسعة الملك، ظاناً أن ما تحته من الأملاك والقوة إنما حازها بقدرته وقوته، واستحقاقه الفطري الذي لا يأتيه من أحد سوى آبائه الآلهة كما كانوا يزعمون، داعياً من

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج21، ص 614

(2) زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن قيم الجوزية، ج2، ص 365

(3) تاج التفاسير، للمرغني، ج2، ص 89

(4) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، للنخجواني، ج2، ص (301، 302)

كان يحضره أن يتأمل ذلك الملك الممتد في مصر كلها على سعتها وثرائها في ذلك الحين، وهذه الأنهار المتشعبة من نهر النيل تجري تحت تصرفه وملكه، وبعد أن ملأ عيونهم وقلوبهم بزيف ملكه العظيم وجاهه الكبير، يصرف أنظارهم إلى نبي الله موسى، داعياً إياهم أن يتأملوا فقر حاله وضعف حيلته، فلا عزة له ولا أعوان ولا أملاك، ويزيد في قلة قدره عندهم عدم قدرته على إظهار الكلام وتبيينه لما كان من لكمة في لسانه أصيب بها عليه السلام في صغره⁽¹⁾.

ويمارس فرعون ما مارسه الطغاة على مر الدهور من استخفاف بالعقول واستهانة بالأفكار، فلقد أخذته الآيات التي جاءت على يد رسول الله موسى عليه السلام، فخشى أن ينبهر بها الناس من حوله، فانبرى يحاول أن يوهم من كان عنده أن لو كان موسى عليه السلام أكثر من مجرد ساحر، ولو كان حقاً مؤيداً من قبل الله الواحد القادر كما يزعم، لما تركه إلهه على هذه الحالة من الضعف والهوان، ولألبسه حلية وأساور من ذهب تدل على عزته وكرامته وسيادته عند الناس، إذ العادة حينئذٍ أن أهل الرياسة والسيادة يسورون ويطوقون بأسورة متخذة من ذهب، أو لكان جاء معه رسل ومؤيدون من الملائكة يؤازرونه ويدعمونه وبدلون الناس على صدق نبوته⁽²⁾.

ويصف الله سبحانه تعالى كلام فرعون لقومه وحاشيته من كبراء القبط ورؤسائهم بأنه كان استخفافاً، وصدق الله سبحانه في وصفه، فقد استخف فرعون بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة، واصفاً إياهم سبحانه بالفسق، فلولا فسقهم وخروجهم عن طاعة الله لما أطاعوا فرعون وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وقد كان ذلك الفسق سبباً في استحقاق الغضب الإلهي الذي حلّ عليهم، ثم يطلع الله سبحانه نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على مصير فرعون وقومه لما أبدوا من الفسق والكفر، فعاقبهم بالغرق حتى كانوا مثلاً للأمم كلها⁽³⁾.

قيل: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه، وذلك بالغرق في ماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزّز بشيء أهلكه الله به، حتى جعلهم الله

(1) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، للنخجواني، ج2، ص302

(2) انظر: المرجع السابق، ج2، ص302

(3) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج3، ص150

- لِعِظَم ما حلَّ بهم من عقوبة - قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك العذاب⁽¹⁾.

وترى الباحثة أن للدعاة في قصص مواظب الطغاة والمتجبرين دروساً عدة:

أولها: ألا نافع ولا ضار إلا الله، فإن لم يكن الداعية واعياً بذلك تمام الوعي مؤمناً به بالقول والفعل فلا جدوى من دخوله هذا المعترك، فإبراهيم عليه السلام لم يخف النمرود ولم يلق له بالاً، مع أنه يعلم أنه بحسابات المادة والأسباب شيء لا يذكر بجوار النمرود، لكنه بحسابات الإيمان يعلم أنه أكبر من النمرود وأعلى.

والدرس الثاني: أن مجادلة الطغاة بلغتهم ومنطقهم، ومقارعة الحجة بالحجة، لون من فنون الدعوة. فإبراهيم عليه السلام كان يعلم أن هذا الطاغية ليس أهلاً للإيمان بالإقناع والحجج، كيف لا وهو قد ادعى الألوهية أولاً زوراً وبهتاناً وهو يعلم ذلك، إلا أن مقارعته بالحجة والبرهان رسالة له أولاً، ولمن حوله ثانياً، أنهم لا يملكون في الواقع أدنى منطق.

والدرس الثالث: النهايات والخواتيم، فلا بد لكل شيء من خاتمة ونهاية، وقد تختلف الخواتيم عن البدايات أيما اختلاف.

فإبراهيم عليه السلام، الضعيف الوحيد في حسابات أهل الأرض، الذي ألقى في نار حامية من دون أن يكون له نصير ولا معين، خرج منها منتصراً سالماً غانماً لم يمسه منها سوء، وأما النمرود، ذلك الملك الذي ملأ الأرض كبراً وغروراً فقد أذله الله بأصغر وأضعف خلقه بعوضة صغيرة سلطها الله لتدخل رأس النمرود، فلا تفارقه ليلاً ولا نهاراً، تطن في أذنيه حتى أفقدته وقاره وضيعت كبرياءه، بل وعصفت بكل قوته وجبروته حتى ضربوا رأسه بالنعال علّه يرتاح مما هو فيه، حتى قتله الله شر قتلة وأقبحها⁽²⁾.

وأما الدرس الرابع: أن من اتبع المجرمين والطغاة في غيهم وكفرهم، يستحق العقوبة مثلهم، فلولا الأتباع ما تجبر الطغاة ولا بغوا، ومن تعزز بشيء على الحق والعظة أهلكه الله هو وأتباعه به.

(1) المرجع السابق، ج3، ص 150 (بتصرف)

(2) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 3، ص 622

الفصل الثاني

أساليب الموعظة وآثارها في ضوء القصص القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أساليب الموعظة في القصص القرآني

المبحث الثاني: آثار الموعظة في القصص القرآني

المبحث الأول

أساليب الموعظة في القصص القرآني

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: اللين

المطلب الثاني: الشدة

المطلب الثالث: الترغيب

المطلب الرابع: الترهيب

المطلب الخامس: الحكمة

المطلب السادس: المجادلة بالتي هي أحسن

المطلب السابع: الوعد والوعيد

الفصل الثاني

أساليب الموعظة وآثارها في ضوء القصص القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أساليب الموعظة في القصص القرآني

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: اللين

بعد استعراض الباحثة لنماذج عدة للموعظة في القرآن الكريم قدمها الأنبياء سواء لأقوامهم مجتمعين أو ذويهم فرادى من آباء وأخوة وأبناء وغيره، ستسلط الباحثة الضوء على الأساليب العامة التي استخدمها الأنبياء والدعاة إلى الله في القرآن الكريم، حيث تتنوع ما بين لين وشدة وترغيب وترهيب، إلخ. وتناقش الباحثة بداية الأسلوب الأكثر رواجاً وتأثيراً في الدعوة إلى الله بل والأقرب إلى النفس البشرية وأحبها، ألا وهو: اللين.

يشير الله جلَّ وعلا إلى أسلوب اللين في الدعوة بل ويأمر به في غير موضع من القرآن الكريم، كما في سورة طه، حيث يقول سبحانه مخاطباً موسى وأخاه هارون عليهما السلام:

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾ (طه: 42-44)

يوجه هنا عزَّ وجلَّ خطابه لنبيه وكليمه موسى عليه السلام، يأمره أن يتوجه هو ووزيره وأخوه نبي الله هارون لفرعون، فيعرضا عليه آيات الله يدعوانه بها للإيمان والتسليم מזكرين له هو وقومه معرفين لهم بالله عزَّ وجلَّ، وقد تكرر الأمر لهما بالذهاب أكثر من مرة، " وفائدة تكرار الأمر بالذهاب هو التوكيد"⁽¹⁾.

(1) زاد المسير في علم التفسير، للجوزي، ج3، ص159

وهنا نتأمل الرحمة الإلهية التي تتجلى في أعظم صورها، فالطاغية المستهدف بالدعوة ليس كأي طاغية، والكافر المراد بالهداية ليس كأي كافر ملحد بالله، ومع ذلك، يأمر الله عز وجل نبيه أن يأتيه باللين لا بالشدّة، بالإقناع لا بالتهديد والوعيد.

ولربما وجب على كل داعية أن يتأمل هذا الأسلوب الدعوي، ليستوعب حجم الرحمة الإلهية وعمقها، كي يفهم ويعي أهم الثوابت الإلهية في مجال الدعوة إلى الله، ألا وهو: لا شيء ولا عمل في هذا الكون يمكن أن يمنع الداعية من دعوة أي أحد إلى الله مهما أتى وفعل.

فأما الطغيان فقد أتى من الطغيان والإفساد في الأرض ما لم يأتيه أحد من العالمين، وقد وضح الله عز وجل ذلك في قوله ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: 4)

وأما الكفر، فلم يكن مجرد كافر بالله ملحد بوجوده أو قدرته أو كينونته، ولا هو أشرك به غيره يعبد من دونه دون وجه حق، فنتوهم أنه مضلل أو مشوش التفكير أو أن آباءه الأولين قد أثروا على تفكيره ووعيه فوقع في وحل الشرك دون إرادة منه ورغبة حاله كحال غيره من عتاة الكفار والعصاة، لكن الأمر تعدى ذلك كله إلى إنكار وجود الخالق جلّ وعلا ابتداءً مدعيًا لنفسه الألوهية الكاملة داعياً قومه لعبادته من دون الله، عبادة المخلوقين لخالقهم والمحتاجين لرازقهم ومطعمهم.

ذلك الفجور كان واضحاً في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات: 24)، وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص: 38). ومع ذلك كله لم يكن كل ذلك الفجور ولا الطغيان مانعاً من أن يمنحه الله جلّ وعلا الفرصة للتوبة والإنابة والعودة لجادة الطريق، بل أرسل إليه اثنين من خيرة الرسل وأشدهم عزماً يكلمانه باللين والطيب من القول علّه يفيق من فجوره وينيب إلى الله. ويحذر الله رسوليّه من الفتور والتقصير في تبليغ دعوته لعدو الله فرعون، في قوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي دِكْرِي ﴾ (طه: 42)، أي: "لا تضعفا ولا تعجزا ولا تفترا في تبليغ رسالتي إلى فرعون"⁽¹⁾، "يجوز أنه يريد بالذکر

(1) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، لابن عباس، ج1، ص262

تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر⁽¹⁾.

وقد أمر الله عزَّ وجلَّ رسوله أن يعدا فرعون شاباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجبها بما يكره، والطفاً له في القول، لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوة⁽²⁾.

"والقول اللين لا يكون بالملق أو الإدهان أو المواراة، وإنما لين القول يكون باللين والرفق، حتى لا يُصدم في أمره بالجفوة، وبيان أن الحق يزكي نفسه، ويرفع نفسه فوق ما هي فيه، كأن يقولاً له: هل لك إلى أن تزكى؛ لأن ظاهر القول التساؤل والاستفهام، وأن يتبع الأمر باختياره لا بطلب من أحد، ومن القول اللين ألا يجافيه وأن يخاطبه بما لا يمسّ سلطانه، فإن طواغيت الدنيا لا يجدون شيئاً أعزَّ عليهم من سلطانهم في الأرض، فيُصابون في حسهم إذا مُسَّ ولو من بعيد، وإن اللطف في الدعوة من موسى لفرعون يقتضي الرفق في القول؛ لأنه ربّاه صغيراً ورعاه، وكانت له به محبة فكان له مثل حق الأبوة⁽³⁾.

وفي ذلك إشارة إلى أن الله عزَّ وجلَّ لا يضيع أجر أي عمل صالح ولو كان قد جاء من فاجر كفرعون، فتربيته موسى في صغره كان لها وقعها ومكانها في معرض دعوته إلى الله وحلم الله عليه حتى حين. ونلاحظ هنا أمر الله عزَّ وجلَّ لنبيه أن يأتي فرعون بالآيات، وقد قيل أنهما معجزتا اليد والعصا فقط، وقد قيل غير ذلك⁽⁴⁾.

وعموماً فقد أمر الله رسوله أن يأتي فرعون وقومه بأمرين أساسيين: أولهما: الآيات الدالة على أن الله تعالى بعثهما، وذكر الآيات الدالة على أن الله وحده خالق السماوات والأرض، وثانيهما أن يذكر صفات الله تعالى الدالة على أنه وحده الإله الذي يعبد دون سواه، وألا يقصرا ولا يفترا في ذكره عزَّ وجلَّ بصفات الكمال والجلال.

(1) الكشاف، للزمخشري، ج 3، ص 65

(2) المرجع السابق، ج 3، ص 65 (بتصرف)

(3) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 9، ص 4730

(4) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب القنوجي، ج 8، ص 234

والعناية بذكر الله تعالى لفرعون؛ لأن فرعون وقومه ما كانوا يعرفون الله كالعرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا يعرفون الله وأنه خالق السماوات والأرض والذي يلجأ إليه في الشدائد ويستغيثون به في الحال التي توجب الاستغاثة، أما قوم فرعون فما كانوا يعرفون، وكانوا يعبدون الشمس ومظاهر الحياة، فاحتاجوا إلى التعريف بالله سبحانه وتعالى⁽¹⁾.

ولا شك في أن تحذير الله لعبديه موسى وهارون من التواني والفتور في الدعوة ليس عن علم منه عز وجل أن رسوله يمكن أن يقصرا في تكليف الله لهما، وإنما نهياً أن يتوانيا أو يفترا في الدعوة إحساساً منهما بأنها ستكون بلا جدوى أمام صلف فرعون واستكباره وفجوره، والله عز وجل يعلم أن فرعون ما كان ليؤمن، ولكنها سنة الله عز وجل في إلزام الحجة وقطع المعذرة، كما في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه: 134)⁽²⁾. ويجمل الله عز وجل سبب إرسال رسوله إلى فرعون في نهاية الآيات بقوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: 44)، "والتذكر النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما، وفائدة إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علم الله بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في أضعاف ذلك من الآيات"⁽³⁾.

وفي موضع آخر في القرآن العظيم، يشير الله جلّ وعلا إلى أسلوب الدعوة باللين والحض عليه في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159) يخاطب الله عز وجل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبئ عنه السياق من استحقاق الفارين والمخالفين للملامة والتعنيف منه بمقتضى الجبلة البشرية⁽⁴⁾.

(1) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 9، ص 4728-4729 (بتصرف)

(2) الكشاف، للزمخشري، ج 3، ص 66 (بتصرف)

(3) فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب القنوجي، ج 8، ص 236

(4) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 2، ص 314 (بتصرف)

ويتضح هنا أن إجادة أسلوب اللين في الدعوة إنما هو رحمة و فضل من الله، فالله جلّ وعلاً يذكر نبيه بالرحمة الإلهية التي وهبها إياه بأن جعله ليناً مع أتباعه في كل أحواله، فهو لم يسرف في تعنيفهم ولومهم على ما كان منهم من أخطاء كيوم أحد، فقد تصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معهم تصرف الحكيم الملهم، فلا عنف ولا وبخ وهو يراهم يستغرقهم الحزن والهم، فالشدة في غير موضعها تفرق ولا تجمع وتضعف ولا تقوى، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159)⁽¹⁾.

ويعلم الله جلّ وعلا رسوله عليه الصلاة والسلام درساً في الدعوة يتخذه أساساً ومحوراً لكل حياته فيما بعد، فإني نبيه أن لو كان فظاً غليظ القلب في ذلك الموقف العصيب الذي أصابهم يوم أحد لتفرقوا عنه ونفروا منه ولم يسكنوا إليه، "والجملة الكريمة تنفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون فظاً أو غليظاً، لأن (لو) تدل على نفي الجواب لنفي الشرط"⁽²⁾.

"قال عبد الله بن عمرو بن العاص⁽³⁾: إني أرى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة، إنه ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح"⁽⁴⁾. وقد جاءت هذه الأوامر للنبي صلى الله عليه وسلم، على أحسن نسق، وأحكم ترتيب، لأن الله تعالى أمره أولاً بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه، فإذا ما انتهوا إلى هذا المقام، أمره بأن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى، لتتراح عنهم التبعات، فإذا صاروا إلى هذه الدرجة، أمره بأن يشاورهم في الأمر لأنهم قد أصبحوا أهلاً لهذه المشاورة⁽⁵⁾.

ثم يوجه الله عزّ وجلّ نبيه بأنك إذا ما أخذت بالأسباب، فعفوت ولنت واستغفرت لأتباعك المؤمنين وشاورتهم، ففوض أمرك كله إلى الله وتوكل عليه فهو حسبك ونعم الوكيل، وذلك شأن كل مسلم في هذه

(1) المرجع السابق، ج2، ص 315 (بتصرف)

(2) المرجع السابق، ج 2، ص 316

(3) عبد الله بن عمرو بن العاص: هو عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي، ولد في مكة سنة 7 ق.هـ، صحابي، أسلم قبل أبيه الصحابي عمرو بن العاص، كان من العلماء العباد وكان من أكثر الصحابة رواية للحديث وكتابة له، توفي في مصر سنة 65هـ. انظر: الأعلام، للزركلي، ج4، ص111

(4) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج1، ص420.

(5) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج2، ص 317 (بتصرف)

الحياة، أن يأتي بالأسباب كلها كأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله كأنها لا شيء وأن يترك النتائج والخواتيم لله.

"وكم من أناس اعتمدوا على قوتهم وحدها، أو على مباشرتهم للأسباب وحدها دون أن يجعلوا للاعتماد على الله مكانا في نفوسهم، فكانت نتيجتهم الفشل والخذلان وكانت الهزيمة المنكرة المرة التي اكتسبوها بسبب غرورهم وفجورهم وفسوقهم عن أمر الله" (1).

وختاماً: خلصت الباحثة إلى عدة نقاط ترى أن من الخير لكل داعية إلى الله أن يعيها وبراعيتها في طريق دعوته إلى الله:

النقطة الأولى: ليس من شيء سواء كان قولاً أو عملاً يمكن أن يمنع صاحبه من أن يُدعى إلى الله عزَّ وجلَّ حتى ولو كان مدعياً الألوهية من دون الله أو أفسد في الأرض كما كان في قصة فرعون، والله تعالى لا يضيع ولا ينسى أي عمل صالح ولو كان من فاجر كافر، "فإنه جلَّ وعلا قد رفق بفرعون غير مرة كرامة لتربيته موسى صغيراً" (2).

وأما الثانية: ليس لأحد أن يقدم علمه على علم الله عزَّ وجلَّ، فالله وحده يعلم من يؤمن ومن يكفر ولو كان الظاهر أن الدعوة لن تجدي نفعاً فهي واجب على الداعية اتباعاً لسنة الله في الأرض في إلزام الحجة وقطع المعذرة.

والثالثة: على الداعية أن يستخدم كل ما لديه من حجج وبراهين وأدلة في دعوته، فلربما وجد أحد هذه الأدلة والبراهين أرضاً خصبة في قلب المدعو ولا يعلم ذلك إلا الله، وأن يأخذ بالأسباب ويعمل لها وبها، فإذا ما تم الأمر عليه أن يفوض أمره إلى الله وأن يتوكل عليه، فالنتائج والخواتيم بيد الله وحده لا بيد ولا قوة أحد غيره.

(1) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج2، ص 319

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج 4، ص28

المطلب الثاني: الشدة

استعرضت الباحثة في المطلب السابق أسلوب اللين في الدعوة إلى الله، وهو من أكثر أساليب الدعوة أثراً وجدوى، والأقرب إلى النفس والمحبيب لها.

غير أن النفس البشرية مجبولة على حب الخير والانجذاب إليه، وكره الشر والنفور منه، وكما أن اللين يجدي في بعض النفوس البشرية فالشدة كذلك لها أثرها وجدواها، فمن لم يلن قلبه وترق جوارحه لكلام الخير والدعة، لان قلبه بالشدة والتوبيخ، والمواجهة بالحق أيا كانت قسوته.

وقد جاءت الشدة في الموعظة في غير موضع من القرآن الكريم، مثال ما كان بين شعيب عليه السلام وقومه حيث يقول عز وجل:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) ﴾ (هود: 91-93)

يستعرض القرآن هاهنا صلف قوم شعيب عليه السلام كما غيرهم من الأمم الغابرة الهالكة، فما كان من أغلبهم إلا الإعراض والاستكبار، فيبادرون نبيهم بعد أن دعاهم للإيمان بالله والكفر بما سواه، والعدل في الميزان وألا يبخسوا الناس أشياءهم بدعواهم أنهم لا يفهمون أكثر ما يقول، وفي ذلك صد ورفض واستهانة، كأنهم يقولون له أن أكثر ما نقول ليس مفهوماً ولا معقولاً، "وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول. أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه" (1).

ولا شك بأن دعواهم زائفة باطلة، فكيف لا ينفعهم كلامه ولا يفهمونه وهو خطيب الأنبياء جميعاً (2) لكنه الكبر والصد.

(1) الكشف، للزمخشري، ج2، ص423

(2) انظر: المرجع السابق، ج2، ص423

وقولهم يا شعيب " نادوه باسمه على سبيل الاستهزاء والاستحقار، ما تَفَقَّهُ ونَعْلُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ أي بعض هذياناتك التي قد تكلفت أنت بها وَإِنَّا وان لم نفهم بعض كلماتك لابتنائها على الخبل والخرق لَنَرَاكَ في بادي الرأي فِينَا ضَعِيفًا في غاية الضعف والحقارة " (1).

ويتابع المجرمون: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود: 91) فمن بعد تسفيه كلامه والاستهانة بمنطقه، يتوآح عتاة قومه فيعيرونه بوصفهم له " ضعيفا": وظاهر الكلام هنا أنهم وصفوه بالضعف بينهم تهديداً له بالهلاك، وقد قيل أنه كان أُلْتِغ وقيل ضَعِيفًا أعمى (2)، غير أن المعنى الراجح ضعفه فيما بينهم في العدة والعتاد والعزة والمنعة، وببالغون في محاولة توجيه الإهانة له بدعواهم أن " رهطه" هم فقط من يمنعونهم عن الفتك به، وفي قولهم رهط إشارة إلى قلة عددهم وعدتهم، فرهطه ليسوا مانعيه من القوم بقوتهم وعتادهم، وإنما بعزتهم على قومهم وكرامتهم بكونهم من أتباعهم وأهل ملتهم، وبالتالي فليس الأمر قاصراً على كون النبي ضعيفاً بينهم وحسب، وإنما لا عزة ولا كرامة له على قومه بعد أن فارق دينهم وانشق في عقيدته عن جماعتهم.

ويدرك النبي الكريم بفهمه المؤيد من السماء مدى صلف قومه وعتادهم، فلم يكتفِ القوم بالرفض والإنكار، وإنما تمادوا بتوجيه الإهانات إلى صاحب الدعوة، ولسان حالهم يقول أننا لا نرى أماننا من يصلح لأن يكلمنا في أي دعوة، ولن نفكر فيما قلت أصلاً، وكان لا بد للنبي الكريم أن يحاول إفاقتهم من غيبوبة الكفر تلك بلومهم أشد اللوم وأعنفه فقول: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (هود: 92)

يخاطبهم قائلاً: "هل كل ما يمنعكم عني هم رهطي؟ والله الذي خلقكم وصوركم ويرزقكم ويبيده تدبير حياتكم وبكلمته موتكم وبعثكم لا عزة ولا مكانة له - سبحانه وتعالى - لديكم؟! بل قد اتخذتموه كأنه منبوذ وراء ظهوركم؟ والاستفهام إنكاري لإنكار الواقع، وفيه تهكم بهم وبغرورهم، والمعنى ليس رهطي أعزَّ عليكم من الله، وإن زعمتم ذلك فأنتم في غرور، وانخداع بأنفسكم" (3).

(1) الفواتح الإلهية، للنخجواني، ج1، ص362

(2) انظر: المرجع السابق، ج1، ص362.

(3) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج7، ص3744

ولو أن مثل هذه الكلمات وقعت على مسامع أناس عادلين تجاه أنفسهم ونببيهم، لأفاقتهم ونهتهم عما هم فيه من ضلال، لكنه الكبر والعناد الذي يغيب العقل ويعمي البصيرة. فيبادرهم بقوله: إن ربي بما تعملون محيط، وكأنه يريد أن يقول لهم: لا تتمادوا في صدكم فلستم طلقاء أحرار في هذا الكون تأتون ما تشاؤون، إن الله القادر عليكم محيط بكم، لا يخفى عليه ولا يعزُّ عليه شيء. ولا شك أن الرسول الكريم في قوله لهم: يا قوم، إنما أضافهم إلى نفسه هنا تهكما بخلاف ما مضى إذ قد قنط عن صلاحهم بالمرّة⁽¹⁾، فهم يكلمونه بـ "رهطه" وهو يكلمهم بأنهم هم أنفسهم قومه.

وهنا تتضح شدة الرسول الكريم مع قومه المتجبرين في دعوتهم أكثر وأكثر، فالنبي يحاول معهم كأنها الفرصة الأخيرة، يريد أن يجد الخوف إلى قلوبهم طريقاً لعله يفتح فيها نافذة للنور الإلهي، فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿93﴾ (هود: 93)

ويحتمل في قوله مكانتكم هنا أحد احتمالين، فإما أنه يعني بـ "مكانتكم" أي مكانتكم وجهتكم التي أنتم عليها من الشرك كأنه يقول: استمروا في شرككم وكفركم كما أنتم، وإما أنه يعني التمكين، بمعنى اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها⁽²⁾. وأما أنا فإني عامل على حسب ما يؤتيني الله من النصر والتأييد، أو ابقوا في مكانكم كما أنتم⁽³⁾، ويتابع تهديده لهم بقوله: سوف تعلمون أيها الكفار المعاندين من سيأتيه فينا العذاب، العذاب الذي لا يقتصر شره على الألم والأوجاع، بل يمتد إلى الخزي والعار بكونه دليلاً دامغاً وفاصلاً واضحاً بين من هو على الحق ومن هو على الباطل.

ويؤكد النبي الكريم على وعيده الذي سبق موحياً لهم بأنه أكيد مما تقدم من قول، فيختم بقوله: وارقبوا إني معكم رقيب، أي انتظروا العاقبة وما أقول لكم وأنا معكم من المنتظرين.

(1) انظر: الفواتح الإلهية، للنخجواني، ج1، ص362

(2) انظر: الكشف، للزمخشري، ج2، ص424

(3) انظر: تفسير النسفي، للنسفي، ج2، ص80

وفي نموذج آخر من نماذج الشدة في الدعوة ما كان بين نبي الله صالح عليه السلام وقومه ثمود، فقد دعاهم وذكرهم كما غيره من الأنبياء، وكما فعل النبي كغيره من الأنبياء فعل قومه كغيرهم من الأقوام الكافرة المكابرة، صدوا وعاندوا ورفضوا النور الإلهي الذي جاء لهم، وشاء الله جلَّ وعلا أن يرسل لهم آية حسية مادية، يرونها ويلمسونها بعيونهم وأيديهم، خلق لهم ناقة من الصخر ووصفها بكونها ناقة الله، ثم أمرهم بأن يكتفوا هم ودوابهم بأن يردوا الماء في قريتهم في يوم وأن ترد الناقة الآية في يوم، وذلك هو عين البلاء والامتحان، ليرى ماذا يصنعون.

وقد قص علينا القرآن الكريم قصة النبي مع قومه وأمر الناقة فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ (65)﴾ (هود: 64-65)

ويتضح هنا في سياق الآيات تهديد النبي لقومه وتحذيره لهم بالويل والعذاب إن هم مسوا الناقة بأي سوء، ولعل التهديد هنا أعمق منه في أماكن كثيرة في القرآن الكريم، فغالباً ما يكون التهديد والوعيد بالعذاب في الآخرة، لكنه هنا أوضح لهم بأن العذاب الذي عليهم أن يحذروه إنما هو قريب، سيرونه في الدنيا قبل الآخرة ويعانون ويلاتة.

وبطبيعة الحال لم يستمع أهل الكفر لنبيهم ولا راعهم وعيده، فعقروا الناقة، وكانت القاصمة. ولعل الله جلَّ وعلا هنا أراد أن يعذبهم بخوفهم من العذاب قبل أن يذيقهم العذاب نفسه، فقد أمهلهم ثلاثة أيام يتمتعون فيها في دورهم يرون العذاب بعدها، وتلك مدة طويلة في الانتظار، فالظاهر هو المتعة في الدور لكن الباطن خوف ووجلٌّ وشكوك كانت تحيط بهم من كل صوب حتى جاء أمر الله.

" ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فلم يمتثلوا الأمر من صالح عليه السلام ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها فقال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي بالعيش في منازلكم أو بلادكم ومساكنكم فإن العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لأن الحي يكون متمتعاً بالحواس ثلاثة أيام ثم تهلكون" (1).

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب القنوجي، ج6، ص207

المطلب الثالث: الترغيب

في هذا المطلب تتطرق الباحثة إلى أسلوب الترغيب في الدعوة، وليس خفياً مدى تأثير هذا الأسلوب في النفس البشرية التي جبلت على حب الخير، يستهويها العطاء ويروقها البذل، وقد ورد هذا الأسلوب في الدعوة في الأغلب الأعم من المواقف الدعوية المتعددة في القرآن، لعلنا نذكر منها ما ورد على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في صدر سورة هود، حيث يقول عز وجل:

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَيَشِيرٌ (2) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)﴾
(هود: 4:1)

ويحذر الرسول الكريم قومه ناهياً إياهم أن يعبدوا أحداً غير الله، فلا عبادة ولا طاعة إلا لله رب العالمين، وهو بذلك التوجيه نذير لهم مخوف من العذاب للكافرين مبشر بالجنة للمؤمنين، ومن بعد توحيد الله جلّ وعلا بالعبودية، ونفيها عن غيره، توجهوا إلى الله بالاستغفار والتوبة، صلوا لربكم وتوبوا إليه من الموبقات كلها، من الشرك ومن غيره من الذنوب. وتوجهوا بالعبادة التوحيد لله وخلع الأنداد والأصنام وما كنتم تعبدون وارجعوا إلى الله تعالى وإلى عبادته والدخول في دين الإسلام⁽¹⁾.

وفي قوله: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: 3) فقد "وقع اختلاف في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين - الاستغفار والتوبة - فقليل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا إليه لأن الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر، والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستقبل و (ثم) هنا بمعنى الواو لأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ (هود: 3) يعني إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به⁽²⁾.

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخان، ج2، ص471

(2) المرجع السابق، ج2، ص 471

ومن بعد هذه التوجيهات، بالتوحيد والاستغفار والتوبة، يرغب النبي قومه في السمع والطاعة فيعدهم بعبء جليل وخير كثير، وأول هذا الخير هو المتاع، في قوله: ﴿يُمَتَّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾، وقد قيل في معنى يمتعكم أنه يُعَيِّشُكُمْ في الدنيا عيشاً حسناً في خير وعافية، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهى آجالكم، وقيل: يُعَمَّرُكُمْ، وقيل: يجعلكم راضين بما يعطيكم، أو يجعل حياتكم في الطاعة⁽¹⁾.

"وقيل: هو طيب عيش المؤمن برجائه في الله ورضاه بقضائه، لأنه الكافر قد يتمتع في الدنيا بالأرزاق إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى يعني إلى الموت"⁽²⁾.

وتدور المعاني كلها حول المفهوم نفسه تقريباً، وهو وعد إلهي بتعمير في الأرض إلى أجلٍ مسمى، يمد الله في آجالهم بالقدر الذي يشاء، يقضون فيه أعمارهم في عيش رغيد وحياة كريمة، ملؤها الرضا والطاعة، وليس من شك في أن هذه هي الحياة التي يتمناها كل إنسان.

وقد يرد تساؤل هنا من منطلق ما ورد في الأثر من أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُمَتَّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

"والجواب هنا أن الدنيا سجن للمؤمن بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله"⁽³⁾.

(1) بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 137 (بتصرف)

(2) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي، ج 1، ص 365

(3) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج 2، ص 471

ويتابع في الترغيب أكثر في قوله: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (هود:3)، فالعيش الكريم الرغيد ليس في حدود الحياة الدنيا وحسب، وإنما في الآخرة الأبديّة. (1).

ولعل أوضح صور الترغيب وأقواها في دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم ما كان من نبي الله نوح لقومه في دعوته إليهم، ونقرأ ذلك في قول الله تعالى على لسان نبيه:
﴿ تَمَّ إِنِّي أَغْنَيْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) ﴾
(نوح: 9-12)

وفي الآيات إشارة إلى مثابرة النبي الكريم في دعوة قومه، وقد كان من أمارات مثابرتة تكرار الدعوة وتتوابعها، فهو يدعوهم إلى الله سرّاً وعلانية ليلاً ونهاراً، يوجههم لأن يستغفروا ربهم مبشراً إياهم بأن ربهم غفار رحيم، فاستغفارهم حين يكون صادقاً نابعاً من قلوبهم لن يذهب سدىً، بل سيجد جواباً وقبولاً عند رب غفور، وذلك ترغيب في كثرة الاستغفار، فإذا اطمأن الإنسان إلى وجود قبول لفعله سيفعل.
ثم يستعرض النبي مغريات ما أعد الله لعباده المؤمنين المستغفرين، خير كثير وعطاء جزيل لا يكاد الإنسان يتمنى غيره في حياته الدنيا من قبل الآخرة.

وأول ما وعدهم به، ما كان يهم أهل الأرض في الأزمان الغابرة وعلى رأس أولوياتهم كلها، ألا وهو القطر، فلم تكن تلك الأقوام ولا الأمم تمتلك من التقنيات ما يمكنها من البقاء والحياة إذا تأخر عنهم المطر، فلا سبيل لحفر آبار بعيدة غائرة كما هو اليوم، ولا أساليب تتوفر لديهم لتخزين المياه في خزانات ولا سدود، لكنه القطر ينتظروه يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر يسقيهم ودوابهم ويروي زروعهم ومواشيهم، فكان أول ما بشرهم به نتيجة للاستغفار والإنابة إلى الله هو المطر الذي سينزل عليهم مدراراً كثيفاً غزيراً يكفيهم سقاية وزراعة ويزيد.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 137

وقد ورد أن " قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم فقال لهم استغفروا ربكم أي من الشرك واطلبوا المغفرة بالتوحيد حتى يفتح عليكم أبواب نعمه وذلك لأن الاشتغال بالطاعة يكون سبباً لاتساع الخير والرزق، وأن الكفر سبب لهلاك الدنيا فإذا اشتغلوا بالإيمان والطاعة حصل ما يحتاجون إليه في الدنيا" (1).

و"قيل إنهم كانوا قد أجدبوا أربعين سنة، حتى أذهب الجذب أموالهم وانقطع الولد عن نسائهم، فقال ترغيباً في الإيمان" (2).

فإذا اطمأن الإنسان إلى أساس حياته الأولي، بتوفر الماء لسقايته ودوابه وزرعه، أصبح يتطلع إلى ما هو أكثر وأكثر، ليجتهد ويتمنى في جمع المال وإنجاب البنين وامتلاك الضيع والجنان، وذلك تطور طبيعي في سلم الأولويات، وقد وافق النص القرآني تطور التطلعات البشرية في التطور من الأقل إلى الأكثر، أو من الأكثر ضرورة للأكثر متعة، ولذلك فقد وعدهم من بعد أمانهم على حياتهم بالماء والمطر، بمال وفير وبنين كثير، وإلى جانب المال والبنين، وعدهم جلّ وعلا على لسان نبيه بالجنان والأنهار، وكأنها الجنة يخلقها لهم على الأرض ببركة الاستغفار من بعد الإيمان، ثم من بعد ذلك كله، حياة كريمة بعد الموت، خالدين في جنات النعيم.

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 4، ص 345

(2) تفسير الماوردي، للماوردي، ج 6، ص 101

المطلب الرابع: الترهيب

وكما للترغيب أثر في النفس البشرية، فللترهيب أثره كذلك، وقد حرص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في غالبية مواقفهم مع أقوامهم ومن يتوجهون إليهم بالدعوة على الموازنة بين الترغيب والترهيب، واللين والشدّة، فيجتمع الأثر لهذا وذلك علّه ينجح في النفاذ إلى قلوبهم وعقولهم.

وفي سياق الكلام عن الترهيب، تستعرض الباحثة ما جاء في القرآن الكريم على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه آزر، حينما وجده على ما هو عليه هو وقومه من الكفر والشرك فيقول:

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) ﴾ (مريم: 43-45)

وقد تطرقت الباحثة آنفاً لدعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، ووضحت ما كانت تتطوي عليه من أدب ورقة في مناداته له بالرغم من شركه وعناده بقوله " يا أبت "، يضيفه لنفسه منادياً إياه بحق الأبوة له مترقفاً متودداً، أي: لا تظن يا أبي أنني متعالم عليك، أو أنني أفضل أو أذكى منك، فهذا الكلام ليس من عندي، بل من أعلى مني ومنك، فلا غضاضة في سماعه والانصياع له، وهو رسالة كُفِّتُ بإبلاغك إياها، وهذا الذي جاءني من العلم لم يأتك أنت، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله، فالمسألة ليست ذاتية بين ولد وأبيه، إنها مسألة عامة تعدت حدود الأبوة⁽¹⁾، غير أن الترقق والتودد لم يمنع أن تتطوي الدعوة على ترهيب وإنذار.

وبعد أن وضع النبي صورة الأمر لأبيه بكونه قد جاءته النبوة، وأن الله علّمه ما لا يعلم أبوه ولا قومه، وأساسه بيان ما يحل بك بعد الموت، إذا مت على ما أنت عليه⁽²⁾، ولسان حاله يقول: "فإن كنت من صلبك وترى أنني أصغر منك، لأنني ولدك، فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد"⁽³⁾، وأن هدفه الأساس هو هدايته إلى الصراط المستقيم، ينذر النبي أباه

(1) تفسير الشعراوي، للشعراوي، ج 15، ص 9098 (بتصرف)

(2) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 7، ص 238

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 5، ص 234

مرهباً إياه بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (مريم: 44) ويذكر هنا النبي أباه مكان الشيطان وموقعه الكريه من الفجور والعصيان والمصير الأليم، ناهياً إياه أن يعبد الشيطان بطاعته والسير على خطاه وفي مسلكه، فيلاقي بالتالي نفس المصير.

ولم يكن أبو إبراهيم ولا قومه يعبدون الشيطان عند أنفسهم، ولكن يحتمل إضافة عبادتهم إلى الشيطان وجوهاً:

أحدها: أن الأصنام التي عبدها كانت لا تأمرهم بالعبادة ولا تدعوهم إليها ثم عبدها، فإنما عبدها بأمر الشيطان وبدعائه إياهم، فأضاف ذلك إليه للأمر الذي كان منه بذلك.

والثاني: ذكر أن الشيطان كان ينطق من جوف الصنم، فعبدها لكلامه، فكأنهم عبدوا الشيطان⁽¹⁾.

ثم يتابع النبي الكريم يحاول أن يهز كيان والده بكلماته المنذرة المحذرة، المشفقة على آزر من المصير الأليم، فيضعه أمام حقيقة مرة لعله يعمل عقله في كلماته تلك فيتخذ راجعاً أو تكون له رادعاً مجدياً، لينذره بعذاب الله، ولسان حاله يقول: إني أخاف أن ينالك عقاب الله وعذابه، وهو يوشك أن يقع بك لما أنت مقيم عليه من الكفر والشرك، وهو ليس بعيداً عنك ولا ممتنعاً عليك، بل هو قريب مما تتصور، أليم أكثر مما تتوقع، فإذا ما جرى عليك القلم وجاء أمر الله وقعت في شرك الشيطان فكنت له ولياً في جحيم الآخرة كما كنت له ولياً في الدنيا قريباً له في العذاب⁽²⁾.

"فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ولا مغنياً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزِين لَهُم الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُم الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل: 63)"⁽³⁾.

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج7، ص239 (بتصرف)

(2) انظر، المرجع السابق، ج7، ص239

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج5، ص235

وتتعدد المواقف الدعوية في القرآن الكريم، حيث تذكر الباحثة هنا موقفاً آخر وقع بين نبي الله هود وقومه عاد، لما أعيوه في دعوته إليهم، حتى رموه بالمس من قبل آلهتهم المزعومة، ولما لم يجد فائدة ولا أثر لكلامه عندهم، لجأ إلى ترهيبهم بحقيقة دامغة تصدم نفوسهم المريضة بالكفر، لينظر كيف أثرها فيهم، وهو ما حكاه الله جلّ وعلا على لسان نبيه حيث قال:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) ﴾ (هود: 57-60)

وقد ظهر للباحثة أنفاً ما كان بين النبي الكريم وقومه في عظته لهم، غير أننا نحتاج هنا أن نسلط الضوء على الآية الكريمة المذكورة عالياً، لبيان أسلوبه في ترهيب قومه، وهو يصل معهم إلى نتيجة نهائية بسيطة، يوضح لهم فيها أنه مجرد رسول، ليس مسئولاً عنهم ولا عن هدايتهم، إن هو إلا نذير، فإن أصروا على ما هم عليه من عناد فما عليه إلا البلاغ، وبعد إقامة الحجة عليهم، فقد انتهى دوره وابتدأ دورهم في تحمل المسؤولية عن المواقف التي يتخذونها في حق أنفسهم.

والمسئولية هنا ثقيلة مهيبية، فالعقاب الموشك أن يقع بهم ليس عقوبة أنية تفيقهم من كفرهم كحبس للمطر أو تضيق في الأرزاق أو تعقير للأرحام أو صنف آخر من صنوف العذاب، وإنما هلاك وفناء، عذاب يفنيهم عن آخرهم حتى يتركهم أثراً بعد عين، فلا رجال ولا نساء ولا بيوت ولا حضارة ولا متاع، بل دمار وخراب يشملهم جميعاً، ثم يورث الله بيوتهم وأرزاقهم قوماً آخرين، يستبدلهم الله بهم خيراً منكم وأطوع لله تعالى⁽¹⁾.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 156

وتلك نتيجة كارثية حتماً، فليس ثمة عذاب فوق هذا العذاب ولا مصيبة تفوق هذه المصيبة، يقول ذلك لهم يرهبهم مما هم مقدمون عليه إن أصروا على عنادهم، فالأمر متعلق بهم في نهاية المسألة، فأما النبي فما عليه إلا البلاغ، وأما الله جلَّ وعلا فلا يضره من كفر ولا يفيد من آمن، فهو الله الصمد المستغني عن الكل بذاته عزَّ وجلَّ.

ويتابع الله ببيان ما آلت إليه الأمور، فينجي الله عزَّ وجلَّ نبيه والمؤمنين من عذاب عظيم وصفه الله جلَّ وعلا بـ " الغليظ"، وكان ريحاً عقيماً مهلكاً⁽¹⁾،

وكما رهَّب هود قومه ولم تفلح معهم النصيحة، جاء دور أهل مكة، وينقل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كلام ربه جلَّ وعلا إلى قومه العتاة، يقول لهم: يا أهل مكة، انظروا إلى حالهم كيف عذبوا في الدنيا وفي الآخرة، "وهذا كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: 52) فكذاك هاهنا، حيث بيَّن جرمهم، ثم بيَّن عقوبتهم، فقال: وَعَصَوْا رُسُلَهُ يَعْنِي: عاداً خاصة، ويقال: معناه كذبوا هوداً بما أخبرهم عن الرسل، وقيل: إنما جمع، لأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل" ⁽²⁾.

"وفي بيان العقوبة الواقعة على قوم هود، ترريع لأهل مكة وتحذير لهم من أن يلاقوا نفس المصير، ففي الدنيا عذاب بريح مهلكة، ولهم في الآخرة لعنة أخرى، وهو عذاب النار إلى الأبد إلا إنَّ عادا كَفَرُوا رَبَّهُمْ فهذا تنبيه للكفار أن عاداً كفروا ربهم، فأهلكهم الله تعالى، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم ما أصابهم بكفرهم" ⁽³⁾.

(1) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص157

(2) المرجع السابق، ج2، ص 157

(3) المرجع السابق، ج2، ص 157

المطلب الخامس: الحكمة

تتطرق الباحثة إلى لون جديد من الأساليب في الدعوة إلى الله ألا وهو: الحكمة في الدعوة إلى الله، وتلك ميزة فريدة لها أثرها البالغ في الدعوة، فما تصنعه الحكمة في التعامل مع الأمور لا تصنعه الحروب الطاحنة والمعارك الدامية، فالفارق بين الكفر والإيمان في بعض الأحيان شعرة، وقد تأسر بكلمة تقولها أو فعل تأتية قلب من هو مستعد للعناد ولو قاتلته حتى آخر نقطة من دمه.

ولاشك أن الأنبياء جميعاً قد تحلوا بهذه الصفة السامية، كيف لا وهم أسياد أقوامهم، ألمعهم عقولاً وأصفاهم فكراً وأطفهم قلوباً وأعمقهم بصيرة، تلك ميزات منحهم الله جلّ وعلا إياها لكي يكونوا مؤهلين لاستقبال ما شاء الله من النور الإلهي والعلم اللدني، وقد صرح الله جلّ وعلا بذلك في القرآن في غير مرة، في قوله: ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ﴾ (مريم: 12)، وقوله: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة: 251).

غير أن الحكمة تتجلى في أروع صورها في حكاية نبي الله سليمان الشهيرة مع ملكة اليمن بلقيس، ويذكر القرآن الكريم القصة من بدايتها فيقول:

﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذَنًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ

إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ﴿النمل: 22 - 44﴾

ومعلوم ما كان من فضل الله عز وجل على سليمان عليه السلام في أن آتاه ملكاً لم يؤته أحداً من العالمين، فقد سخر له الجن والشياطين والريح تجري بأمره، وعلمه منطق الطير والحيوان، وتلك نعمة كبيرة ومسؤولية عظيمة أناطها بنبيه الكريم يعينه بها على أمر دعوته.

ولا شك بأن الله يسلمح أنبياءه بما يناسب عصرهم ويتوافق مع طباع وملكات وإمكانيات أقوامهم، ولما كان سليمان عليه السلام في زمن ساد فيه السحر والشعوذة، وانطلقت قبله يد الجن والشياطين، آتاه الله ذلك الملك الذي ذكرنا ليقوم بدعوته على الوجه الأكمل.

وقد حكى القرآن قصة سليمان حين تفقد الطير ولم يجد الهدد حاضراً، وتوعده بالذبح أو العذاب إن لم يكن غيابه مبرراً، وتشاء الأقدار الإلهية أن يكون غياب الهدد لأمر عظيم، يكون من ورائه هداية أمة بأكملها إلى الله رب العالمين.

ويأتي الهدد ويبلغ نبي الله بما رأى في اليمن، قوم يشركون بالله ويعبدون الشمس من دونه يملكون عليهم امرأة هي بلقيس.

وتتبدى أمارات الحكمة وإشاراتنا في مستهل الآيات، والنظر هنا نظر العقل والتأمل⁽¹⁾، فعلى الرغم من أمانة الهدد وطواعيته لرسول الله، إلا أن النبي الكريم لم يأخذ الكلام على محمل الجد والتصديق للوهلة

(1) انظر: التحرير والتوير، ج19، ص 256

الأولى، فلو كان الكلام لملك أو سلطان، ثم سمع عن قوم يملكون كل ذلك الثراء وكل تلك النعمة ثم هم مخالفون في الدين، لانبرى يجهز الجيوش وبعد العدة للغزو، فيفوز بما يملكون ويُرضخ رقابهم لدينه، لكن نبي الله الحكيم لم يتخذ أي خطوة دون أن يتأكد بقوله: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (النمل: 27)

ولم تدعه قوته التي منحها الله جلَّ وعلا من أسباب وتمكين، وتسخير قوى خارقة للطبيعة لم ينلها قبله ولا بعده أحد من العالمين إلى أن يتغطرس فيقرر - في حال صدقت رواية الهدد - أن يخضع القوم لدين الله بحد السيف وخوارق العادات وهو المطمئن لنفوقه عليهم أياً كانت قوتهم، لكنه قرر أن يرسل إليهم كتاباً يدعوهم فيه إلى الله جلَّ وعلا، ومن أمارات حكمته عليه السلام أن قرن الدعوة مع التهيب بقوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُنُونِي مُسْلِمِينَ (31) ﴾ (النمل: 30-31) فالنبي الكريم يعلم أن أساس الكفر إنما هو الكبر والتعالي، فكأنه يقول لهم إنكم إن توليتم فلن تفعلوا اقتناعاً منكم بما أنتم عليه ولا إخلاصاً لمعبودتكم الباطلة، وإنما هو الكبر والتعالي، وإني أحذركم وأنذركم أن تتعالوا علي، ومن بعد الإنذار والتهريب دعاهم أن يأتوه مسلمين، وتلك صيغة غاية في الحكمة ورجاحة العقل وعمق التفكير.

وتتعمق المواجهة الناعمة بين نبي الله سليمان وملكة اليمن بلقيس، فالحكمة لم تكن حكراً على نبي الله وإنما كان للملكة منها نصيب وافر، ما جعل الأحداث بينهما تتعمق وتتسع أكثر، فقد كانت الملكة ذات ملك عظيم وثراء فاحش بدا واضحاً في عرشها الذهبي وتاجها وقصرها وما ملك قومها، وقد كانت مطاعة في قومها تأمرهم فيفعلون كل ما يؤمرون، وكان لهم من البأس والقوة ما لا يستهان به، كما قرر القرآن في قوله: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) ﴾ وفي قولهم هذا تقرير الطاعة العمياء والقوة الطاغية التي امتلكتها الملكة، وهذا الجواب تصريح بأنهم مستعدون للحرب للدفاع عن ملكهم وتعريض بأنهم يميلون إلى الدفع بالقوة إن أراد أن يكرههم على الدخول تحت طاعته لأنهم حملوا ما تضمنه كتابه على ما قد يفضي إلى هذا، ومع إظهار هذا الرأي فوضوا الأمر إلى الملكة لثقتهم بأصالة رأيها لتتظر ما تأمرهم فيمتمثلونه⁽¹⁾.

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 19، ص (264، 265)

وكان حرياً بها أن ترفض أمر النبي، ذلك الملك البعيد الذي يرسل إليها فجأة وهي في أوج قوتها وعظمتها يأمرها أن تتخلى عن كل ما هي فيه وأن تأتيه صاغرة متنازلة عن ملكها مفارقة لدينها ودين آبائها الأولين.

ولكنها الحكمة وبعد النظر الذي بدا جلياً في قولها: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)﴾
(النمل: 34-35)

وتجري الحكمة على لسان الملكة في وصفها أثر غزو وطغيان الملوك إذا ما هموا بقوم ما، وتتضح الحنكة والدهاء في قرارها أن تبثلي ذلك الملك البعيد الداعي لها إلى الله، فتكتشف بخبرتها وعمق بصيرتها إن كان نبياً مرسلأ أم مجرد ملك يريد أن يضيف سلطانها إلى سلطانه، وملكها إلى ملكه، فقررت أن ترسل له هدية من الذهب والجواهر لم يشهد مثلها أحد من العالمين، فإن كان مجرد ملك، فالذهب والجواهر كفيلاً بأن يطفئ نار طمعه، وإرسال الهدية كفيلاً بأن يطفئ نار كبريائه وتعالیه، وتلك حكمة بالغة تحلت بها الملكة.

وتتوالى الأحداث ويستتكر النبي الكريم الهدية، فليست هي غايته ولا مبتغاه، ويسخر ما سخر الله له من القوة مهدداً بلقيس وقومها بالقوة والجنود، لكنه مع ذلك لا يكتفي بالقوة، فهو لا يريد أن يسيطر على الملك ولا أن يفوز بالثروة ولا المرأة نفسها، إن مبتغاه الأساسي هو أن تهدي الملكة وقومها إلى الله، وإن مجيئها وقومها إليه أجساداً وممتلكات دون أرواح وعقول لا معنى له دون أن تؤمن قلوبهم وتفتتح عقولهم بعبادة الله رب العالمين، ولأنه رد عليها بما رد من عفة وحكمة، علمت أنه لم يكن ملكاً عادياً يبتغي الدنيا، فما كان منها إلا أن قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به طاقة⁽¹⁾.

ولأنه بحكمته يعلم أن الإيمان لا يتأتى إلا عن طريق القلب والعقل جميعاً، وأن القوة إن كانت أداة لكسر الكبر والتعالي والعناد، فإن الإقناع هو الأداة الوحيدة للفوز بالقلوب والعقول، يأمر أتباعه من الجن والعفاريت بأن يأتوا بعروشها من بعد أن غادرته إليه، فيرى ماذا يكون منها إن هي رأت هذه القدرة الخارقة لكل العادات، ويتظافر الأتباع حتى يأتيه أحدهم بعروشها قبل أن يرتد إليه طرفه.

(1) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج2، ص 375

"ولمّا رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله والاعتراف بعظم نعمه، والاستحياء، والتواضع له، وقال: «هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» لا باستحقاق مني، ولا باستطاعة من غيري، بل أحمد النعمة لرتي حيث جعل في قومي ومن أمتي من له الجاه عنده فاستجاب دعاءه.... ولما جاءت الملكة فوجئت بالعرش أمامها قد غيروا بعض تفاصيله ليستدل بذلك على كمال عقلها" (1)، وقد استغرقت وقتاً لتستوعب أن الذي أمامها إنما هو عرشها وليس شبيهاً له، بل قيل أنها عرفت للوهلة الأولى ولكنها شبّهت عليهم كما شبّهوا عليها، وكانت حكيمة لأنها لم تقل ذلك، لخشيتها من أن تُكذّب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب، قالت كأنه هو، فعرف سليمان كمال عقلها، حيث توقفت في محل التوقف، قيل لها: فإنه عرشك، فما أغنى عنك إغلاق الأبواب عليه، وكانت قد أغلقت عليه الأبواب وأخذت مفاتيحها(2).

وقد هزها هذا الموقف العنيف، غير أن شركها بالله وما ألفت من عبادة ما كان يعيد قومها لا زال يصدّها عن الله، ولم تستطع أن تتخلص من أدران الشرك لوقتها ذاك، ويثابر النبي الكريم في إقناع الملكة التي رأت كل صنوف العز والثراء بأن ما هم فيه من قدرة وقوة إنما هو من الله، فيأمر العفاريت بأن يصنعوا صرحاً واسعاً من قوارير من زجاج، وضعوه فوق ماء كثيف ثم أمرت أن تخوضه، ولم تستطع تمييز الماء عن القوارير فكشفت عن ساقها لتخوض الماء حتى اكتشفت حقيقة الأمر، وعلى الرغم من ارتباطها بدين آبائها وقومها لكن العاطفة لم تمنعها من الإذعان والإيمان بأن ما تراه إنما هو من قدرة الله وقوته، فما كان منها إلا أن آمنت ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: 44)

وهذا موقف قرآني لا بد أن يستفيد منه الدعاة إلى الله في طريق الدعوة، فالحكمة أسلوبٌ دعويٌّ يستهوي القلوب ويسلب العقول ويبدد الكبر ويزيل التصلّب والعناد، ويحقق من النتائج ما لا تحقّقه السيوف في الحروب القديمة، ولا أعتى الأسلحة في الحروب الحديثة.

(1) لطائف الإشارات، للقشيري، ج3، ص39

(2) انظر: اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص النعماني، ج 15، ص 169

المطلب السادس: المجادلة بالتي هي أحسن

لعل من أشهر الأساليب التي اتبعتها الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم كافة، كان أسلوب المجادلة، لا سيما المجادلة بالتي هي أحسن، فالجدال أداة قوية ومؤثرة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، يطرح فيها كل طرف فكرته ويدافع عنها، ويبين جوانب الحق والعدل فيها، ويهاجم فكرة خصمه وينتقدها مبينا مواطن الباطل والضعف فيها.

غير أن الجدل الذي مارسه الأنبياء مع أقوامهم أو ذوبهم، كان له سمياً خاصاً وصفة ثابتة، فلا سب ولا شتم، ولا قدح ولا ذم إلا في الآلهة المزعومة البغيضة، لا تجريح ولا إيذاء، لا جدال إلا بالتي هي أحسن. ولربما كان أشهر الأنبياء المجادلين عن ربهم نبي الله إبراهيم عليه السلام، فلقد تعددت مواقف جداله مع قومه وأبيه والنمرود، حيث يقول جلّ وعلا:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة البقرة: 258)

وقد تحدثت الباحثة باستفاضة عن هذه الآية الكريمة⁽¹⁾ في هذه الرسالة، وبيّنت كيف عمد إبراهيم عليه السلام إلى الإشارة إلى المعجز التي لا يقدر عليها إلا الله، وفي ذلك ذكاء في تقصير عمر الجدل، فالنتيجة المرجوة، هي التي تأتي عبر جدل مركز وقصير، دون أن ينسحب الكلام إلى سفسطائية لا تغني ولا تجدي.

" ولذلك أشار إبراهيم عليه السلام إلى قدرة الله على الإحياء والإماتة، لكن النمرود لم يشأ أن يعلن هزيمته باكراً فدلّس وادعى أنه قادر على الإحياء والإماتة، فرد الملك قائلاً مغالطاً: أنا أيضاً أفعل مثله فأقتل من أشاء فيموت وأعفو عن أشاء فيحيا. فعمد إبراهيم إلى حجة لا تتسع للمغالطة فقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الملك الكافر أمام التحدي وعجز، وانتهت الآية بتقرير أن الله لا يهدي القوم الظالمين أي الذين غلبت عليهم صفة الظلم والانحراف"⁽²⁾.

(1) انظر: دعوة الطغاة والمتجبرين، ص 87

(2) التفسير الحديث، دروزة عزّت، ج 6، ص 474

ويصور الله سبحانه جدال إبراهيم عليه السلام مع قومه حيث يقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَأَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)﴾ (الأنبياء: 51-67)

وتوضح الآيات الكريمة، كيف يبدأ النبي دعوته قومه بالجدل، ليس لأنه يحب الجدل ويفضله، أو لأنه جاء ليجادل، لكنه أسلوبه في ابتداء الدعوة بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وهو يرى عليه السلام أن ابتداء دعوته بلفت أنظارهم إلى بطلان آلهتهم المزعومة وسخافتها، ليتخذ من تشكيكهم في آلهتهم تلك قاعدة ينطلق منها إلى تعريفهم برب العالمين، فيكون السبيل إلى قلوبهم أيسر وأسهل.

ويبدأ الرسول كلامه لقومه بسؤالهم: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ و" التمثال: الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى، مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به"⁽¹⁾، وسماها تماثيل ليضعها في مكانها ويحجمها بحجمها، فلم يصفها بآلهة، وينطوي هذا السؤال الاستنكاري على كثير من التحقير والتقليل من شأنها، بل ومن شأن قومه العاكفين لبضعة تماثيل من الحجارة، وتنبيهه إلى ضرورة التأمل في شأنها وأنها لا تعني عنهم شيئاً⁽²⁾، فجمع في سؤاله بين التقليل من مكانة آلهتهم ومن عقول قومه العاكفين على حجارتهن الصماء.

(1) البحر المحيط في التفسير، للأندلسي، ج7، ص440

(2) انظر: التحرير والتتوير، لابن عاشور، ج2، ص1591

ولربما يتضح أثر هذا الجدل، وهذا السؤال الاستكاري في جواب قومه المباشر عليه، فصدمتهم من السؤال حجبت عقولهم، فلم يحاولوا شرح طبيعة هذه الأشياء التي يعبدونها، أو أن يجدوا أي تبرير لما يفعلون، بل اكتفوا بالقول: وجدنا آباءنا لها عابدين، وكأنهم سلموا بكونها مجرد تماثيل لا قيمة لها ولا وزن إلا في عقولهم المريضة، فعزوا عبادتهم لها لا لفضل رأوه فيها ولكن لأنهم وجدوا آباءهم يعبدونها.

ولا يعطي النبي قومه فرصة لإعادة النظر فيما قالوا، بل يعلن لهم صراحة ضلالية ما هم عليه، وأن الله تعالى هو خالقهم وخالق السماوات والأرض لا آلهتهم المزعومة. "ويظهر ارتجاف عقيدتهم وشكهم فيها من أسئلتهم وإجاباتهم، فيبادرونه بعدما سفه آلهتهم وأنكرها وأنكر عليهم ضلالهم المبين بسؤاله: ما هذا الكلام الصادر عنك، أتقوله لاعبا هازلا، أم محقا جادا فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك" (1).

وبعد انتهاء الجولة الأولى من جدله مع قومه وحواره معهم، قرر عليه السلام أن يبدأ جولة أخرى أكثر تأثيراً وجدوى، فبعد أن قال لهم أن آلهتهم زائفة لا تضر ولا تنفع، قرر أن يريهم بأمر أعينهم ليدركوا بحواسهم إن لم يدركوا بعقولهم أن آلهتهم عاجزة عن كل شيء.

وانطلق النبي الكريم بعد أن تخلف عن قومه حيث خرجوا إلى أعيادهم بدعوى أنه سقيم، حتى إذا انفرد بآلهتهم المزعومة تلك، انطلق يضربها بفأسه حتى أتى عليها فلم يبق منها حجراً على حجر، إلا أكبرها، فقد أبقى عليه وعلق الفأس على كتفه، يهيب الأجرء لعظة وجدل جديد.

"قال النمروذ وحاشيته: فأتوا به على مرأى ومسمع من الناس في الملاء الأكبر، حتى يروه ويشهدوا عليه، أي على فعله أو قوله، وكان هذا الحضور في المحفل الجمهوري موافقا لرغبة إبراهيم في تبيان جهالة القوم وسوء إدراكهم" (2).

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 2، ص 1591

(2) التفسير الوسيط، للزحيلي، ج 2، ص 1593

وحين رجع قومه ليجدوا آلهتهم التي يدعونها ويحتمون بها محطمة مدمرة، ثارت نيران الشرك في عقولهم وقلوبهم، وعرفوا أن أحداً لن يقدم على تلك الفعلة إلا إبراهيم الذي لطالما أنكر آلهتهم ودعاهم لتركها، فيرسلون إليه وتبدأ المحاكمة، محاكمة نصبوها لإبراهيم ليحاكموه فإذا هو يحاكمهم، أرادوا إدانته فأراهم جهلهم بأعينهم.

ويسأل القوم إبراهيم، من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ يوجهون له بذلك أصعب الاتهام، لكنه يصدمهم بجوابه عليهم: فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون؟! " ويتضمن ذلك السؤال استفهاماً وملاماً واستنكاراً للفعل؛ ولذا قرن باسم خليل الله تعالى، ففيه لوم شديد، وفي ذكر الاسم نوع من تهويل فعله" (1).

ويضع إبراهيم قومه هنا في موقف صعب عسير، أمام أنفسهم وأمام عوام الناس، فبحسب اعتقادهم، لا يمكن لأي أحد أن يقدم على تكسير الآلهة إلا كبيرها القادر عليها، كيف يمكن لإنسان ضعيف أن يحطم الآلهة؟ ثم صدمهم بقوله: فاسألوهم إن كانوا ينطقون.

ولم يكن قصد إبراهيم صلوات الله عليه أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم(2)، " وقد كادهم بذلك، لعلهم يتذكرون أو يبصرون"(3).

وقد تكلف بعض المفسرين أكثر من اللازم في تأويل الكلام محاولين نفي أن يكون النبي قد كذب، مع أن سياق الكلام يوضح قصد النبي الكريم وقد فهمه كفار قومه تمام الفهم، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: 89). وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (الأنبياء: 63) وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة: ليس على وجه

(1) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 9، ص 4887

(2) انظر: الكشف، للزمخشري، ج3، ص124

(3) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، د. حكمت ياسين، ج3، ص 388

الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبتة، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتوني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأنته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر " قال أبو هريرة تلك أمكم يا بني ماء السماء" (1)

وقول الرسول الكريم " اثنتين في ذات الله" دليل على كونه لا يعد كذباً معيباً، وإنما هو التعريض والزام الحجة، حكمها حكم الحروب والمعارك.

" فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة، لا من ظلمتموه حين قلتم: من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين" (2).

وقد وجد قوم إبراهيم أنفسهم أمام حقيقة صادمة، رضخوا بعدها للوهلة الأولى لجدال إبراهيم لهم، فترجعوا عن اتهامهم لإبراهيم وهم يعلمون أنه الفاعل، ليس حياً في العدل ولا إقراراً للحق، ولكن حفظاً لماء وجوههم الذي سكبته إبراهيم بجداله أمام أعينهم.

" إن الصدمة تدفع إلى التفكير، وإذا كانت صدمة حق وإرشاد وتنبية، فإنها ربما تهدي، وكذلك كان هؤلاء، فقد صدموا بتكسير الأصنام وجعلها جذاذاً مما جعلهم يتفكرون ابتداء" (3).

لكنه العناد، يدفعهم مرة بعد مرة للنكوص والتراجع، ولم يخلوا أن يواجهوا النبي بالحقيقة التي تدينهم وتوضح ضلالهم بقولهم: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون!

وفي معنى " نكسوا على رؤوسهم" أنهم استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأن هؤلاء -مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق- آلهة معبودة، مضارة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام

(1) أخرجه البخاري عن محمد بن محبوب، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم (3358)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: 125)، ج4، ص 140.

(2) الكشف، للزمخشري، ج3، ص125

(3) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 9، ص 4888

مجادلين عنه، حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة، لفرط إطراقهم خجلاً وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم⁽¹⁾.

ولقد احتج إبراهيم عليه السلام على قومه بحجتين عقليتين مقبولتين وهما:

الأولى: قوله ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ (الأنبياء: 63) فلو كانت الأصنام تعقل، أو تتمكن من حماية نفسها وغيرها، لكان شأن الكبير حماية الأتباع والصغار.

الثاني: قوله: ﴿ **فَسأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ** ﴾ (الأنبياء: 63) ليقولوا على الفور: إنهم لا ينطقون، ولا ينفعون ولا يضررون، فيقول لهم: فلم تعبدونهم إذن؟ فتقوم الحجة عليهم⁽²⁾.

وهنا يصل النبي الكريم إلى ختام جداله معهم، موصلاً إياهم بألسنتهم وكلماتهم إلى حقيقة أن ما يعبدون أصم أبكم، لا يسمع ولا يعقل ولا ينفع ولا يضر، ولا يحمي حتى نفسه كي يحمي غيره، وينتهي جداله معهم بتقريعهم وتعنيفهم عليهم يرجعون: قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟

" والاستفهام إنكاري لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، وهم به جديرون، فأى عاقل يعبد ما دونه، وهو حي وهذا جماد لا يضر ولا ينفع وقد ترتب على هذا أن تأفف منهم، فدل هذا التأفف على النفور منهم عقلاً، فهي أحجار ولو كانت تماثيل منحوتة نَحْتًا جميلاً، فهي أحجار لا تزيد على ذلك، وعقلاً لأنها تعبد ممن هو خير منها خلقاً وتكويناً، وكان التأفف أيضاً ممن يعبدونها؛ لأنهم حطوا عقولهم عن مستوى التفكير، بل عن مستوى الإنسانية المدركة التي تقدر الأشياء وتعرف النافع والضرار"⁽³⁾.

وبعد أن سد عليهم كل الطرق وأفقدتهم كل الذرائع، لم يجدوا لديهم ما يكلمونه به، أو يدافعون به عن أنفسهم أو آلهتهم، فلم يجدوا أمامهم سبيلاً إلا أن يسكتوه رغماً عنه، بقتله حرقاً، كأنهم يريدون أن يحرقونه بالنار التي أوقدها في قلوبهم حين أراهم ضلالهم بأعينهم.

(1) الكشف، للزمخشري، ج 3، ص 125 (بتصرف)

(2) التفسير الوسيط، للزحيلي، ج 2، ص 1594 (بتصرف)

(3) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ج 9، ص 4890

المطلب السابع: الوعد والوعيد

وفي ختام مبحث أساليب الدعوة، تستعرض الباحثة أسلوب الوعد والوعيد، أسلوب يمتزج فيه الوعد بالخير والوعيد بالشر، والترغيب فيما تحب النفوس مع الترهيب مما تكره وتحذر، وقد لا تأتي بجديد في معرض الأفكار الواردة، لكن الجديد هو الجمع بين الأمرين في موقف واحد ووضع واحد.

وتعرج الباحثة على شيء مما جاء على لسان نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم لقومه، يأمر الله عز وجل رسوله الكريم بأن يخاطب قومه قائلاً:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) ﴾ (آل عمران : 31-32)

يتوجه النبي الكريم هنا إلى قومه مخاطباً إياهم، أن اتبعوني إن كنتم صادقين مخلصين في دعوكم أنكم تحبون الله وتريدون ثوابه العظيم، وتحذرون عقابه الأليم.

"وقيل أنها نزلت في وفد نجران لما قالوا انما نعبد المسيح حباً لله وقيل أنها نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال والله يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم ابراهيم واسماعيل فقال قريش إنما نعبدها حباً لله ليقربونا إلى الله زلفى فنزلت الآية"⁽¹⁾.

وقيل: " قال قوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد إنا نحب ربنا، فأنزل الله، فنزلت الآية، فجعل اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علماً لحبه وعذاب من خالفه"⁽²⁾.

ولعل الصد لم يكن من أولئك الذين يجهرون بالكفر والعناد، وإنما بمن تعالى في العلم، فادعى الإيمان والحب ثم أراد أن يعبد الله على طريقته دون اتباع.

(1) التفسير المظهرى، للمظهري، ج2، ص36

(2) الدر المنثور، لجلال الدين السيوطي، ج2، ص178

وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله⁽¹⁾.

"ومحبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة فأتبعوني حتى يصح ما تدعونه من إرادة عبادته، يرض عنكم ويغفر لكم"⁽²⁾.

فإن فعلتم كما أمركم، فثوابكم عظيم جليل، هو حب الله وغفرانه، وأي مأثرة وأي ثواب أعظم من هذا في الدنيا كلها، إذا أحبك خالق هذه الدنيا وتجاوز عن ذنوبك وغفر لك معاصيك، فإن تحقق ذلك للعبد في الدنيا فليس له في الآخرة - بإذن الله - إلا جنات النعيم.

وقد وضح رسول الله حسن الثواب لاتباعه في صدر الآية وعددها، لتطمئن به القلوب وتأنس به النفوس، ومن بعد اطمئنانها وأنسها يجيء دور تحذيرها وإنذارها إن هي تعالت وعاندت، في قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: 32)

والطاعة تكون في جميع الأوامر والنواهي، فيدخل في ذلك الطاعة في اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولاً أولاً، وطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث إنه رسول الله لا من حيث ذاته ولا ريب في أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها، ونفي المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم⁽³⁾.

وهنا إنذار واضح صريح لأهل مكة، إن فعلتم فلكم الثواب، فإن توليتم فأنتم من الكافرين، والله عز وجل لا يحب الكافرين.

"فَإِنْ تَوَلَّوْا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَاضِيًا، وَأَنْ يَكُونَ مُضَارِعًا بِمَعْنَى: فَإِنْ تَوَلَّوْا، وَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةٍ مَا يَقُولُ الرَّسُولُ لَهُمْ"⁽⁴⁾.

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج2، ص 32

(2) الكشاف، للزمخشري، ج 1، ص 353

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، ج2، ص 25

(4) المرجع السابق، ج1، ص 354

وتلحظ الباحثة هنا قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: 32) ولم يقل لا يحبهم - أهل مكة - لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر والكفر ينفي المحبة وأن المحبة مخصوصة بالمؤمنين⁽¹⁾.

(1) التفسير المظهرى، للمظهرى، ج2، ص38 (بتصرف)

المبحث الثاني

آثار الموعظة في القصص القرآني

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التوبة والإيمان

المطلب الثاني: الإعراض والصد

المطلب الثالث: الإخراج من الديار

المطلب الرابع: السجن ومحاولة القتل

المطلب الخامس: الحرق بالنار

المبحث الثاني: آثار الموعظة في القصص القرآني

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التوبة والإيمان

شاء الله عزَّ وجلَّ أن يفتح عقول بعض خلقه لدعوة الأنبياء والرسل إلى الله، وقد كان المهتدون لله أحاداً وجماعات على مر التاريخ، فمن الأنبياء من لم يؤمن به غير نفر قليل من قومه، ومنهم من لم يؤمن به غير أهله، ومنهم من آمن به جماعة من قومه، ومنهم من آمن به قومه أجمعين. ولقد قرن الله عزَّ وجلَّ الإيمان والإنابة إلى الله بالنجاة في الحياة الدنيا والآخرة، وقرن العناد والعصيان بالإهلاك والدمار.

ويتضح ذلك في السياق القرآني في أكثر من موضع في القرآن الكريم، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود: 58) وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (هود: 66)، وأمثلة كثيرة غير ذلك.

غير أن أكثر قصص القرآن لفتاً للانتباه في الإيمان والتوبة إلى الله، كانت قصة قوم يونس عليه السلام، يقول عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (98)﴾ (يونس: 96-98)

ويقرر الله سبحانه حقيقة عظيمة مهيبية، هي أن من سبق عليه القول في علم الله جلَّ وعلا أنه من الكافرين والمشركين فإنه باقٍ على كفره مصرّاً على شركه مهما كان من أمر ومهما جاءت من آيات، حتى يروا أن عذاب الله ووعيده حق، وأنه واقع بهم لا محالة، يرونه ويحسونه بعيونهم وجوارحهم، ويوجه

عزَّ وجلَّ كلامه لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، كي يطلعه على حقيقة الأمر ويهون عليه عنت الكفار وصلفهم، فلقد سبق عليهم القول وكانوا في علم الله كفاراً مشركين⁽¹⁾.

ثم يستثني الله عزَّ وجلَّ من تلك الأقسام التي لم تؤمن بكلام أنبيائها ورسلاها إلا بعد أن عاينوا العذاب معاينة مادية، قوم يونس عليه السلام.

فلقد آمن القوم وتابوا إلى الله وأنابوا إليه، وكان الجزاء العادل أن يعفيهم الله عزَّ وجلَّ من العذاب الذي كان معداً لهم وعلى وشك أن يببدهم كما أباد غيرهم، وأن يتمتعهم بعافيتهم ودورهم وحياتهم حتى أجل مسمى عنده.

"وذلك أنه لما بعث يونس عليه السلام إلى نينوى هي قرية من قرى الموصل كذبوه واستهزأوا به فوعدهم بالعذاب بعد ثلاثين أو أربعين فلما قرب الوعد الموعد خرج من الأفق سحب غليظ وغيم اسود ودخان مظلم شديد فغشى قريتهم فهابوا هيبة عظيمة فطلبوا يونس فلم يجده فأيقنوا صدقه وهموا إلى الإنابة والتضرع فلبسوا المسوح وخرجوا نحو الصحارى بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين والدة وولدها وحن بعضها إلى بعض فصاحوا وصرخوا وتضرعوا الى حيث قد علت الأصوات واختلطت الضجيج وأظهروا الندامة وأخلصوا التوبة والإنابة فرحمهم الله وكشف عنهم"⁽²⁾.

وفي ذلك فرق واضح بين إيمان قوم يونس عليه السلام وبين إيمان فرعون وجنوده، فأما قوم يونس فإنهم آمنوا بمجرد أن رأوا إشارات وقوع العذاب وأمارات القدرة الإلهية الغالبة على كل شيء، خرجوا عن آخرهم مؤمنين تائبين نادمين خاشعين، أما فرعون وجنوده فلقد رأوا البحر منشقاً بعصى موسى عليه السلام، وتلك ولا شك أمارة على قدرة إلهية خارقة، فلا سحر ولا كهانة يمكن أن يفعل ذلك، لكنهم مع ذلك تمادوا رغم إشارات الله لهم، وخاضوا البحر المنشق يطلبون موسى وقومه للقتل، فلما تجاهلوا الإشارة ووقع عليهم عذاب الغرق آمنوا فما نفعهم⁽³⁾.

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 8، ص 383

(2) الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، للنخجواني، ج 1، ص 343

(3) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 8، ص 384

"وقد كشف العذاب عنهم بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينه وبينهم إلا ميل، أو رأوا دلائل العذاب ولم يروه، ولو رأوه لما قبلت توبتهم كفرعون" (1).

"وقد انفرد قوم يونس بذلك الحدث، إذ لم يكن هذا في الأمم قبلهم لم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فثركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة فكشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم" (2).

والحكمة في عدم قبول إيمان اليأس كفرعون مثلاً، هو أن الناس إذا صاروا في تلك الحالة يضطرون إلى الإيمان ليخلصوا من العذاب، فلو قبل منهم لآمن كل أتباع الرسل المتقدمين، ولما أهلك الله منهم أحداً فنتعطل الحكمة المرادة من تعذيب الكافر وتنعيم المؤمن، لأنه إذا قبل إيمان الكافر عند آخر رمق من حياته يتساوى مع المؤمن بنعيم الجنة، وهذا مخالف لإرادة الله ووعدده ووعدده، ولهذا اقتضت إرادته الأزلية بعدم الانتفاع بإيمان اليأس، وعند نزول العذاب الذي لا محيد عنه لتحصل ثمرة التفاوت بين المؤمن والكافر، وكذلك لا تقبل التوبة في الآخرة مطلقاً لأنها من قبيل العمل المقرب إلى الله، ولا عمل في الآخرة وإلا لآمن كل كافر وتاب كل عاص، وانتفتت الحكمة من خلق النار والعذاب (3).

وتلك آية ودرس، يلقنه الله عزَّ وجلَّ لأهل مكة ويضرب لهم الأمثال، علَّمهم ينيبوا إلى الله ويتوبون إليه من قبل فوات الأوان.

فإنه عزَّ وجلَّ يقبل من عباده طالما أن أرواحهم لا زالت في أجسادهم من قبل أن يمسه العذاب، فالعذاب كان قد هبط على قوم يونس، حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل، فلما دَعَوْا كشف الله عنهم (4).

(1) تفسير القرآن، للعز بن عبد السلام، ج 2، ص 78

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 15، ص 207

(3) بيان المعاني، عبد القادر العاني، ج 3، ص 73 (بتصرف)

(4) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 15، ص 208

المطلب الثاني: الإعراض والصد

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: 116)

بذلك وصف الله عزَّ وجلَّ أكثر خلقه، فقد كانت الغلبة العددية على مر التاريخ للكافرين الضالين، ولذلك نجد أن قصص الإعراض والصد كانت غالبية في القصص القرآني، فأكثر الأقوام أعرضوا وصدوا عن سبيل الله مهما حاول معهم الأنبياء ومهما جاءتهم من الآيات، وما كانوا ليؤمنوا إلا حين يأتيهم العذاب، إيمان مضطر بعد فوات الأوان لا يسمن ولا يغني من جوع.

وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ نماذج من هؤلاء المعرضين الصادين لأهل مكة في القرآن الكريم، تخويفاً وإنذاراً، وقد تعرضت الباحثة في المطالب السابقة من الفصول السابقة إلى العديد من هذه النماذج كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط -عليهم السلام-، وترغب الباحثة في هذا المطلب أن تجمع بين العديد من هذه النماذج السالفة الذكر، لمعاينة أنواع العذاب التي وقعت عليهم ومقارنتها ومقارنة آثارها.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأَوْحِي إِلَيَّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)﴾ (هود: 32-37)

ويبين الله عزَّ وجلَّ إعراض قوم نوح وصلفهم، فهم بدون تردد أو خجل يجاهرون نبيهم بأن دعوته لم تؤثر فيهم قيد أنملة، وأنهم غير مستعدين للإيمان ولا للتفكير حتى فيه، ويرون أن عظته ودعوته إنما

هي مجرد جدال لا يجدي، وأنهم ملوا هذا الجدال العقيم في نظرهم، وبلغوا في الإعراض حداً طلبوا فيه من نبيهم أن يوقع عليهم العذاب الذي ينذرهم به كأنهم لا يؤمنون بوجود الله أصلاً⁽¹⁾.

ولقد فطن النبي الكريم بعد طول دعوة في قومه أنهم إنما خُتم على قلوبهم وأنهم ليسوا أهلاً للإيمان، بل إن إعراضهم وصددهم جعلهم يتمادون في غيهم حتى أصبحوا وبالاً على غيرهم ليس على أنفسهم وحسب، يقفون أمام من هم بالإيمان أو فكر فيه، ولذلك كله دعا نوح عليه السلام على قومه بالهلاك، وقد يبدو الأمر مستغرباً للوهلة الأولى، لأن الأنبياء رحماء بأقوامهم مشفقون عليهم، غير أن توصل النبي بالهدى الإلهي إلى حقيقة أن قومه ممتنعون عن الإيمان مختوم على قلوبهم، حتى يصبحوا أداة لصد غيرهم واعتراضهم عن الإيمان بالله، دفعه لأن يدعو عليهم فتكون فسحة لعباد الله المؤمنين.

وقد ذكر الله عز وجل ذلك على لسان نبيه في قوله: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) ﴾ (نوح : 26-27)

وقد أجاب الله هواجس عبده ورسوله، وهمومه التي أثقلتها بإعراض قومه، فأخبر نبيه لما استعجل القوم نعمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم دعوته: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح: 26)، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ (هود: 36) فلا تحزن عليهم ولا يهمتك أمرهم⁽²⁾.

" فقد انتهى الإنذار، وانتهت الدعوة، وانتهى الجدل! فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد. ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحذ واستهزاء ولا تحس بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم دع أمرهم فقد انتهى " ⁽³⁾.

(1) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 12، ص 61.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 4، ص 319

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج4، ص 1876

ثم يصدر الله كلمته التي لا ترد بأنه معاقبهم بالغرق، ويقطع كل طريق للعودة عن الكلمة الإلهية بأمر نبيه بألا يخاطبه في أحد من أولئك الظالمين، لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم، فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء⁽¹⁾.

ولا شك أن قوم نوح نموذج فريد من نماذج الصد والإعراض، فما من قوم مكث فيهم نبيهم قرابة الألف سنة يدعوهم ثم يعرضون إلا هم، ولذلك كان عقابهم عند الله فريداً، بل كان آية للخلائق أجمعين.

ومثال آخر يسوقه القرآن الكريم على الأمم الهالكة في قوله سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَوَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نَذِيرًا (40)﴾ (الفرقان : 38-40)

ويتضح من سياق الآيات أن الجزاء العادل كان دائماً هلاك في الدنيا وفي الآخرة عذاب شديد، مثال ذلك أصحاب الرس وهم أصحاب قصة "يس" أهل أنطاكية، والرَّسُّ بئرٌ بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النَّجَّارَ مُؤْمِنَ آلِ "يس" فَنَسَبُوا إِلَيْهَا⁽²⁾.

ولأنه عزَّ وجلَّ عادل تمام العدالة، ما كان ليهلك أحداً من قبل أن يسوق له الأمثال والدلائل والبراهين، فإذا أصر قوم على عنادهم فإنما يعاندون ويتكبرون مع علمهم في باطن نفوسهم بأنه الحق، فاستحقوا حينها العذاب والهلاك.

ومثال ذلك ما وقع بقوم صالح عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68)﴾ (هود: 66-68)، ولا شك أن العذاب الذي وقع عليهم كان مريعاً مهلكاً حتى كان للناس من بعدهم آية، فعذابهم كان صيحة مهلكة قضت عليهم وأفتتهم عن آخرهم، كأنهم لم يكونوا يوماً شيئاً مذكوراً.

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج 4، ص 1876

(2) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 3، ص 13 (بتصرف)

وقد نجى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك، فحفظتهم رحمة الله؛ لأنهم آمنوا بما نزل على نبيهم من منهج، ولم يُعانِ المؤمنون بالرسالة ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة والعذاب الأليم.

" ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (هود: 66) وهو خطاب لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه، فالحق سبحانه قادر يأخذ كل كافر، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء، وفي هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽¹⁾.

ومثلهم قوم عاد في قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَّكَ تَهْتَدُ فِيهَا وَتَتَّبِعُهَا وَتُتَّبِعُهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) ﴾ (هود: 58-60)

وقد لقي قوم عاد نفس المصير الأليم، بعدما أعيوا نبيهم وأعرضوا عما جاءهم من الآيات واتهموه بأنه إنما أصابه مس من آلهتهم المزعومة، ولم يرعهم ولم يخفهم إنذاره ووعيده، فجاءهم ما لم يكونوا يحذرون، وأبادهم كأن لم يكونوا، ولم تنته مأساتهم عند ذلك وإنما ينتظرهم في الآخرة عذاب أدهى وأمر.

(1) تفسير الشعراوي، لمحمد متولي الشعراوي، ج11، ص 6543

المطلب الثالث: الإخراج من الديار

من الطرق التي حاول بها العاصون أن يتخلصوا من الداعي إلى الله، غير القتل أو الحرق أو السجن، كان النفي، الطرد من الديار والإخراج من الأهل والعشيرة، وتلك عقوبة أليمة يتجرعها الداعي إلى الله بلا شك لأنها تنتزع الإنسان من الأرض التي عاش فيها وألفها حتى أصبحت جزءاً من كيانه وشخصيته. ولعل أشهر قصص النفي والإخراج من الديار، كانت في نبيي الله محمد ولوط عليهما الصلاة والسلام، وقد ورد ذكر ذلك في غير موضع من القرآن الكريم، مثال ذلك قوله عز وجل:

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْطِئُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) ﴾ (الأعراف: 80-84)

ويتضح من سياق الآيات ما كان من احتجاج لوط عليه السلام على قومه ووعظه لهم، فهو يوضح لهم قبح وقذارة ما يفعلون بأنهم كانوا الأوائل في هذه القذارة، إذ لم يخطر على قلب أحد قبلهم أن يفعل فعلهم، بإتيانهم الرجال لغرض الشهوة وترك النساء، فما "رئي ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط"⁽¹⁾، معلقاً على فعلهم بأنهم مسرفون في طغيانهم ووقاحتهم، أي: متعدون من الحلال إلى الحرام⁽²⁾.

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقييد، واستفهام إنكار، فلم يقل لهم: إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة، واستنكار فطري، ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا

مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: 80]

وقد "جىء بها تأكيداً للإنكار السابق، كأنه وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فانه أسوأ،، وفى إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ"⁽³⁾.

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج12، ص 548

(2) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج1، ص 530

(3) روح البيان، للمولى أبو الفداء، ج3، ص196. (بتصرف)

"وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكارياً ليحرجهم، لأن العقل الفطري يأبى هذه العملية: أي أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستنكرة؛ لكنهم فعلوها، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهبها النفس غير السويّة، ولكنها عملية فذرة تأبأها الفطرة السليمة" (1).

وقد ذكرت الباحثة سابقاً ما كان من النبي الكريم تجاه قومه وما كان من قومه تجاهه، والأساليب التي اتبعتها في دعوتهم ومثابرتة في محاولة هدايتهم.

وترغب الباحثة في هذا المطلب أن تركز على ما كان من قومه تجاهه، فصرف قومه لم يقف عند حد الصدود والعناد، وإنما امتد إلى محاولتهم إنزال العقوبة بنبيهم، بطرده من دياره، عقوبة له على جريمة العفة والعظة!

ويبدع الأسلوب القرآني في توضيح مدى صلفهم وعنتهم، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: 82) إذا، فقد وصل الأمر بأولئك الجاحدين إلى درجة قلب الموازين وتغيير المفاهيم، فقد تشبعوا بالفاحشة وتعمقوا في الفجور إلى درجة أنهم يأتون الفاحشة، ثم لا يخلون من فعلتهم بل ويزيدون على ذلك توعد من نفر منها ودعاهم إلى تركها.

"وفي قوله "أخرجوهم" فقد كان جواب قوم لوط للوط، إذ وبّخهم على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حرم الله عليهم من العمل الخبيث، إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله، ولذلك قيل: "أخرجوهم"، فجمع، وقد جرى قبل ذكر "لوط" وحده دون غيره.

وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى: أخرجوا لوطاً ومن كان على دينه من قرينكم فاكتفى بذكر "لوط" في أول الكلام عن ذكر أتباعه، ثم جمع في آخر الكلام، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (الطلاق: 1)" (2).

وفي قولهم "يتطهرون"، قيل يتحرجون، فقد عابوهم بغير عيب، وذنمهم بغير ذم (3).

(1) تفسير الشعراوي، للشعراوي، ج7، ص4225

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 12، ص549

(3) انظر: المرجع السابق، ج12، ص 550

وكما هي سنة الله في أنبيائه وأقوامهم، نجى الله عزَّ وجلَّ نبيه الكريم ومن آمن معه من أهله إلا امرأته التي شاركت قومها الفجور والعناد، فكانت بذلك خاتمة لنبي الله بقوله جلَّ وعلا: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحریم: 10)

"وفي قوله " من الغابرين" قيل: أي من الباقين، كانت من الباقين قبل الهلاك، والمعمرين الذين قد أتى عليهم دهرٌ كبيرٌ ومرَّ بهم زمن كثيرٌ، حتى هرمت فيمن هرم من الناس، فكانت ممن غبر الدهر الطويل قبل هلاك القوم، فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب"⁽¹⁾.

ثم يدعو جلَّ وعلا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وقومه من ورائه أن يتأملوا جزاء الظالمين الذي وقع على قوم لوط بأن خسف بهم الأرض، وأمطرهم بحجارة من سجيل⁽²⁾ في عقاب قليلاً ما أصاب غيرهم من العالمين.

ولقد دعا الله سبحانه أهل مكة أن يأخذوا العظة مما وقع بقوم لوط أكثر من مرة في القرآن الكريم، كما جاء في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوًّا أَلْفَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: 40) وفي قوله: ﴿ وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138) ﴾ (الصافات 137-138) ولا شك أن في ذلك إشارة إلى عظم ما وقع بهم من عذاب، حتى أن أثره بقي بعدهم آلاف السنين.

ولقد تجرع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارة الإخراج من الديار إذ وعظ قومه ونبههم لما هم فيه من بوار ودعاهم لما يحييهم، لكنهم أبوا إلا العناد والفجور حتى دفعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعا لترك بلده ومسقط رأسه، وقد بين الله جلَّ وعلا هذا المعنى في غير موضع في القرآن الكريم، لعل أوضحها كان في قوله: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 40)

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 12، ص 553

(2) انظر: المرجع السابق، ج 12، ص 553

"وكان هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر، وحمارة القيظ، وقد لبي المؤمنون دعوة رسولهم صلى الله عليه وسلم لقتال الروم، وصبروا على الشدائد، والمتاعب وبذلوا الكثير من أموالهم، ولم يتخلف منهم إلا القليل. أما المنافقون وكثير من الأعراب، فقد تخلفوا عنها، وحرصوا غيرهم على ذلك"⁽¹⁾.

ولكي يؤدب الله عزَّ جلَّ صحابة نبيه صلى الله عليه وسلم، أنزل الآية الكريمة لتكون إعلاناً من الله لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه، وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، ولسان حال الوحي يقول لأصحاب النبي أن اعلموا أن الله سينصره بقدرته النافذة، كما نصره، وأنتم تعلمون ذلك، وقت أن أخرجته الذين كفروا من مكة ثاني اثنين أي: أحد اثنين، والثاني: أبو بكر الصديق، رضى الله عنه⁽²⁾.

وتميل الباحثة إلى أنه لا يمكن أن يُتصور أن خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة كانت اختياراً لا اجباراً، فقد كان الخروج نتيجة طبيعية لما أقدم عليه المشركون من تعذيب الرسول وصحابته المؤمنين، بل وقرارهم النهائي في دار الندوة بقتل الرسول وتقريق دمه بين القبائل.

ولذلك أسند سبحانه الإخراج إلى المشركين مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خرج بنفسه بإذن من الله، تعالى، لأنهم السبب في هذا الخروج حيث اضطره إلى ذلك، بعد أن تأمروا على قتله⁽³⁾. وفي قوله تعالى على لسان نبيه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40)، ذلك أن أبا بكر وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، أحس بحركة المشركين من فوق الغار، فخاف خوفاً شديداً لا على حياته هو، وإنما على حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم منه ذلك، أخذ في تسكين روعه وجزعه وجعل يقول له: لا تحزن إن الله معنا⁽⁴⁾.

(1) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج6، ص287

(2) انظر: المرجع السابق، ج6، ص288

(3) انظر: المرجع السابق، ج6، ص291

(4) انظر: المرجع السابق، ج6، ص291

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت. يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ليا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا⁽¹⁾.

ثم يختم الله عزَّ وجلَّ ما قصَّ من قصة النبي وصاحبه في الغار بالسكينة التي أنزلها على قلب النبي وصاحبه في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: 40) وذلك بيان لما أحاط الله به نبيه من مظاهر الحفظ والرعاية والطمأنينة التي استقرت في قلب النبي صلى الله عليه وسلم فجعلته لا يبالي بجموع المشركين المحيطين بالغار، لأنه واثق بأنهم لن يصلوا إليه⁽²⁾.
" ويعود الضمير في ﴿سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ يعود على (أبي بكر) لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم تنزل معه سكينة " ⁽³⁾.

ولقد كان ذلك كله درس لمن تخلف عن رسول الله بل ولصحابته أجمعين، أن نفورهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أو تقاعسهم إنما هو شأنهم هم، فالله ناصر عبده متكفل بذلك أياً كانت الظروف.

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة، ج6، ص83، وأخرجه مسلم في كتاب (فضائل الصحابة)، ج7، ص 108

(2) انظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج6، ص 291

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج4، ص155

المطلب الرابع: السجن ومحاولة القتل

لا يخفى على أي باحث في القرآن الكريم ما لحق الأنبياء عليهم السلام جراء دعوتهم إلى الله من ألوان العذاب والأهوال، تحملوها وصبروا عليها في سبيل الله، يبتغون منه الأجر ويلتمسون منه المعونة، ولقد ذاق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من قومه ألوانا من التعذيب وتوجيه الإهانات حتى سكبوا أمعاء البعير على رأسه وهو ساجد لربه، ورموه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، حتى انتهوا إلى محاولة قتله نائماً في بيته.

ولقد ساق الله جلّ وعلا العديد من قصص الأنبياء الذين ذاقوا ألوان العذاب في سبيل الله تعزية لنبيه الكريم ودروساً للمؤمنين⁽¹⁾، ولعل قصة يوسف عليه السلام في تعرضه أولاً لمحاولة القتل ثم البيع كعبد، ومن بعدها السجن والعذاب بسبب امرأة عزيز مصر، من أوضح القصص على ما يعانیه الأنبياء من ابتلاءات، ولم يثنه ذلك كله على ألمه وشدته أن يتابع مسيرته في سبيل الله غير عابئ بما كان يلاقى، مخلصاً الدين لله، حتى مكنه الله في الأرض كما أعد له في الآخرة أجراً عظيماً.

ويسوق الله عزّ وجلّ قصته عليه السلام حيث يقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَدِّينَ (7) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسَلْنَا مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ

(1) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج 6، ص 201

عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) ﴿ (يوسف: 7-17)

ويبدأ عز وجل كلامه بالإشارة إلى أن القصة الواردة إنما هي رد على من سأل الرسول عن يوسف عن اليهود⁽¹⁾، ويبدأ في بيان ما أصاب أخوة يوسف من داء الأمم السابقة واللاحقة ألا وهو الحسد تجاه أخيهم الذي ميزه الله عنهم بنور النبوة، الذي كان له أمارات وإشارات منذ طفولته الناعمة، فملك على أبيه يعقوب قلبه حتى ظهر منه الحب ليوسف أكثر مما ظهر لغيره من أخوته⁽²⁾.

غير أن أخوة يوسف وأبناء خالته "ليا" لم يرحموا الطفل الصغير ولا أخاه من أمه "راحيل" خالتهم، فقد تملك الحسد والغيط قلوبهم حتى حولهم إلى وحوش كاسرة يهمون بأخيهم الصغير أن يقتلوه فريداً وحيداً في بئر بعيدة، ولا يكادون يراعون لقلب أبيهم الشيخ المسكين أي حرمة. ليس مهماً عندهم ما يمكن أن يذوقه ذلك الطفل الصغير من ألم القتل وعذاب الوحدة في بئر بعيدة لا يفصل بينه وبين الموت إلا بضعة خطوات، ولا يهم ما يمكن أن يلاقي أبوهم تبعاً لذلك من ويل وعذاب، المهم عندهم أن يفوزوا بالحظوة عند أبيهم فيكونوا هم المقربين المفضلين⁽³⁾.

ويطلعنا الله عز وجل على مدى جحود أولئك الخاطئين وجبروتهم في ظلمهم لأنفسهم، في قوله: ﴿ ائْتَلُوا يَوْسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (يوسف: 9) فقد أجمعوا أمرهم على القتل، أو رمي الطفل في البرية وهو ما يساوي القتل، حتى إذا تحقق لهم ما يتمنون، كانوا بعدها قوماً صالحين بتوبتهم من الجرم الذي هم على وشك القيام به، وتلك أعلى درجات الجحود، بأن يمارس العاصي الذنب وهو يعرف حجمه ومدى سوءه ثم ينوي أن يتوب أو أن يتظاهر بعدها بالتوبة.

(1) انظر: الكشاف، لأبي إسحاق، ج 5، ص 199

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 13، ص 17

(3) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 180

ويخوض الأبناء العصاة جدلاً مع أبيهم الشيخ الشفوق في محاولة إقناعه بأن يرسل معهم يوسف، وهو يمتنع عليهم لما قرأ وهو نبي الله صافي البصيرة في عيونهم من أمارات الحسد والكره لأخيهم خوفاً من أن يصيبوه بمكروه.

ولحكمة أرادها الله أرسل النبي الكريم معهم يوسف أخاهم، ليلقوا به دون أي شفقة في بئر سحيقة بقصد قتله من الخوف والرعب أو أن يلتقطه بعض السيّارة ماري الطريق من المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فينستر خبره إن كُنْتُمْ فاعِلِينَ⁽¹⁾.

" فأخرجوه وبه عليهم من الكرامة، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يجد منهم رحمة، فضربوه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويقول: يا أبته يا يعقوب، لو تعلم ما يصنع بابنك هؤلاء الأبناء.

فلما كادوا ليقتلوه قال يهودا: أليس سألنا أبانا موتقاً ألا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فجعلوا يدلونه في البئر، فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه، ردّوا عليّ القميص أتواري به في الجب، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك، قال: إنّي لم أر شيئاً"⁽²⁾.
وبصر الأبناء العصاة على ما هم عليه من ضلال " فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيه فقام عليها، فلما ألقوه في الجب جعل يبكي فنادوه فظن أنّها رحمة أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه فقام يهودا فمنعهم وقال: قد أعطيتموني موتقاً ألا تقتلوه، وكان يهودا يأتيه بالطعام"⁽³⁾.

غير أن أولئك العصاة قد وصلوا حداً غير معقول من العنت والفجور، فبعد أن شاء الله والنقط بعض السيارة أخاهم الطفل من البئر، تدافعوا بسرعة خشية أن يشي الطفل بأخوته وما فعلوه به، أو أن يكشف نسبه فتطير الأبناء إلى أبيهم، فادعوا أنه عبد لهم، وباعوه بثمن وصفه جلاً وعلا بأنه بخس، دراهم معدودة.

(1) انظر: الكشف، لأبي إسحاق، ج 5، ص 200

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 12، ص 209

(3) المرجع السابق، ج 12، ص 209

ويشاء الله عزَّ وجلَّ أن ينجي نبيه من محاولة القتل الآثمة، وأن يبنتليه بالعيش في قصر عزيز مصر كعبد، قذف الله في قلب العزيز وزوجته حبه فقررا الاحتفاظ به كأنه ابن لهما في قصرهما، لكن حياة الأنبياء على هذه الأرض لا تطيب، فهم من بلاء إلى بلاء ومن صبر إلى آخر.

ويشاء الله أن يملك يوسف على زوجة العزيز قلبها، حتى ذهب بعقلها وشغفها حباً، ويروي عزَّ وجلَّ تلك الحادثة وما آلت إليه الأمور بعدها فيقول:

﴿ وَرَاودَتْهُ النَّيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾ (يوسف: 23-35)

وعلى الرغم من كون الرسول الكريم يعيش بلاءً كبيراً، بكونه عبداً في القصر العزيز، ناهيك عن فقدته لأبيه النبي يعقوب عليه السلام، إلا أن الله عزَّ وجلَّ ابتلاه بامرأة العزيز التي أحبته وراودته عن نفسه، غير أنه بأخلاق النبي الكريم أبي أن يعصي ربه، وأبى أن يخون من رياه واعتنى به حتى كبر واشتد⁽¹⁾.

(1) انظر: التحرير والتتوير، لابن عاشور، ج 12، ص 251

وعلى الرغم من ثبوت براءة النبي الكريم من تهمة الاعتداء على زوجة العزيز كما بدا واضحاً من سياق الآيات، إلا أن الانتصار لكرامة الجناة حين يكونوا من عليّة القوم كان أولى، فقرروا سجنه بجرم لم يرتكبه، كي يلاقي ما شاء الله له أن يلاقي في ذلك السجن.

" ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ أَيُّ الْعَزِيزِ وَأَصْحَابِهِ، فِي الرَّأْيِ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ، وَهِيَ قَدْ الْقَمِصَ مِنْ دَبْرٍ وَخَمَشَ فِي الْوَجْهِ وَتَقَطَّعَ النَّسُوءَ أَيْدِيَهُنَّ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ يَعْنِي إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي يَرُونَ فِيهِ رَأْيَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَالَتْ لِرُجُوعِهَا: إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْعِبْرَانِيَّ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ، يَعْتَذِرُ إِلَيْهِمْ وَيُخْبِرُهُمْ أَنِّي رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَعْتَذِرَ بِعَذْرِي، فَلَمَّا أَنْ تَأَذَّنَ لِي فَأَخْرَجَ فَأَعْتَذَرَ، وَأَمَّا أَنْ تَحْبِسُوهُ كَمَا حَبَسْتَنِي، فَحَبِسَهُ بَعْدَ عِلْمِهِ بِبِرَائَتِهِ، وَذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ الْحَبْسَ تَطْهِيراً لِيُوسُفَ مِنْ هَمَّتِهِ"⁽¹⁾.

وترى الباحثة أن من أهم الدروس التي على كل باحث أن يعيها في قصة يوسف عليه السلام، ما وقع من أمر الاثنين الذين فسر لهما نبي الله رؤياهما، فلما علم بما علمه الله أن أحدهما خارج من السجن، وهو ساقى الملك، أراد منه أن يذكر ما حدث له من ظلم عند الملك لعله يخرج من ذلك الظلم القاسي الذي يعانیه فقال له: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ.. ﴾ (يوسف: 42) ، وكان ذلك الابتلاء أكبر الابتلاءات وأقساها على نفس النبي الكريم، فقد فطن إلى أنه حين أراد أن يستعين بالملك فقد نسي ربه: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ (يوسف: 42)، الله الذي لا ينبغي أن يدعو غيره، فكان جزاؤه غير ألمه ولومه نفسه على ما فعل شديداً، ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ، وقد ورد عن النبي أنه لولا كلمة يوسف تلك ، ما لبث في السجن طول ما لبث⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، الكشاف، لأبي إسحاق، ص 213

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 16، ص 112.

المطلب الخامس: الحرق بالنار

تتطرق الباحثة في هذا المطلب إلى ابتلاء عظيم آخر امتحن الله عزَّ وجلَّ به قلب أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد عظته لقومه المتجبرين، وحين يُذكر إبراهيم عليه السلام في سياق الابتلاءات، لا بد وأن يخطر في بال القارئ ابتلاء الحرق بالنار، ذلك الذي لم يحدث لأحد قبل أبي الأنبياء ولا بعده، حتى كان علامة مميزة لنبي الله وابتلائه العظيم.

وقد عرضت الباحثة قبل ذلك في هذه الرسالة دعوة نبي الله إبراهيم أكثر من مرة، مرة مع قومه ومرة مع أبيه آزر⁽¹⁾، ونركز في هذا المطلب على ما وقع على نبي الله جراء دعوته سواء أبيه أو قومه، لمعاينة ما يكابد الأنبياء من متاعب وآلام في سبيل دعوتهم إلى الله.

وقد وردت قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام ومحاولة حرقه بالنار في كثير من مواضع القرآن الكريم، ومثال ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)﴾ (الصافات: 97-98).

وقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)﴾ (الأنبياء: 66-72) فبعد أن دار بين النبي الكريم وأبيه من جهة، وبين النبي وقومه من جهة أخرى جدال مطول مدعوم بالتمثيل والتوضيح، والتذكير والتنبية، والترغيب والترهيب، اصطدم أخيراً النبي الكريم مع قومه الكافرين المتكبرين، وكان لا بد من المواجهة، فيلقي عليهم أشد اللوم وأعنفه لعبادتهم أصنام وحجارة لا تنفع ولا تضر، بل ويوبخهم هم وآلهتهم المزعومة بلفظة " أف"، وهي لفظة تقال عند المستفترات من الأشياء فيستعار ذلك للمكروه من المعاني⁽²⁾، متحدياً إياهم بأنه لا يخشاهم لا هم ولا آلهتهم ولا يقيم لها وزناً.

(1) انظر: موعظة إبراهيم عليه السلام لقومه، ص 31، موعظة الآباء للأبناء، ص 71.

(2) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للأندلسي، ج 4، ص 88.

وكان لابد من رد من قومه يتناسب وموقفه المتحدي الهازئ بهم وبآلهتهم، ويتناسب مع جبروتهم وكفرهم كذلك، فكان الحكم النهائي بإلقائه في النار، ليقتل حرقاً، جزاءً له على تسفيههم هم وآلهتهم، وقتلاً للدعوة الجديدة قبل أن تستشري في الناس فيفقدون ملكهم وسلطانهم الدنيوي الزائف.

ويدخل أبو الأنبياء النار التي أوقدوا له ثابت الخطى واثقاً بالله عز وجل أنه لن يخذله ولن يتخلى عنه، وأنه مظهره عليهم وإن تكاثروا عليه بالعدد والعدة، وكانت المعجزة الإلهية الخارقة التي تخلد ذكرها في العالمين، ويأمر الله تبارك وتعالى النار بقوله: ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الأنبياء: 69)، فكانت النار الحارقة بالأمر الإلهي الكُني برداً وسلاماً، لا تحرق ولا تفني ولا تضر، فكانت آية للعالمين، آية لقومه عساهم أن يرتجعوا، وآية للرسول الكريم ليريه الله آفاق قدرته ومدى عظمته، ولو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدة بردها، فلم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفنت، ظنت أنها هي تعنى، وما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه، وقد ورد في الأثر أنها بردت عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: وسلاماً، قال: لا تضرّيه⁽¹⁾.

"وفي قوله: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء: 70) ، لم يمكنهم الله سبحانه من مرادهم، وقد خسروا السعي والنفقة ، وهلكوا بإرسال الله عليهم البعوض، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغ النمرود بعوضة فأهلكته"⁽²⁾.

وتتجلى رحمة الله عز وجل في أبهى صورها، فبعد أن نجاه الله من كيد القوم المجرمين بمعجزة خارقة جمع له أهله ونجاهم وابن أخيه نبي الله لوط، وساقهم إلى الأرض المباركة، ثم وهبه من نسله إسحاق ويعقوب، وجعلهم أنبياء صالحين، وبارك له في نسله وكثره فكان أمة⁽³⁾.

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 18، ص 466

(2) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، ج 2، ص 55. (بتصرف)

(3) انظر: التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، ج 9، ص 919

وترى الباحثة أنه على كل داعٍ إلى الله أن يتأمل قصة إبراهيم مراراً وتكراراً، لكي يعلم ويتعلم أن البلاء في ذات الله ليس بحجمه ولا شكله ولا كبره مهما ظهر أنه عظيم، فالأمر كله بيد الله عزَّ وجلَّ، وليس شيء في الدنيا أكبر وأعظم من نار اجتمع قوم بأكملهم أن يوقدوها لكي يحرقوا فيها واحداً بعينه، فالأمر الإلهي ألغى كل ما خططوا وبدله وقلبه رأساً على عقب، فأصبح المطارد الوحيد منتصراً بإذن الله، والجمع المستقوي بالأسباب الدنيوية صار فريسة لدواب الأرض والبعوض، تلك هي قدرة الله التي لا تعلوها قدرة ومشيئته التي لا تعترضها مشيئة.

الفصل الثالث

نماذج للناجين بالموعظة والهاكين بالإعراض عنها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج الناجين بالموعظة

المبحث الثاني: الهاكون بإعراضهم عن الموعظة

المبحث الأول

نماذج الناجين بالموعظة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: سحرة فرعون

المطلب الثاني: آسيا زوجة فرعون

المطلب الثالث: أصحاب الأخدود

المطلب الرابع: أصحاب الجنة

الفصل الثالث

نماذج للناجين بالموعظة والهالكين بالإعراض عنها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج الناجين بالموعظة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: سحرة فرعون

يتحدث القرآن الكريم عن العديد من النماذج التي شاء الله لها أن ترى الحق وأن تهتدي فتنجو، فالله عز وجل قادر على كل شيء، وهو سبحانه يهدي من يشاء.

وترى الباحثة أن نماذج الكفر والإيمان في القصص القرآني تثبت أن المظاهر ليست حكماً على الإيمان والكفر، فلا القرابة من الأنبياء تكفي للإيمان ولا البعد عنهم كافٍ للكفر، فبينما كفر عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو لهب، وأبو إبراهيم وابن نوح وامرأة لوط فقد آمنت زوجة فرعون وآمن سحرته.

تستعرض الباحثة في هذا المطلب قصة جماعة شهيرة في القرآن، ذكرت خلال قصة موسى عليه السلام أكثر من مرة، وقد كانوا عنصراً أساسياً في قصته، وقد تطرقت الباحثة إلى قصتهم في هذه الرسالة قبل ذلك، وتبين أنهم كانوا آية إلهية في الإيمان والإذعان للحق حتى قال بعض السلف في وصفهم " أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء"⁽¹⁾.

فبعد أن كانوا عتاة جبارين، يسعون بالفساد في الأرض، وكانوا فوق كل ما امتلكوا من جاه ومال على وشك أن ينالوا خيراً دنيوياً عظيماً، بامتلاك الجائزة المالية الكبرى من فرعون إن هم هزموا موسى، إلى جانب القرية والزلفى⁽²⁾ من جناب ملك البلاد وفرعونها، كما جاء في الذكر الحكيم ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) ﴾ (الأعراف:

(114-113)

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 5، ص 305

(2) انظر: المرجع السابق، ج 3، ص 312

لكن إرادة الله غالبية، فأولئك النفر الذين كانوا على وشك أن يمتلكوا الدنيا بقرهم من فرعون، ويملاً الكفر والجبروت والكبرياء الزائف عقولهم وقلوبهم، تحولوا في لحظات من كفار عتاة إلى مؤمنين صادقين، بل ومجاهدين يتحدون أعتى مفسد على وجه الأرض، ويقفون في وجهه يدافعون عن إيمانهم حتى ضحوا بأرواحهم طائعين راغبين في سبيل الله، وجدوا الله فلم يعودوا يحفلون بما يفقدون بعد ذلك⁽¹⁾.

وقد وردت قصة سحرة فرعون في أكثر من سورة، غير أنها جاءت أكثر تفصيلاً ووضوحاً في سورة طه التي تكلمت مطولاً عن قصة موسى وبنى إسرائيل.

يقول عز وجل:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْفِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْفَى (65) قَالَ بَلْ أَلْفُوا بِإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) ﴾ (طه: 65-76)

يبدأ الله سبحانه قصة الحوار بين موسى عليه السلام والسحرة بسؤال السحرة للنبي الكريم من يكون الأول في إلقاء العصيان، "ودل ذلك على استعجال السحرة مسألة الإلقاء فبادروا موسى مسرعين بالسؤال، دل على أنهم أعدوها للإلقاء وكانوا يخشون أن يمر زمان تزول به خاصياتها فلذلك أسرعوا بإلقائها"⁽²⁾.

(1) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب، ج5، ص 2597

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 16، ص 258

ويرد عليهم الرسول الكريم رد الواثق بالله ﴿ قَالَ بَلْ أَلْفُوا ﴾ (طه: 66) "مقابلة أدبٍ بأدبٍ وعدم مبالاة بسحرمهم، ولأن يبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه"⁽¹⁾.

وقد أثبت الحق سبحانه وتعالى أن ما فعلوه لم يكن شيئاً مذكوراً، لم يكن إلا تأثيراً خادعاً على أبصار المتواجدين والتخييل لهم أن العصي تحولت إلى حيات، وحيات بالذات، لأنها لا يشبهها في شكلها من أنواع الحيوان سوى الحيات والثعابين⁽²⁾، وترى الباحثة أن ذلك دليل مادي على كون الأمر مجرد تخييل وخداع بصري بأساليب خاصة بهم، وإلا لكانوا حولوا العصي لأشياء ومخلوقات أخرى تختلف عن شكل العصي في هيئتها وبنيتها.

ويصف الله تعالى الشعور الذي انتاب نبيه موسى عليه السلام بـ ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ ﴾ (طه: 67) وهو إضمار واستشعار داخلي غير ظاهر، وكان خوفه عليه السلام من أن " يظهر أمر السحرة فيساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعباناً، لأنه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاقوه بالكثرة، أو خشي أن يكون الله أراد استدراج السحرة مدةً فيملي لهم بظهور غلبهم عليه ومداه لما تكون له العاقبة فخشي ذلك " ⁽³⁾.

ويطمئن الله عزَّ وجلَّ رسوله بأن مخاوفه ليست في محلها، وأمره أن يفعل ما أمره بإلقاء العصا وأن يتوكل عليه وأنه سيكون الأعلى، يفوقهم ويغلبهم ويظهر الله أمراً كان مفعولاً.

وبمجرد أن رأى السحرة ما آلت إليه عصا موسى عليه السلام، علموا أنه ليس سحراً، فالأمر ليس تخيلاً ولا خداعاً، إنما هو تغيير لطبيعة العصا بقدرة إلهية لا تجوز للبشر، ولأنهم رأوا الحق ظاهراً لا لبس فيه ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين لله معلنين تغلب موسى عليهم بقدرة الله وإيمانهم بأن ما جاء به موسى إنما هو من عند الله لا من عند نفسه، فهم لهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج 4، ص 32

(2) انظر: التحرير والتتوير، لابن عاشور، ج 16، ص 257

(3) المرجع السابق، ج 16، ص 259

هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مريّة فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله⁽¹⁾.

وتبدأ المواجهة بين فرعون والمؤمنين الجدد، ويلجأ فرعون إلى الحيلة والمخادعة في فرضه العقوبة على أولئك السحرة كي لا يضعف من هيئته أمام الجموع الحاضرة، ولم يشأ أن يعلن أن عقابه لهم إنما هو على إيمانهم بالله، بل أوهم الجموع أنه إنما عاقبهم لتسرّعهم بالسجود لموسى بدون إذن، "وأوهم أنهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرّعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته، ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأن موسى لم يأت بما يعجز السحرة إدخالاً للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات، وهذه شنشنة من قديم الزمان اختلاق المغلوب بارد العذر، ومن هذا القبيل اتهام المحكوم عليهم الحاكمين بالارتشاء، واتهام الدول المغلوبة في الحروب قواد الجيوش بالخيانة"⁽²⁾.

ويهدد الفرعون المتكبر الذي لا يشغل باله إلا أن يحافظ على ما أوتي من ملك وهيبة، دون أن يلقي بالاً لحق ولا حقيقة أولئك المؤمنين بالعذاب الشديد، بالصلب والنقطيع من خلاف، متوعداً إياهم بعذاب أشد وأقسى من العذاب الذي يحذرون من رب موسى وهارون عليهما السلام.

وتتضح علامات الإخلاص والصدق في الإيمان سريعاً في جواب السحرة، فيتحدون فرعون بأنهم لن يؤثره على ما رأوا من الآيات التي جرت بقدرة الله على يد موسى، ولا على ربوبية الله الذي فطرهم وخلقهم، "وقولهم: ﴿والذي فطرنا﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت"⁽³⁾.

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج5، ص 303 (بتصرف)

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج16، ص (263،264)

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 5، ص 304.

ثم يعلنون استخفافهم بعقابه بأنه مهما كان إنما هو قضاء دنيوي فإن ينتهي سريعاً، وذلك عين الإيمان واليقين، فما يشغلهم الآن ليس عقوبة تزول في دقائق أو ساعات، وإنما يسعون لحياة الخلود بالمغفرة من الله الذي عصوه بما أمرتهم أنفسهم وما أمرهم فرعون⁽¹⁾.

ويختتم الله عز وجلّ القصة بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)﴾ (طه: 74-76)

وقد تكون هذه الآيات قيلت على لسان السحرة أنفسهم كما جاء في بعض التفاسير، وترجح الباحثة أن هذه الآيات إنما هي آيات ساقها الله بين قصتي السحرة وخروج بني إسرائيل موعظة وتأبيداً لمقالة المؤمنين من قوم فرعون، ولم تأت على لسانهم هم، لأنه لم يرد ذكرها على لسانهم في موضع آخر في القرآن ذكرت فيه قصتهم⁽²⁾.

وتؤكد الباحثة في هذا المقام على ما كانت أشارت إليه سابقاً، ألا ينخدع الداعية إلى الله بالمظاهر، وألا يحكم على الأشياء بمنطق الدنيا فقط، فالله عز وجلّ قادرٌ دائماً على تبديل الأحوال وتغيير الأشياء، وأن يعلم أن مهمته كلها هي أن يبلغ حق التبليغ، ثم يتوكل على الله، فهو سبحانه حسبه ونعم الوكيل.

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج5، ص 304

(2) انظر: التحرير والتتوير، لابن عاشور، ج 16، ص 268

المطلب الثاني: آسيا زوجة فرعون

بعد أن استعرضت الباحثة أمر سحرة فرعون⁽¹⁾، تنتقل الباحثة في هذا المطلب إلى مثل آخر يضربه الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين في النجاة من الهلاك باتباع الداعين إلى الله، وتصديق الآيات التي يسوقها الله عزَّ وجلَّ على أيديهم، غير مكثرئين بما يمكن أن يواجهوه من الصعاب أو تؤول إليه مصائرهم حتى وإن كان الموت والقتل، مثل آخر له علاقة بنفس الطاغية فرعون، هو آسيا، زوجة فرعون.

يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (التحریم: 11)

شاء الله عزَّ وجلَّ أن يكون من حول الطاغية فرعون أمثلة عديدة للإيمان الخالص، الإيمان الذي يُعد مضرِباً للأمثال حتى يضربه الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن بعد السحرة يأتي دور الزوجة، التي وصلت بإيمانها حداً كرمها الله سبحانه من أجله من فوق سبع سماوات، حتى ذكرها في قرآنه الحكيم.

وقد ساق سبحانه هذا المثل في آية كريمة لحكمة يريدها، فهي وإن كانت تكريماً لآسيا زوجة فرعون وتخليداً لذكرها وذكرى إيمانها، إلا أنها طمأنة لجماعة المؤمنين حول الرسول الكريم كذلك، أولئك الذين لا تزال تربطهم بعض الأواصر بذويهم من الكفار، بأنه لا تزر وازرةٌ وزر غيرها.

وهذا مثل يضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرمهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى:

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (آل عمران: 28)، وفيها النهي للمؤمنين عن موالاته الكفار بسبب من الأسباب،

(1) انظر: سحرة فرعون، ص 150

وقيل: تجوز الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً، وخالف في ذلك قوم من السلف فقالوا: لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام⁽¹⁾.

وقد قيل: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بننبه⁽²⁾.

وترى الباحثة أنه ليس من المهم لموضوع البحث الخوض في أصول زوجة فرعون، من المصريين كانت أم من بني إسرائيل، وما هي صفتها، وأنها ليست في حاجة لملاحقة اختلافات المفسرين في ذلك، فالشاهد من قصتها هو الإيمان الخالص الذي تمتعت به رغم قربها الشديد من أعتى طاغية في الأرض بكونها زوجته.

" ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوجها فرعون فكانت مؤمنة برسالة موسى عليه السلام، وقد حكى بعض المفسرين أنها عمة موسى، أو تكون هداها الله إلى الإيمان بموسى كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي تقدم ذكره في سورة غافر، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم آسية " ⁽³⁾.

ويظهر مما تقدم مدى تقدم هذه المرأة الجليلة في الإيمان على العالمين، فضرب المثل بها للإيمان في القرآن عززه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: {كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام}⁽⁴⁾.

ولقد اطلعت آسية زوجة فرعون بقلبها على ما جاء به النبي الكريم، فأمنت وصدقت، وكان طبيعياً أن يأخذها الطاغية فرعون بالتهديد والوعيد، وكان طبيعياً كذلك أن تصر هي على إيمانها بعد أن تمكن

(1) نيل المرام في تفسير آيات الأحكام، للفتوحى، ج1، ص122

(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج8، ص 172 (بتصرف)

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 28، ص 377

(4) أخرجه البخاري عن آدم، عن شعبة، عن عمرو بن مرة الهمداني، عن مرة، عن أبي موسى الأشعري، رقم(3769)، كتاب: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: فضل عائشة رضي الله عنها، ج5، ص29

الحق من قلبها، فأنزل بها صنوف العذاب حتى علمت أنها مفارقة هذه الدنيا لا محالة، لتسارع في أن تطلب من ربها عزَّ وجلَّ بيتاً عنده تعالى في الجنة.

"والظاهر أن قولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ (التحریم: 11) مؤذناً بأن فرعون وقومه صدوها عن الإيمان به وزينوا لها أنها إن آمنت بموسى تضيع ملكاً عظيماً وقصراً فخيماً أو أن فرعون وعظها بأنها إن أصرت على ذلك تقتل، فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه لدفنه في وادي الملوك، ويؤيد هذا ما رواه المفسرون أن بيتها في الجنة من درة واحدة فتكون مشابهة الهرم الذي كان معداً لحفظ جنتها بعد موتها وزوجها" (1).

ولم يكن دليل إيمان آسية أنها رفضت كل الإغراءات فحسب، وإنما عززه ما تحملت من ويلات وعذاب لا يكاد يتخيله عقل، لكنه الإيمان حين يتمكن من قلب الإنسان يصنع المعجزات، فقد روي أنها كانت تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون، فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليهم فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أوثها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح (2).

وليس غريباً أن يعتني بها الحق سبحانه بهذا اللطف وهذه الرحمة، فقد اختارت آسية الجار قبل الدار بقولها ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ (التحریم: 11) ، وقد تيرأت إليه سبحانه من زوجها فرعون ومن عمله الضال بادعائه الألوهية من دون الله والإفساد في الأرض داعية الله أن يخلصها منه، دون أن تهتم لما يقع عليها من عذاب، حتى أنها كانت تضحك وهم يعذبونها لما أراها الله من مكانتها في الجنة، فيتعجب فرعون منها ويرميها بالجنون (3).

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج28، ص 377

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ج8، ص 172

(3) انظر: المرجع السابق، ج8، ص 172

وكأن الله جلّ وعلا قد قدر الخير والنعمة لهذه المرأة الجلييلة من قبل أن ينعم على موسى عليه السلام بالرسالة بوقت طويل، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾
(القصص:9)، وقد كان ذلك حين أمر الله تعالى أم موسى عليه السلام أن تضعه في تابوت - صندوق - وتلقيه في اليم، كي لا يقتله فرعون كما كان يفعل بمواليد بني إسرائيل الذكور، بعد أن رأى في المنام أن أحد أبناء إسرائيل ينزع ملكه عنه، وشاء الله أن يسير التابوت في النيل حتى وصل إلى أعتاب قصر فرعون.

فلما التقطه آل فرعون، حنن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجلييلة المؤمنة " آسية بنت مزاحم" وتوجهت لزوجها قائلة: أبقه لنا، لتقرّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولداً لنا، ونكرمه، ونجعله، فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرّة عين لها، وأحبته حباً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به⁽¹⁾.

وقد جاء أن آسية حين جاءت جواريتها بالتابوت وفي جوفه ذلك الرضيع - موسى عليه السلام - ألقى الله عزّ وجلّ عليه منها محبة لم يُلَقَ مثلها على أحد قط من البشر، فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبوه، فقالت للذباحين: اصبروا عليّ، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ولا ينقص، فآتي به فرعون فأستوهبه منه إياه، فإن وهبه لي فقد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أنهكم، فلما أتت فرعون به قالت: قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. فقال فرعون: (يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه)، وقد قيل أنه لو أقر بأن يكون قرّة عين له كذلك لهداه الله بموسى كما هدى به زوجته⁽²⁾.

ولا شك أن ذلك كله كان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾
(طه:39).

(1) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ج 1، ص 612 (بتصرف)

(2) بحر العلوم، للسمرقندي، ج 2، ص 396 (بتصرف)

المطلب الثالث: أصحاب الأخدود

تنتقل الباحثة بين نماذج الإيمان الصادق من أرض مصر إلى نجران من أرض اليمن⁽¹⁾، أمثلة يضربها الله لعباده المؤمنين لكي يتسلوا بها عما يجدون من ألمٍ وعذابٍ جزاء إيمانهم، ولا شك أن في ذكر الأمثلة فائدة عظيمة، يستشعر بها المؤمنون عظم هذا الإيمان وعظم أمره، فيهون عليهم ما يجدون من عذاب بعد أن يعاينوا ما تعرض له المؤمنون من قبلهم في سبيله وعانوا من أجله.

وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ أمر أصحاب الأخدود في قوله:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) ﴾ (البروج: 1-8)

يبدأ الله تعالى الآيات من سورة البروج بلفت أنظار ومسامع عباده إلى أهمية ما هم مقبلون على سماعه، لأن " في افتتاح السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده وإشعار بأهمية المقسم عليه، وهو مع ذلك يلفت ألباب السامعين إلى الأمور المقسم بها، لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرد الله تعالى بالإلهية وإبطال الشريك، وبعضها مذكر بيوم البعث الموعود، ورمز إلى تحقيق وقوعه، إذ القسم لا يكون إلا بشيء ثابت الوقوع وبعضها بما فيه من الإبهام يوجه أنفس السامعين إلى تطلب بيانه"⁽²⁾.

حيث يقسم الله عزَّ وجلَّ بالسماء، واصفاً إياها بروجاً تسكنها الكواكب، وباليوم الموعود، وشاهد ومشهود، وقد اختلف المفسرون في تفسير الشاهد والمشهود، فقد قيل أنه محمد وغيره من الأنبياء عليهم السلام، وقيل أنهما أمة محمد عليه الصلاة والسلام وسائر الأمم، وقيل غير ذلك⁽³⁾.

وتميل الباحثة إلى أن "المراد بالشاهد هنا: الحاضر في ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة، والرائي لأهواله وعجائبه، وأن المراد بالمشهود: ما يُشاهد في ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان"⁽⁴⁾.

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج4، ص 412

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 30، ص 237

(3) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 3، ص 515

(4) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 15، ص 344

وقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ (البروج: 4) جملة دعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، ومعنى ﴿ قُتِلَ ﴾ أي لُعن، وقد روي أن كل شيء في القرآن ﴿ قُتِلَ ﴾ فهو بمعنى لُعن⁽¹⁾. ثم يلقي الله عزَّ وجلَّ على مسامع عباده المؤمنين ما كان من أمر المؤمنين من قبلهم، كيف عانوا ويلات التعذيب وآلامه دون ذنب ارتكبه أو خطيئة قاموا بها، فما عانوا ما عانوا إلا لأنهم آمنوا بالله رب العالمين، ولسان حال الوحي يقول لهم: اعتبروا يا أيها المؤمنون، وتأملوا فيما وقع بالمؤمنين من قبلكم، واصبروا على ما أنتم فيه من عذابٍ فإن الله لا يضيع عباده المؤمنين.

اختلف الرواة في تعيين قصة أصحاب الأخدود المذكورة في الآيات المذكورة أعلاه، فقد ورد "الذين اتخذوا الأخاديد في ثلاث من البلاد بنجران، وبالشام، وبفارس، أما الذي بالشام ف (أنطيانوس) الرومي وأما الذي بفارس ف (بختنصر) والذي بنجران ف (يوسف ذو نواس)"⁽²⁾.

غير أن ما كان عليه جمهور المفسرين، ما جاء في سيرة ابن إسحاق⁽³⁾ من أن هذه القصة إنما كانت في نجران من أرض اليمن، وإنه كان ملك وهو ذو نواس له كاهن أو ساحر، وكان للساحر غلامٌ تلميذ، يعلمه السحر ليكون مكانه بعد موته، وكان الغلام يجد في طريقه إذا مشى إلى الكاهن صومعة فيها راهب كان يعبد الله على دين عيسى عليه السلام ويقرأ الإنجيل، وكان منعزلاً عن الناس مختفياً في صومعته.

وظهرت لذلك الراهب في قومه كرامات، وكان كلما ظهرت له كرامة دعا من ظهرت لهم إلى أن يتبعوا النصرانية، فكثرت المنتصرون في نجران وبلغ ذلك الملك ذا نواس وكان يهودياً وكان أهل نجران مشركين يعبدون نخلة طويلة، فقتل الملك الغلام وقتل الراهب وأمر بأخاديد وجمع فيها حطب وأشعلت، وعرض

(1) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 3، ص 515

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 30، ص 241

(3) ابن إسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، ولد في المدينة. يعتبر أول مؤرخ عربي كتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تنقل من المدينة إلى الإسكندرية إلى الكوفة إلى الحيرة واستقر في بغداد، مات سنة 151 هـ ودفن في مقبرة الخيزران. انظر: الأعلام، للزركلي، ج 6، ص 28

أهل نجران عليها فمن رجع عن التوحيد تركه ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار، فكان أصحاب الأخدود ممن عذب من أهل دين المسيحية في بلاد العرب⁽¹⁾.

وتمتلئ القصة المذكورة بأعاجيب من الأمثلة في الإيمان الخارق، فقبل أن يتأمل الباحث مدى إيمان هؤلاء الذين أحرقوا بالنار فداءً لإيمانهم، عليه أن يتأمل ما كان من ذلك الفتى المؤمن، الذي كان سبباً في إيمان أهل نجران.

والفتى كما تقدم كان تلميذاً لساحر الملك، لكنه اطلع على الحق الإلهي على يد ذلك الراهب فأمن بالله واعتنق التوحيد، وجرت على يديه المعجزات حتى أبرأ الأكمه والأبرص وشفى المرضى - بإذن الله - ، فحاول الملك قتله بالرمي عن جبل أو الإغراق كي يكون عبرة لغيره فلم يفلح، حتى قدم الغلام المؤمن نفسه قريباً لله رب العالمين، بأن دل الملك على كيفية قتله بإذن الله رب العالمين أمام الناس، فيكون ذلك برهاناً للناس على قدرة الله وعجز الملك⁽²⁾.

فقد روي أنه " قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: "بسم الله رب الغلام"، فإنك إذا فعلت ذلك قتلنتي، ففعل، ...، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرايت ما كنت تحذر؟! فقد نزل بك، قد آمن الناس كلهم"⁽³⁾.

ويحار المرء في وصف إيمان ذلك الفتى، حتى يقدم نفسه طائعاً قريباً لله رب العالمين، من أجل أن ينشر الإيمان بالله بين الناس، لكن التضحية لا تقف عند الغلام، بل امتدت لأولئك الذين كانوا يعبدون الملك والجوامد من دون الله منذ وقت يسير، فلما آمنوا ألقوا بأنفسهم في النار رافضين العودة إلى ظلام الوثنية والضلال.

(1) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 30، ص (241، 242)

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 8، ص 367

(3) المرجع السابق، ج 8، ص 367

فقد روي أن الملك بعد أن آمن الناس " أمر بأفواه السكك فخذت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأفحموه فيها، فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكانها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماء، فإنك على الحق"⁽¹⁾.
ويعبر الحق سبحانه الأحداث الأليمة التي وقعت للمؤمنين في زمن أصحاب الأخدود، للمؤمنين المقصودين بالموعة، ألا وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إمعاناً في تعميق أثر الموعة في قلوبهم وعقولهم.

ففي قوله تعالى: ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ ﴾ (البروج: 5)، وصف للنار بغاية العظم، وارتفاع اللهب، وكثرة ما فيها من الحطب، والقصد هو وصف النار بالشدة والهول، ثم بالغ تعالى في وصف المجرمين فقال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)﴾ (البروج: 6-7) أي حين هم جلوس حول النار، يتشفون بإحراق المؤمنين فيها، ويشهدون ذلك الفعل الشنيع، والغرض تخويف كفار قريش، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم، ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة أصحاب الأخدود وعيداً للكفار، وتسليّةً للمؤمنين المعذبين⁽²⁾.

ويستنكر الله تعالى ما كان من أمر أولئك المجرمين، بأن يأخذوا غيرهم بالعذاب من غير جرم ولا ذنب، في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (البروج: 8) "أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الذي لا يُضام من لاذً بجانيه، الحميد في جمعي أقواله وأفعاله، والغرض أن سبب البطش بهم، وتحريقهم بالنار، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام"⁽³⁾.

وترى الباحثة أن في هذه القصة دروساً عظيمة لكل داعية، أهمها، أن الإيمان الحقيقي لا يحتاج إلى زمن قل أو كثر للتمكن من نفس الإنسان، فالمؤمن إذا اهتدى للحق بنية خالصة وقلب مخلص لله، يتحول في ساعات معدودة - إن لم يكن أقل كما كان في قصة سحرة فرعون - إلى مؤمن مجاهد في سبيل الله، لا يتورع عن بذل نفسه التي بين جنبيه إرضاءً لله وطمعاً في ثوابه العظيم.

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 8، ص 367

(2) صفة التفسير، للصابوني، ج 3، ص 515 (بتصرف)

(3) المرجع السابق، ج 3، ص 516

المطلب الرابع: أصحاب الجنة

تختتم الباحثة هذا المبحث بوحدة من أشهر القصص القرآني على الإطلاق، كانت ولا تزال تشكل مثلاً قرآنياً ونموذجاً لكل من سولت له نفسه أن يمنع ما أعطى الله، وأن يقف في وجه الخير والإنفاق في سبيل الله.

تلك هي قصة أصحاب الجنة، أولئك الذين حاولوا منع المحتاجين من نيل ما قسم الله لهم من بستان أبيهم بعد أن صار بستانهم، فأبدلهم الله خراباً وتلفاً، لكنهم استدرکوا الأمر ورجعوا إلى الله وأنابوا.

يقصُّ الله سبحانه قصة هؤلاء النفر فيقول:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (24) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) ﴾ (القلم: 17-33)

ضرب الله تعالى هذا المثل لكفار قريش، فقد أسبغ عليهم من النعم والتمكين ما لم يعط غيرهم، وبعد ما منحهم إياه من الدنيا يرسل إليهم رحمة عظيمة تتمثل في بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فينالوا به خير الدنيا والآخرة، ولكنهم يجحدون.

ويبدأ عز وجل كلامه بقوله: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ (القلم: 17)، وبلوناهم: أي اختبرناهم وامتحانهم، والابتلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر، ولعل المعنى هنا يكون الابتلاء بالشر عقاباً على كفر النعمة والتمرد عليها⁽¹⁾.

(1) انظر: التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، ج 15، ص 1091

ومفاد الآية: " إنا امتحننا مشركي قريش بالقحط والجوع، حتى أكلوا الجيف، بسبب كفرهم بنعمنا، وتكذيبهم لرسولنا صلى الله عليه وسلم كما ابتلينا من قبلهم أصحاب الجنة، بأن دمرناها تدميراً، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها، ويبدو أن قصة أصحاب الجنة، كانت معروفة لأهل مكة، ولذا ضرب الله المثل بها حتى يعتبروا ويتعظوا، ووجه المشابهة بين حال أهل مكة، وحال أصحاب الجنة يتمثل في أن كلا الطرفين قد منحه الله تعالى نعمة عظيمة، ولكنه قابلها بالبحود وعدم الشكر"⁽¹⁾.

والآية تشير إلى ما كان من ابتلاء الله سبحانه للمشركين من مضر، إذا أخذهم الله بالقحط والجذب، استجابة لدعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليهم، إذ دعا عليهم الرسول بالشدّة والقحط وضيق الحال كما كان في سنين القحط في مصر في أيام النبي يوسف عليه السلام عليهم يرجعون⁽²⁾، حتى أن بعضهم كان ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد⁽³⁾.

"وقد ذكر بعض السلف: أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه أولاده، قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذ كان يصرف من هذه الجنة شيئاً للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية: أذهب رأس المال، والريح فلم يبق لهم شيء"⁽⁴⁾. ويتابع الله عز وجل قصتهم فيقول: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرَمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَنْتُونَ (18) ﴾ (القلم: 17-18)، أي تحالفوا وأقسموا أن يقطعوا الثمر إذا أصبحوا قبل أن يأتيهم المساكين لينالوا نصيبهم كما كان عودهم أبوهم، ولا يستنتون، أي تحالفوا على ذلك الفعل دون أن يستنتوا بقولهم عبارة: "إن شاء الله"، وكأنهم واتقون من تمام فعلهم الذي ينوون وقدرتهم عليه⁽⁵⁾، أو لا يستنتون نصيباً للمساكين من ثمرهم كما كان يفعل أبوهم⁽⁶⁾.

(1) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 15، ص 47

(2) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، ج 15، ص 1091 (بتصرف)

(3) انظر: المحرر في أسباب نزول القرآن، لخالد المزيني، ج 1، ص 80.

(4) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج 15، ص 47

(5) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج 3، ص 403

(6) انظر: روح المعاني، للألوسي، ج 15، ص 34

وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ " قيل: أي: لا يقولون: إن شاء الله، وقيل: لا يقولون: سُبْحَانَ اللَّهِ، فإن كان على هذا، ففيه أن التسبيح كان مستعملاً في موضع الاستثناء، وقد يجوز أن يؤدي معنى الاستثناء؛ لأن في التسبيح تنزيه الرب تعالى، وفي الاستثناء معنى التنزيه؛ لأن فيه إقراراً أن الله تعالى هو المغير للأشياء والمبدل لها"⁽¹⁾.

وينزل العقاب الإلهي عليهم سريعاً، يقول عز وجل: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (القلم: 19) وسمي: طائفاً لأنه أتاهم بالليل، أي فطرقها طارق من عذاب الله، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نياماً، أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون، ويصف الله ما آلت إليه الجنة العامرة فيقول: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (القلم: 20) أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً، كأنها رماد أسود، وقد حرموا خير جنتهم بذنبهم⁽²⁾.

ويصور الله عز وجل أولئك النفر في تأمرهم وخروجهم فرحين بما وصلوا إليه من قرار، ثم تفاجئهم بما آلت إليه جنتهم العامرة، ورجوعهم بعد صدمتهم فيقول عز وجل: ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (24) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27)﴾ (القلم: 21-27)، أي نادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم، أن اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنا بكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها.

فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين، يوصون بعضهم بعضاً أن لا تدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان ولا تمكنوه من الدخول، وقد مضوا قاصدين ما يفعلون، وهم يظنون أنهم امتلكوا القدرة على ذلك، وقيل مضوا قاصدين ما يفعلون وملؤهم الحنق والغضب، فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، ظنوا أنهم قد أخطأوا فقصدوا مكاناً آخر غير جنتهم⁽³⁾.

(1) تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج10، ص145

(2) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج3، ص (403، 404)

(3) انظر: المرجع السابق، ج3، ص 404

وكان إنكارهم أنها حديقتهم من هول المفاجأة لشدة الخراب والدمار الذي حل بها، فقالوا ليست هذه حديقتنا، وكان ذلك أول وصولهم إليها، فلما استفاقوا من هول الصدمة أدركوا حقيقة ما هم فيه ووضح لهم أنها هي، وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا عند ذلك: بل نحن محرومون، حرمانا ثمرها وخيرها بجنائنا على أنفسنا (1).

وهنا، يرجع الأخوة إلى رشدهم، تستنير عقولهم وتصفو بصائرهم، لكن بعد فوات الأوان، فقد وقع العقاب الإلهي وحرموا جنتهم العامرة، غير أنهم استدركوا أن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، وأنه لا زال بوسعهم أن يرجعوا إلى الله نادمين مستغفرين، يقول عز وجل: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: 28)، وأوسطهم هنا هو أخوهم وواحد منهم، قيل: كان أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم، ولعله حاول منعهم قبل أن يقدموا على ما فعلوه في بداية الأمر، ثم سار معهم لشدة إلحاحهم وإصرارهم، فلما أفاقوا من غيهم على هول العقاب الإلهي، عاد يستنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم: ﴿ لِيَصْرِمْنَهَا مُصْبِحِينَ ﴾ وسمى الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته، وقيل: هلا تسبحون الله وتقولون: سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم، وقيل: هلا تستغفرونه من فعلكم (2).

ويصف الله سبحانه المشهد بعد أن أسقط في أيديهم ذاهلين مما رأوا بأعينهم مدركين لعظم ما أقدموا عليه من معصية فيقول: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (29) فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿30﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿31﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿32﴾ (القلم: 29-32)، فما كان منهم إلا أن اعترفوا بذنبهم، وشرعوا يسبحون الله منزهين له عن أن يكون ظالماً لهم فيما فعل بهم وجنتهم، ويردون ذلك لأنفسهم بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فأقروا على أنفسهم بالظلم بمنعهم المساكين من نيل حقهم، فكانوا هم الجناة على أنفسهم، فما كان منهم إلا أن يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم، ونادوا على أنفسهم بالويل لطغيانهم بحرمان الفقراء، وعدم شكرهم النعمة كما كان يفعل أبوهم من قبل (3).

(1) انظر: صفوة التفسير، للصابوني، ج 3، ص 404

(2) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، ج 8، ص 196

(3) انظر: المرجع السابق، ج 8، ص 197

ويختم الأخوة النادمون بقولهم: ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (القلم: 32)، فما إن استفاقوا من صدمتهم ومن ثم غيهم وظلمهم، حتى فطنوا أن الله واسع المغفرة ولا ينقطع عنده الأمل، فاستغفروا الله وتابوا إليه، راغبين منه أن يبدلهم خيراً من جنتهم الهالكة إذا تابوا وأنابوا، لأنه لا يجوز أن يتوقعوا خيراً منها وهم مصررون على ذنوبهم؛ إذ قد عرفوا أنهم إنما حرموا بركة الثمار بما ارتكبوا من الذنوب؛ ويحتمل أن تكون هذه الجنة التي يتمنونها بدلاً من جنتهم إنما تكون في الآخرة، وقوله: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي: إلى ما عند ربنا من العطايا والمنن وما وعد ربنا للتائبين من الذنوب لراغبون⁽¹⁾.

ويختم الله عزَّ وجلَّ حكايتهم، موجهاً العظة لأهل مكة من المشركين، بعدما أطلعهم على ما كان من أمر أصحاب الجنة، وكيف كان كفرهم بالنعمة التي أسبغها الله عليهم سبباً لعقابه الأليم، ثم أنابوا لربهم فيقول: ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم: 33) أي: كفعلنا بجنة أصحاب الجنة، إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسدة، فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسُلنا في عاجل الدنيا، وإن عقوبة الآخرة بمن عصى ربه وكفر به، أكبر يوم القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها، وقيل: قصد في عذاب الدنيا: هلاك أموالهم، ثم يعقب بقوله: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به في الآخرة أكبر من عقوبته لهم في الدنيا، لارتدعوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون⁽²⁾.

وترى الباحثة، أن في قوله عزَّ وجلَّ على لسان أصحاب الجنة بعد أن ذهلوا بما حاق بهم وأنابوا: ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (القلم: 32) الشاهد الأهم في قصة أصحاب الجنة، فالمعصية لا تعني بالضرورة الهلاك النهائي، لأن الدنيا وما فيها ليست نهاية المطاف ولا مبلغ الآمال والغايات، فمهما حصل في الدنيا وطالما أن الإنسان لازال على قيد الحياة لم يمتهن، فهناك أمل وفرصة للعودة والاستغفار، شرط أن يكون الندم على المعصية حقيقي وأن تكون النوايا خالصة لله رب العالمين.

(1) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج10، ص 149

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج23، ص552 (بتصرف)

المبحث الثاني

الهالكون بإعراضهم عن الموعظة

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: ابن نوح عليه السلام

المطلب الثاني: النمرود بن كنعان

المطلب الثالث: زوجة لوط عليه السلام

المطلب الرابع: قارون

المطلب الخامس: صاحب الجنة

المبحث الثاني: الهالكون بإعراضهم عن الموعظة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: ابن نبي الله نوح (عليه السلام)

بعد أن استعرضت الباحثة في المبحث السابق نماذج قرآنية لأناس نجوا وفازوا بعد سماعهم وإذعانهم لمواعظ الأنبياء والمرسلين وتقيدهم بها، تنتقل في هذا المبحث -الأخير من هذه الرسالة- لنماذج قرآنية لأشخاص هلكوا وبادوا نتيجة إعراضهم عن الموعظة، وتكبرهم على الواعظين الداعين إلى الله من الأنبياء والمؤمنين التقاة.

وقد تطرقت الباحثة فيما سبق، لقصة نبي الله نوح عليه السلام⁽¹⁾، وما كان من أمر عظته لقومه وجواب قومه عليه وموقفهم منه، ثم ما آلت إليه أمورهم في النهاية، بأن عاقبهم الله بالطوفان العظيم.

وتسلط الباحثة الضوء في هذا المطلب، على جزئية هامة في قصة النبي الكريم، ألا وهي: ابن نوح عليه السلام، كنموذج قرآني للرافضين للدعوة الهالكين بالإعراض عنها.

يقول الله عز وجل:

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضِ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) ﴾ (هود: 42-47)

(1) انظر: موعظة نوح عليه السلام لقومه، ص 23

يصف الله سبحانه المشهد المهيّب لذلك الطوفان، فالسمااء تنهمر بالأمطار أربعين يوماً لا تهدأ، والأرض تتفتق عن سيول من المياه، ويتعالى الموج على سطح الماء حتى أصبح كأنه الجبال الشاهقة تتلاطم فيما بينها، والله سبحانه يمسك سفينة نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين بعطفه ورحمته أن تغرق في ذلك الطوفان الرهيب، ولم يكن كل ما يشغل بال نبي الله أمر السفينة ومن فيها وحسب، وإنما كان ما يشغل باله غير أمر الطوفان وقومه الهالكين، هو أمر ابنه العاصي الذي رفض أن يركب السفينة مع بقية أهل أبيه والمؤمنين من قومه (1).

وابن نوح عليه السلام هذا هو ابن رابع في أبنائه من زوج ثانية له كان اسمها "واعلة"، غرقت مع قومها في الطوفان، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم: 10)، قيل: كان اسم ابنه "ياما"، وقيل اسمه "كنعان"، وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين، وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزياً (2).

وقد ذكر الألوسي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود: 40) أن المراد بمن سبق عليه القول هم زوجة له أخرى تسمى واعلة، وفي رواية واقلة، وابنه منها واسمه كنعان، وكانا كافرين (3). ويبدو من السياق القرآني أن النبي الكريم كان رؤوفاً شفوفاً بابنه ذاك، كيف لا والأنبياء هم أحن وأشفق الناس على أقوامهم، وقد ثابر النبي الكريم في دعوة ابنه فكان يناديه استعطافاً وترققاً بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾، وفي هذا النداء استعطاف كبير، غير أن قلوب الكفار فارغة قاسية، لا يؤثر فيها استعطاف المستعطفين ولا تترقق المترققين، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم.

(1) انظر: لباب التأويل في معنى التنزيل، للخازن، ج2، ص485

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج12، ص75 (بتصرف)

(3) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج7، ص206 (بتصرف)

ولا يكاد المتأمل يجد سبباً مقنعاً لما أقدم عليه ذلك الابن الضال إلا أنه كان لم يؤمن بنوح عليه السلام أصلاً فلم يصدق بوقوع الطوفان، أو أنه ارتد فأنكر وقوع الطوفان فكفر بذلك لتكذيبه الرسول، وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ لإعلامه بأن إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفار إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلا أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان، فقول نوح عليه السلام له: ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾ (هود: 42) كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير، وقد زاد ابنه دلالة على عدم تصديقه بالطوفان قوله متهماً ساوي إلى جبل يعصمني من الماء (1).

ويحاول النبي الكريم جاهداً أن يجذب إليه ابنه فيستنقذه من الهلاك، ولاشك بأن حرصه على إنقاذ ابنه من عذاب الآخرة كان أشد من حرصه على إنقاذه من هلاك الدنيا بالغرق، فيرد على تهكم ولده العاصي المعاند أو جهله بقوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ (هود: 43)، فالمسكين كان يظن أن المسألة كلها مجرد طوفان وماء، وأن بإمكان الناس أن ينجوا باتخاذ الأسباب العادية باعتلاء المرتفعات والجبال الشواهق كما يفعلون دائماً، فيرد عليه نبي الله أن الأمر ليس كما يتصور، فما يجري أمامه هو عذاب وليس مجرد ظاهرة طبيعية يمكنه الالتجاء إلى الجبال ليستنقذ نفسه منها، ولا يحتمل نجاة أحد من ذلك الطوفان إلا من قدر الله وشاء أن يرحمه بأن يهديه، أو من سبقت له الرحمة بالهداية من قبل (2).

ويصر الابن الضال على عناده، ويُمضي الله تعالى حكمه العادل فيه بأن أغرقه كما أغرق غيره من كفار قومه، وإن كان اختلف عنهم بنسبه إلى نبي الله نوح عليه السلام، لكنه شاركهم الكفر والعناد، فحال الموج بينه وبين أبيه ومن معه في السفينة فكان من المغرقين الهالكين (3).

وينتهي الحدث العظيم، ويأمر الله سبحانه السماء أن تُمسك عن المطر والأرض أن تبلع ماءها، وأن يجف الماء وترسو سفينة الناجين على جبل الجودي، وهناك يتوجه نبي الله نوح عليه السلام إلى ربه

(1) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج12، ص (75، 76)

(2) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج6، ص 134

(3) انظر: المرجع السابق، ج6، ص134

متضرعاً راجياً أن يستنقذ ابنه، معتمداً على وعد الله سبحانه له بأن يُنجيه وأهله، فيقول: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (هود: 45).

وقد اختلف المفسرون في تفسير دعاء نوح عليه السلام ربه بنجاة ولده، وجواب الله تعالى عليه بأنه ليس من أهله، وترجح الباحثة الرأي القائل أن نوحاً عليه السلام كان يعتقد أن ابنه على دينه لما كان يظهر له من الموافقة والمداراة، وإلا فإنه من المستبعد أن يعلم بكفره ثم يسأل نجاته وقد سبق النهي الإلهي عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (هود: 37)، ويجب الله تعالى ذو العدل المطلق دعاء نبيه: فيقول: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (هود: 46)، فإن كان نوح عليه السلام لم يكن يعلم ما يضمّر ابنه من كفر فإله تعالى كان يعلم، ولذلك أخرجته تعالى من أهله بقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (1)، أي أهلك الذين وعدت النجاة لهم، أو ليس من أهلك؛ لأنه لم يؤمن بي ولم يصدقك (2).

ولعل من الخير أن تعيد الباحثة التركيز على الدرس المستفاد من هذه القصة، وهو أن الله تعالى هو العدل المطلق، فالله سبحانه لم يميز ابن نوح عن غيره من الكفار لمكانه من نبيه القائم على دعوته، وتلك هي رسالة الإسلام العليا، فالعدل أساس في دين الله لا يمكن تجاوزه ولا التهاون فيه.

(1) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج6، ص 136

(2) انظر: أحكام القرآن، للكنيا الهراسي، ج4، ص 226

المطلب الثاني: النمرود بن كنعان

تنتقل الباحثة في هذا المطلب، إلى نموذج قرآني شهير، لطالما ضرب به المثل في الجبروت والطغيان، وتجاوز كل الحدود وتعدي كل المحظورات، ألا وهو النمرود، والذي تطرقت الباحثة لذكره قبل ذلك خلال مطالب هذه الرسالة، ولعل من الخير أن تفرد الباحثة لهذا الطاغية مطلباً خاصاً، لتستعرض فيه كل جوانب شخصيته، وأفعاله وما آل إليه مصيره نتيجة إعراضه وطغيانه.

وقد ذكر الله تعالى ما كان من أمره مع نبي الله إبراهيم في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: 258)

يخبر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأمر الملك الذي حاج وجادل إبراهيم عليه السلام في ربه تعالى، والمجادل هاهنا هو النمرود بن كنعان، ذلك الملك الطاغية، الذي كان يدعي لنفسه الألوهية والربوبية، ويدعو الناس لعبادته وطاعته من دون الله⁽¹⁾.

ولم يكن النمرود ملكاً عادياً، فقد كان أول من وضع التاج على رأسه، طغى وتجبر بعد أن آتاه الله ملكاً عظيماً هائلاً، حتى قيل: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان فسلیمان عليه السلام وذو القرنين، وأما الكافران فالنمرود بن كنعان وبختنصر، ولا شك أن في ذلك إشارة إلى عظم وهول ما كان يملك ذلك الطاغية، حتى تساوى في عظم الملك مع سليمان عليه السلام وذو القرنين، وهما من هما في ملوك الأرض وساداتها⁽²⁾.

وتُظهر أغلب الروايات، أن المجادلة الشهيرة بين إبراهيم عليه السلام والنمرود، إنما كانت بعد أن كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام، فسجنه النمرود ثم أخرجه لينفذ فيه أمر الحرق، فسأله: من ربك الذي تدعوننا إليه؟ فكانت المجادلة، وقيل إنها كانت بعد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ثم نجاته منها،

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج1، ص 686

(2) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج1، ص192

فأصاب الناس بعدها قحط، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام، فكان إذا أتاه أحد يمتار سأله من ريك؟ فيقول: أنت، فيميره، فخرج إبراهيم عليه السلام إليه يمتار لأهله الطعام فأتاه فقال له من ريك فكانت المجادلة، وردة من غير طعام⁽¹⁾.

وتتبدى معالم الطغيان بوضوح كبير في المجادلة المذكورة في الآيات الكريمة، فهو يجادل من أجل المجادلة، لا يلقي بالاً إلى حق ولا إلى حقيقة، ولا يعنيه أن يعرف حقاً من يكون إلهه وربه الواحد فينيب إليه، فكل ما يعنيه هو أن يجادل وأن يتجراً على ذات الله تبارك وتعالى ليقارن نفسه به، فيضرب أمثلة واهية على قدرته على الإحياء والإماتة بأن يأمر بقتل أحد السجناء ويعفو عن آخر كان قد حُكم عليه بالموت، لكن الله تعالى يفحمه على لسان نبيه بأن يسأله أن يأتي بالشمس من المغرب، وكعادة الطغاة دائماً حين يعجزون عن الرد، تكبراً وتولياً⁽²⁾.

ولعل الطغاة يتشابهون في طغيانهم وإن فرّق بينهم الزمان والمكان، فقد كان النمرود يذبح مواليد قومه كما كان يذبح فرعون مواليد بني إسرائيل، فقد روي أنه " رأى في منامه كأن كوكباً اطلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً ودعا السحرة والكهنة والجازة والقافة فسألهم عن ذلك فقالوا: مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاك ملك وأهل بيتك على يديه. قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء"⁽³⁾.

" فلما حملت أم إبراهيم، قالت الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أمه الليلة، فأمر نمرود بذبح الغلمان، فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعت في نهر يابس، ثم لفته في خرقة فوضعت في حلفاء فرجعت فأخبرت بأنها ولدت وإن الولد في موضع كذا، فانطلق آزر يأخذه من ذلك المكان، وحفر له سرباً عند نهر فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه"⁽⁴⁾.

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج1، ص192

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج1، ص686

(3) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للشلبي، ج4، ص162

(4) المرجع السابق، ج4، ص162

وقد أشار الله عزَّ وجلَّ إلى ذلك الطاغية وما يأتي من معاصي في مواضع أخرى في القرآن الكريم في قوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَّنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخُزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) ﴾ (النحل: 26-27)، قيل: الذي مكر من قبلهم هو نمرود بن كنعان، الذي بنى الصرح، وكان قد بنى صرحاً إلى السماء، فأتى الله بنيانهم من القواعد⁽¹⁾.

ويشاء الله جلَّ وعلا أن يعاجل ذلك الطاغية بالعقاب في الدنيا قبل الآخرة، فقد روي أن الله تعالى بعث إلى نمرود الجبار ملكاً فقال له: إن ربك يقول لك أن آمن بي وأتركك في ملكك، قال: وهل رب غيري؟ فجاءه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فرد عليه مثل ذلك، فقال له الملك: اجمع جموعك، فجمع الجبار جموعه، فأمر الله الملك ففتح عليه باباً من البعوض حتى سترت الشمس فلم يروها، فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام، ونمرود ينظر ولم يصبه شيء من ذلك، ثم بعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكثت في رأسه أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وكان أرحم الناس به من يجمع له يديه ثم يضرب بهما رأسه، فكان كذلك يعذب أربعمئة سنة مدة ملكه حتى أماته الله عزَّ وجلَّ⁽²⁾.

وترى الباحثة أن في ذلك العقاب عبرة على كل باحث أو داعية أن يعيها، فالله عزَّ وجلَّ حكيم عليم، يعاقب عباده الطاغين بما يلائمهم ويبطل ادعاءاتهم، فالنمرود الذي مكث في ملك الدنيا أربعمئة عام حتى ادعى أنه ربُّ يحيي ويميت ويرزق ويدبر، يعجز أمام بعوضة حقيرة لا تساوي شيئاً، تذله وتعذبه ثم يموت بها.

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج4، ص566

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج1، ص192 (بتصرف)

المطلب الثالث: زوج النبي لوط (عليه السلام)

تسلط الباحثة في هذا المطلب الضوء على حلقة هامة في قصة نبي الله لوط عليه السلام: زوجته التي أطاعت قومها وظاهرتهم على كفرهم وصدّهم وشاركتهم فيه، فكانت شريكتهم كذلك في العذاب، ولم يشفع لها قريبا من نبي الله، كما لم يشفع لغيرها من الكافرين قريهم من الأنبياء والصالحين، وتلك قصة ثانية تؤكد معنى العدل المطلق الذي أقرّه سبحانه في عقابه وثوابه لعباده الكافرين منهم والمؤمنين.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (التحریم: 10)

"وفي ذلك توكيد على أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين عن لحمة نسب، أو وصلة صهر، أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الايمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامراتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئا"⁽¹⁾.

وقد ضرب الله تعالى هذا المثل لكفار مكة الذين لهم برسول الله صلى الله عليه وسلم اتصال من حرمة القرابة، فكانوا يطمعون بشفاعته في الآخرة إن كان الأمر على ما ذكره النبي لهم؛ لأنهم عرفوه بالشفقة والرحمة على الخلق جملة، فكيف يدع شفقتة ورحمته على قرابته وهو يراهم يتردون في الهلاك؟ فبين لهم شأن امرأة نوح وامرأة لوط وما كان بينهما وبين نوح ولوط عليهما السلام من الاتصال؛ لئلا يغتروا باتصالهم بالنبي عليه الصلاة والسلام⁽²⁾.

وقد يكون هذا في بدء الإسلام، في الوقت الذي يتفرد فيه الآباء بالإسلام دون الأبناء، والأبناء دون الآباء؛ فيكون المثل لمكان أولئك الذين التزموا وداوموا عليه، ولم يتبعوا آباءهم وأبناءهم، وقد يكون هذا

(1) تفسير القرآن الكريم، لابن القيم الجوزية، ج1، ص 458

(2) انظر: تفسير الماتريدي، للماتريدي، ج10، ص95

المثل لمكان أهل النفاق فيما أظهروا موافقة المؤمنين، وأسروا الخلاف لهم، فيخبر أنه لا ينفعم إظهار موافقتهم في الدين إذا كانوا على خلافه في التحقيق؛ كما لم ينفع زوجتي نوح ولوط عليهما السلام إظهار الموافقة منهما لزوجيهما إذا كانتا على خلافهما في السر، وكما كان من ابن نوح عليه السلام من ادعاء الموافقة والمدارة في بادئ الأمر⁽¹⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ "في الدين لا في الفجور؛ لأنها فراش النبي، ولا عار عليه في كفرها"⁽²⁾، ولا يحتمل أي معنى آخر للخيانة، لأن زوجات الأنبياء لا يزينن كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما زنت امرأة نبي قط، وما كانت خيانتها إلا في الدين، فأما امرأة نوح كانت تخبر الناس أنه مجنون، وأما امرأة لوط كانت تدل على الأضياف، والخيانة تكون في كل شيء لا في الزنا فقط⁽³⁾.

فقد جاء في الأثر أن لوطاً عليه السلام أخذ على زوجته العهد ألا تتبئ قومها بأمر الرسل الذين جاؤوه من الملائكة، لكنها انطلقت فأندرت قومها فقالت: قد تضيّف لوطاً قوم ما رأيت قومًا أحسن وجوهاً ولا أشد بياضاً ولا أطيب ريحاً، فأتوه قومه يُهرعون إليه كما قال الله فأصْفق لوط الباب، فجعلوا يعالجونه، فاستأذن جبريل ربّه في عقوبتهم، فأذن له، فصفقهم بجناحه، فتركهم عمياناً يترددون في أخبث ليلة أتت عليهم قط⁽⁴⁾.

ويصرّح الله تعالى بمصير امرأة لوط عليه السلام في قوله: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَنْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: 81)، فقد وقع بها إذا ما وقع بقومها من العذاب، وقد ذكر في بعض الروايات أنها خرجت مع لوط وبناته حين أمرهم الملائكة أن يسروا في الليل خارجين من القرية لأن موعد العذاب يكون صباحاً، لكنها خالفت الأمر بعدم الالتفات لشدة حنينها وتعلقها بقريتها وقومها الطاغين،

(1) انظر: المرجع السابق، ج10، ص (96،95)

(2) غاية الأمان في تفسير الكلام الرياني، لشهاب الدين الشافعي، ج1، ص193

(3) بحر العلوم للسمرقندي، للسمرقندي، ج3، ص471 (بتصرف)

(4) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج15، ص425 (بتصرف)

فالتفتت وراءها فصارت قضيب ملح متجمد، وتلك من روايات أهل الكتاب، ولا يوجد ما يتعارض بينها وبين ما حكى القرآن الكريم⁽¹⁾.

وقد ورد أنه: "لما كانت الساعة التي أهلكوا فيها، أدخل جبريل جناحه في القرية فرفعها، حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل، فسمعت امرأة لوط الهدّة، فقالت: واقوماه! فأدركها حَجَرٌ فقتلها"⁽²⁾.

وترى الباحثة أنه مهما كان شكل ميّتها سواء كان بحجر من حجارة السجيل أو التجميد كعمود من الملح، فالشاهد أن الله عذبها كما عذب قومها وقتلها كما قتلهم، ولم ينفعها قربها الشديد من نبي الله لوط عليه السلام، فليس أقرب للرجل من زوجته، لكنه العدل الإلهي في مساواة الظالمين أيّاً كانت أنسابهم، وتناسب جزاء الخيانة مع عظم الجريمة وشناعتها.

(1) انظر: التفسير الحديث، لدروزة محمد عزت، ج 2، ص 423

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج 15، ص 425

المطلب الرابع: قارون

تكلت الباحثة سابقاً في بعض مطالب هذه الرسالة عن العقوبة الإلهية الواجبة لذنوب عظيم: هو كفر النعمة، وكان ذلك في قصة أصحاب الجنة، غير أن ما تستعرضه الباحثة في هذا المطلب يختلف في الخواص وإن كان يتفق في البدايات، فموضوع هذا المطلب هو قارون، ويتفق قارون مع أصحاب الجنة في أن الله عزَّ وجلَّ قد أسبغ عليهم النعم فلم يقدروها ولم يشكروها، بل تمردوا على المنعم جلَّ وعلا وعتوا عتواً كبيراً، فأنزله الله بهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة.

غير أن أصحاب الجنة كانوا ممن استفاق من غيبوبة الضلال بعد أن رأى العذاب وسمع النصيح والموعظة، أما قارون، فإنه تمادى في غيِّه وضلاله في كفر النعمة التي أنعم الله بها عليه، ومحاربة رسولي الله موسى وهارون عليهما السلام، ومظاهرة عدو الله فرعون حتى خسف الله به وبماله الأرض فلم يُنظره فكان من الهالكين.

ويقصُّ الله عزَّ وجلَّ ما كان من أمر قارون فيقول:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَأُوْحَظُّ عَظِيمًا (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَاتَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاتَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) ﴾ (القصص: 76-83)

ويبدأ الحق سبحانه في سرد قصة قارون بالإشارة إلى ما كان أنعم الله وأسبغ من النعم، وقد كان من بني إسرائيل، وكان قريباً لنبي الله موسى عليه السلام قرابة الدم، قيل: ابن عمه وقيل غير ذلك⁽¹⁾. ولم يقتصر أمر قارون على قرابته من موسى عليه السلام، فقد روي أنه كان من السبعين المختارين الذي سمعوا كلام الله تعالى، وأنه كان يسمى المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، إلا أنه نافق كما نافق السامري ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، وطلب الفضل والرياسة عليهم، وقد روي أنه كان عامل فرعون على بني إسرائيل، فلما أتى الله موسى عليه السلام الرسالة حسده قارون على رسالته، وحسد هارون على إمامته في المذبح، فكفر بعد ما آمن بهما وبغى لكثرة ما أوتي من مال وعيال⁽²⁾.

وقد أوضح الله جلّ وعلا ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25)﴾ (غافر: 23-25)، فقد كان شريكاً لفرعون ورئيس جنده هامان في تكذيب موسى عليه السلام واتهامه بالسحر، وإنكار المعجزات الإلهية التي أجراها الله على يديه لما عجزوا عن مقارنته عليه السلام، بل وأكثر من ذلك أنه كان شريكاً للقوم في تعذيب بني جلدته من بني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم لاتباعهم موسى عليه السلام، فكان كافراً عاتياً استحق غضب الله عليه حتى خسف به وبداره الأرض فكان من الهالكين الخاسرين⁽³⁾.

وتتبدى روعة الأسلوب القرآني في وصف ما كان يمتلك قارون من النعم والأموال التي أنعم الله بها عليه في قوله سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص: 76)، فالله عزّ وجلّ لا يصف في هذه الآية الخزائن التي كان يدخر فيها قارون أمواله، بل يصف مفاتيحها، فقد كان حمل المفاتيح وحدها - لا الخزائن - صعباً على العصبة ذوي القوة من الرجال، ولفظة "ما" في الآية موصولة بمعنى: الذي⁽⁴⁾، وللقارئ المتأمل أن يتخيل: إذا كان حمل مفاتيح

(1) انظر: مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، للبننتي، ج2، ص206

(2) انظر: المرجع السابق، ج2، ص206

(3) انظر: تفسير المراغي، للمراغي، ج 24، ص 60

(4) انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج8، ص692

الخزائن يصعب على جماعة الرجال ذوي القوة، فكيف وكم كانت تلك الخزائن؟ وفي ذلك إشارة إلى عظم وهول ما كان يمتلك قارون من الأموال.

قال أهل اللغة: ناء به الحمل إذا أثقله، وتنوء بالعصبة: أي تميل بها العصبة إذا حملتها من ثقلها، وقيل: إن العصبة في هذا الموضع أربعون رجلاً، وخزائنه كانت أربعمئة ألف، يحمل كل رجل عشرة آلاف، وقيل: مفاتيح خزائنه يحملها أربعون رجلاً⁽¹⁾.

وينصح عقلاء بني إسرائيل قارون لما رآه قد انحرف عن جادة الطريق في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) ﴾ (القصص: 76-83)، وكان ذلك حين رآه قومه يتفاخر ويتعالى عليهم بما امتلك من أموال، فتوجهوا إليه بالنصح والعظة ألا يفخر بما أعطاه الله، فإله لا يحب المتفاخرين المتبشرين، المحبين لأموالهم إلى درجة الطغيان، وأن يطلب فيما أعطاه الله من الأموال والنعمة الجنة، بأن يشكر الله لما أنعم عليه وينفقه في رضا الله تعالى⁽²⁾.

وفي قوله: ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ قيل: أي لا تترك أن تعمل في الدنيا للأخرة حتى تتجو من العذاب، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للأخرة، وقيل: قوتك وقوت أهلك، وقيل: بالاستغناء بما أحل الله عما حرم الله، ويتابعون في وعظه: أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته، أو أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك، فإن من عصى الله وبغى وطغى إنما يطلب الفساد في الأرض والله لا يحب المفسدين⁽³⁾.

ويرد قارون الرد المتوقع من الطغاة المتجبرين أمثاله، الذين شغلته الدنيا عن الآخرة فلا تؤثر فيهم عظة ولا عبرة، فقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (القصص: 78)، ولعله أراد برده الفاجر ذاك أن ينكر فضل الله عليه، فلا يكون مضطراً لأن يحسن لأحدٍ لأن أحداً لم يحسن إليه ولو كان الله رب العالمين،

(1) بحر العلوم، للسمرقندي، ج2، ص619 (بتصرف)

(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبخاري، ج6، ص222 (بتصرف)

(3) انظر: المرجع السابق، ج6، ص222

فكل ما يمتلكه إنما امتلكه بفضل علمه وقدرته، ونسي أو تناسى فضل الله عليه متجاهلاً كم أهلك الله قبله من هم أقوى وأكثر مالاً منه⁽¹⁾.

وقد قيل في معنى علم عندي: أي على استحقاق لما في من العلم الذي فضلت به الناس، وذلك أنه كان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة، وقيل: هو علم الكيمياء، فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً⁽²⁾. ويرد الله تبارك وتعالى على مقالته بقوله: ﴿أَوْلَمْ يَعْلَمَنَّ اللَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْفُرُونَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾ (القصص: 78) أي: أولم يعلم هذا الكافر -الذي يقرأ في التوراة- أن الله قد أهلك من قبله أمماً كانت أكثر منه قوة وبأساً وعدةً وعتاداً، وأكثر جمعاً للمال منه؟ ويختتم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: 78) أي يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقيل: لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تفرير وتوبيخ⁽³⁾.

ويصر الطاغية قارون رغم النصح على عناده وكفره، وتفأخره على قومه بما عنده: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)﴾ (القصص: 79-80)، "قيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية، ببض عليهنّ الحلي والديباج"⁽⁴⁾.

فما كان من ضعفاء الإيمان وهم ينظرون إلى عظم موكب قارون إلا أن تمنوا أن يكون لهم من المال والجاه ما قد كان لقارون، فما كان من تقاة القوم وعلمائهم الذين يبتغون الدار الآخرة إلا أن نهروهم عن أمانيتهم تلك توبيخاً لهم وتبكيئاً، يذكرونهم بعظيم ثواب الله لمن آمن واتقى وصبر مخلصاً الدين لله رب العالمين.

(1) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ج1، ص587

(2) انظر: الكشاف، للزمخشري، ج3، ص431

(3) انظر: المرجع السابق، ج6، ص222

(4) المرجع السابق، ج3، ص432

ويستنفذ قارون كل ما كان له من هذه الدنيا بطغيانه وفجوره، ويشاء الله عزَّ وجلَّ أن يعاجله بعقاب الدنيا قبل عقاب الآخرة، ليجعله عبرة لمن أراد أن يعتبر، وغضباً لنبيه ورسوله موسى عليه السلام بعدما أصابه من قارون وذويه أذىً كثيراً، بعد أن رفض دفع الزكاة وادعى على نبي الله الفحشاء، ويصف الله سبحانه تلك العقوبة بقوله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: 81)، أي: جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه، جزاءً على عتوه وبطره فما كان له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه ولا ينتصرون له (1).

وأمام ذلك المشهد المهول، حيث تبتلع الأرض قارون وداره وماله وأعوانه، يقف أولئك الذين كانوا بالأمس القريب يتمنون ثراء قارون مشدوهين مأخوذيين، يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني ولسان حالهم يقول: سبحوا الله أيها القوم وعظموه، كيف أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه، ويضيِّق الرزق على من يشاء من عباده - لحكمته وقضائه ابتلاءً - لا لهوانه عليه، لولا أن الله لطف بنا، وتفضلَّ علينا بالإيمان والرحمة، ولم يعطنا ما تمنيناها لكان مصيرنا مصير قارون، وخسف بنا الأرض كما خسفها به، فإنه لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا، ولا في الآخرة (2).

ويختم جلَّ وعلا قصة قارون بقوله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص: 83)، أي: تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا، والعاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه، ويبتغون رضوانه ويحذرون عقابه (3).

وقد جاءت قصة قارون في معرض تحذير الله عزَّ وجلَّ لعتاة قريش وكافريها، فبعد أن قال الله تعالى لهم: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (القصص: 60) "بين أن قارون أوتيتها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم

(1) انظر: صفة التفسير، للصابوني، ج2، ص 410

(2) المرجع السابق، ج2، ص 411 (بتصرف)

(3) المرجع السابق، ج2، ص 411

أبيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه⁽¹⁾ كما أن قرابتكم من رسول الله وأموالكم لن تنفعكم.

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج13، ص 310

المطلب الخامس: صاحب الجنة

تختتم الباحثة هذا المبحث، بالحديث عن مثل شهير في القرآن الكريم، ضربه الله جلّ وعلا لكفار مكة العتاة كما ضرب لهم غيره من الأمثلة، لعلها تردهم إلى عقولهم فيهدتوا، ويوضح الله عزّ وجلّ لهم في هذا المثل مآل من لم يتعظ ولم تنفعه الذكرى. يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَبُّنَا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) ﴾ (الكهف: 32-44)**

اختلف الرواة والمفسرون في تعيين هوية هذين الرجلين، قيل أنهما أخوان من بني إسرائيل، وقيل أنهما من بني مخزوم، وترى الباحثة أن تحقيق هذا الأمر ليس ضرورياً لموضوع هذا البحث، فالشاهد في هذه القصة، هو أنهما كانا أخوين أو رفيقين أحدهما مؤمن والآخر كافر، يدور بينهما حوار يساهم فيه كل منهما بما حوى قلبه من كفر أو إيمان، وقد كان للكافر جنتين من كروم وأعناب، يحيط النخيل بتلك الكروم ويطوف بها، وكان بينهما زرع ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق⁽¹⁾.

(1) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ج3، ص280

وينوه الله تعالى إلى غزارة وجودة إنتاج هاتين الجنتين، فيقول: ﴿ كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ (الكهف: 44) أي: أن كل واحدة من الجنتين أعطت ثمارهما التي يأكلها الناس من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ولم تنقص من هذا المأكول شيئاً في سائر السنين، بل كان أكل كل واحدة منهما وافياً كثيراً في كل سنة، على خلاف ما جرت به عادة البساتين، فإنها في الغالب تكثر ثمارها في أحد الأعوام وتقل في عام آخر⁽¹⁾.

"وفي التعبير بكلمة ﴿ تَظْلِمٌ ﴾ بمعنى تنقص وتمنع، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذي ظلم نفسه بجوده لنعم الله - تعالى - واستكباره في الأرض، وقوله ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ أي: وشققنا في وسطهما نهراً ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب، .. والله تعالى قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما، وغزارة عطائهما، وكثرة خيراتهما، واشتمالهما على ما يزيدهما بهجة ومنفعة"⁽²⁾. وإلى جانب ما حباه الله من نعمة في تلكما الجنتين، يظهر من سياق الآيات أنه كان يمتلك أموالاً أخرى كما في قوله: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ (الكهف: 45)، مما يوضح كثرة ما أنعم الله عليه، لكنها سيرة المتجبرين الطاغين الفرحين بما آتاهم الله، يتباهى ويتفاخر على صاحبه المؤمن بكثرة المال والجنان والعيال، بدل أن يشكر نعمة الله عليه وينفق في سبيل الله مما أعطاه.

يتابع الله سبحانه قصتهما فيقول: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُئِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) ﴾ (الكهف: 35-36) وقد كان المؤمن يحاور صاحبه بالموعظة والدعوة إلى الله، فذكر تعالى أن الكافر رد على وعظ صاحبه بأن ترفع عليه بجاهه وماله، ثم إنه أراد أن يظهر لذلك المسلم كثرة ماله فدخل جنته وأراه إياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور وأخبره بصنوف ما يملكه من المال، ولعله أفرد لفظ (الجنة) بعدما ذكرها بالثنائية (الجننتين)، لأن لا جنة له في الآخرة كما وعد الله المتقين، فهذا الذي يملكه في الدنيا إنما هو جنته لا جنة له غيرها⁽³⁾.

(1) انظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي، ج8، ص515

(2) المرجع السابق، ج8، ص515

(3) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ج21، ص463

ويصف الله سبحانه ذلك الكافر بأنه ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو اعتراض وقع في أثناء الكلام، والمراد: التنبيه على أنه لما اعتر بتلك النعم وتوسل بها إلى الكفران والجحود لقدرة الله على البعث، كان واضحاً تلك النعم في غير موضعها.

ويتابع ذلك الكافر قائلاً: ما أظن أن تبيد جنتاي أبداً وما أظن الساعة قائمة، فجمع بين الأمرين المتناقضين، فقد قطع أولاً أن تلك الأشياء - الجنان والبساتين - لا تهلك ولا تبيد أبداً مع أنها متغيرة متبدلة، ولعلّه أراد أنها لا تبيد مدة حياته ووجوده، ثم يقول بأنه إذا ما قامت القيامة ورد إلى ربه فسوف يجد عند الله خيراً منها مرجعاً وعاقبة، والسبب في وقوع هذه الشبهة عنده أن الله تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء، وذلك كذب، فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتلمية⁽¹⁾.

ويرد المؤمن على صاحبه الكافر بقوله: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38)﴾ (الكهف: 37-38)، فقد حكم إذاً العابد المؤمن على صاحبه ذاك بالكفر لتشكيكه في حقيقة البعث، دليلاً على أن الشك في حدوث البعث كُفر، ثم يتساءل مستكراً موبخاً له: كيف تكفر بالله الذي خلقك وأوجدك من العدم؟ فكنت إنساناً تعيش هذه الحياة وتنتعم فيها، وربما أراد بتساؤله: أنه تعالى لما خلقك هكذا لم يخلقك عبثاً، وإنما خلقك للعبودية، وهياك هيئة تعقل وتصلح للتكليف بالتسوية، ثم يعلن له أنه يشهد ويقر بالله أنه ربه والمنعم عليه، مستكراً أن يشرك بالله أحداً غيره⁽²⁾.

ولما كان المؤمنون على طريق الأنبياء في إرادة الخير والإرشاد إلى سبيل النجاة، توجه إلى صاحبه الضال فقال له: ألم يكن من الخير لك أنك لو دخلت جنتك قلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (الكهف: 39)، أي: الذي له الأمر كله، سواءً كان حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً، وكل ما في الجنان هو مما يشاء الله لا ما يشاء أحدٌ غيره، معترفاً أن كل ما أنت فيه من نعمة إنما كان بمشيئة الله وقوته، مفوضاً الأمر في جنانك وفي غيرها إلى الله تعالى تاركاً الافتخار بها، ولتستحضر عظمة الله في نفسك،

(1) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ج21، ص463

(2) انظر: المرجع السابق، ج21، ص463

لأن الذي وهبها قادرٌ على سلبك إياها، ليقودك إلى التوحيد وعدم الشرك، فلا تفرح بها ولا بغيرها مما يفنى لأنه لا ينبغي الفرح إلا بما يؤمن عليه من الزوال⁽¹⁾.

ويتابع في قوله: ﴿إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ بَنَاتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)﴾ (الكهف: 39-41)، ويتوجه المؤمن المتحسب إلى ربه بالدعاء والتمني أن ينعم عليه بالغنى كما أحسن إليه بالفقر المقترن بالتوحيد، متوقفاً أن يسلب الله النعمة من ذلك الكافر بطغيانه بأن يرسل على جنته الصواعق من السماء، فتكون أرضاً جرداء يزلق عليها باستئصال نباتها، فلا ينب فيها شجرٌ ولا تثبت فيها قدم، أو تعدم ذلك النهر الذي يخترق جنتيك فلا تجد ماءً لها فتموت زروعك عطشاً⁽²⁾.

يقول تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)﴾ (الكهف: 32-44)، فبعد أن أمهله الله عزَّ وجلَّ وأرسل إليه صاحبه المؤمن يعظه وينصحه، فلم ينفع النصح ولم تجدي العظة، نزل به عقاب الله عاجلاً غير آجل، فأهلك جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار، دمرها كما دمر غيرها من أموال الطواغيت، فما كان منه إلا أن قلب كفيه أسفاً وحرزاً على ماله الضائع وجهده الذاهب فيها وهو ينظر إليها وهي مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً⁽³⁾.

وبعد أن حلَّ العقاب وانتهى الأمر، تذكر حينئذٍ أنه أخطأ في حق ربه، فهو يقلب كفيه حسرة على جنته، ويتندم أنه أشرك بربه متمنياً أن لو لم يشرك بالله أحداً، لكن ذلك كله بعد فوات الأوان، ندم حين لا ينفع الندم، ويعقب الله على ذلك المشهد موضعاً ما وصل إليه ذلك الكافر من عجز وضعف، فلم تكن له

(1) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ج12، ص62

(2) انظر: المرجع السابق، ج12، ص (63، 64)

(3) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج2، ص177

جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك، ولا كان هو بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه لو آمن واتقى، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافنخر بهم، فلا نصرة في ذلك الموقف العصيب إلا من الله وحده، عنده خير ثواب الدنيا والآخرة، وهو سبحانه خير عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه⁽¹⁾.

(1) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني، ج2، ص177

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

هدفت في دراستي هذه إلى أن أقدم دراسة تفسيرية موضوعية محكمة تتناول موضوع (الموعظة في ضوء القصص القرآني)، فأمر الموعظة أمر جليل، لأنها أساس ما جاء به الأنبياء والمرسلون عليهم السلام منذ بدء الخليقة وحتى محمد صلى الله عليه وسلم، بغية اهتداء الناس إلى طريق ربهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور التوحيد والإيمان.

وقد خلصت في نهاية الرسالة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، وهي كما يلي:

أولاً: النتائج

- 1- إن أقوى سلاح للداعية إلى الله، هو التوكل والاعتماد على الله جلّ وعلا، فهو وحده حسبه ويكفيه عما سواه.
- 2- إن المخاطر والمصاعب التي يواجهها الداعية لا تقتصر دائماً على الحاكم الظالم أو السلطان الجائر الذي يقاوم دعوته، وإنما تلاقيه كذلك من قومه وعشيرته وإن كان حريصاً مشفقاً عليهم، يريد لهم الخير والمنفعة.
- 3- على الداعية أن يسترشد برأي ومعونة من حوله ممن يتبين أمانتهم وإخلاصهم لله والدعوة، فالأعوان والوزراء الصالحون لهم باع طويل في إنجاح الدعوة وتخفيف المعاناة.
- 4- لا يتوان الداعية إلى الله عن التدرج بالجهر بالحق أياً كانت الضغوطات ومهما بلغت مكابرة المكابرين وسخرية المستهزئين.
- 5- لا ييأس الداعية أبداً من عمله في الدعوة إلى الله مهما بلغ المكذبون من عنت وفجور، وعليه أن يحرص دائماً على استخدام الحجة والبرهان في دحض ادعاءاتهم وتقريب الحق إليهم، فلعل الله يحدث أمراً.

6- الإيمان الصادق يصنع العجائب، مثال ذلك ما كان من أمر سحرة فرعون، فبعد أن كان السحرة من عتاة الكافرين يتحدون رسول الله ويريدون خداع جموع الناس بالأعبيهم، تحولوا لدى رؤيتهم الحق المبين على يد موسى عليه السلام إلى مؤمنين صادقين، بل تجاوزوا ذلك لأن يكونوا مجاهدين صامدين في وجه طغيان فرعون، يلقون عن أنفسهم مغرياتهم ويتحدون تهديداته القاسية بالويل والعذاب، حتى قيل فيهم "أصبحوا سحرة وأمسا شهداء".

7- الإيمان الحقيقي لا يحتاج إلى زمن قل أو كثر للتمكن من نفس الإنسان، فالمؤمن إذا اهتدى للحق بنية خالصة وقلب خاشع لله، يتحول في ساعات معدودة - إن لم يكن أقل - إلى مؤمن مجاهد في سبيل الله، لا يتردد في بذل نفسه التي بين جنبيه إرضاءً لله وطمعاً في ثوابه العظيم.

8- لا نافع ولا ضار إلا الله، فإن لم يكن الداعية واعياً بذلك تمام الوعي مؤمناً به بالقول والفعل فلا جدوى من دخوله هذا المعترك، فإبراهيم عليه السلام لم يخف النمرود ولم يلق له بالاً، مع أنه يعلم أنه بحسابات المادة والأسباب شيء لا يذكر بجوار النمرود، لكنه بحسابات الإيمان يعلم أنه أكبر من النمرود وأعلى.

9- مجادلة الطغاة بلغتهم ومنطقهم، ومقارعة الحجة بالحجة، لون من فنون الدعوة، فإبراهيم عليه السلام كان يعلم أن النمرود ليس أهلاً للإيمان بالإقناع والحجج، كيف لا وهو قد ادعى الألوهية زوراً وبهتاناً وهو يعلم ذلك، إلا أن مقارعته بالحجة والبرهان رسالة له أولاً، ولمن حوله ثانياً، أنهم لا يملكون في الواقع أدنى منطق.

10- قد تختلف الخواتيم عن البدايات أيما اختلاف، فإبراهيم عليه السلام، الضعيف الوحيد في حسابات أهل الأرض، الذي ألقى في نار حامية من دون أن يكون له نصير ولا معين إلا الله، خرج منها منتصراً سالماً غانماً لم يمسه منها سوء، وأما النمرود، ذلك الملك الذي ملأ الأرض كبراً وغروراً فقد أذله الله بأصغر وأضعف خلقه.

11- الله عز وجل حكيم عليم، يعاقب عباده الطاغين بما يلائمهم ويبطل ادعاءاتهم، فالنمرود الذي مكث في ملك الدنيا طويلاً حتى ادعى أنه رب يحيي ويميت ويرزق ويدبر، يعجز أمام بعوضة حقيرة لا تساوي شيئاً، تذله وتعذبه ثم يقتله الله بها.

12- أتباع المجرمين والطغاة في غيهم وكفرهم يستحقون العقوبة مثلهم، فلولا الأتباع ما تجبر الطغاة ولا بغوا، ومن تعزز بشيء على الحق والعظة أهلكه الله هو وأتباعه به.

- 13- ليس من شيء سواء كان قولاً أو عملاً يمكن أن يمنع صاحبه من أن يُدعى إلى الله عزَّ وجلَّ حتى ولو كان مدعياً الألوهية من دون الله أو أفسد في الأرض كما كان في قصة فرعون.
- 14- لا يضيع الله سبحانه ولا ينسى أي عمل صالح ولو كان من فاجرٍ كافر، فالله جلَّ وعلا قد رفق بفرعون غير مرة كرامةً لتربيته موسى صغيراً، ولكنه سبحانه يُمهّل ولا يُهمل.
- 15- ليس لأحد أن يقَدِّم علمه على علم الله عزَّ وجلَّ، فالله وحده يعلم من يؤمن ومن يكفر ولو كان الظاهر أن الدعوة لن تجدي نفعاً فهي واجب على الداعية اتباعاً لسنة الله في الأرض في إلزام الحجة وقطع المعذرة.
- 16- يقبل الله عزَّ وجلَّ من عباده التوبة والإنابة طالما أن أرواحهم لا زالت في أجسادهم من قبل أن يمسه العذاب، فالعذاب كان قد هبط على قوم يونس، حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قليلاً، فلما دَعَوْا كشف الله عنهم.
- 17- لا ينخدع الداعية إلى الله بالمظاهر، وألا يحكم على الأشياء بمنطق الدنيا فقط، فالله عزَّ وجلَّ قادرٌ دائماً على تبديل الأحوال وتغيير الأشياء، وعليه أن يعلم أن مهمته كلها هي أن يبلغ حق التبليغ، ثم يتوكل على الله، فهو سبحانه حسبه ونعم الوكيل.
- 18- الله تعالى هو العدل المطلق، فهو سبحانه لم يميز ابن نوح ولا زوجته، ولا زوجة لوط عن غيرهم من الكفار لمكانتهم وقربتهم من الأنبياء عليهم السلام، وتلك هي رسالة الإسلام العليا، فالعدل أساس في دين الله لا يمكن تجاوزه ولا التهاون فيه.

ثانياً: التوصيات

بعد أن أوصيكم ونفسي بتقوى الله، أوصي بما يلي:

1- على طلبة العلم أن يهتموا أكثر بموضوع هذه الرسالة، لما فيها من خيرٍ عظيمٍ وفائدةٍ جلييلةٍ في تربية جيلٍ واعٍ ومقتدرٍ من الوعاظ والدعاة، يمكنهم أن يسهموا إسهامات كبيرة في مجال الدعوة.
2- على كل داعية أن يحاول دائماً أن يجد الأسلوب المناسب والطريقة الملائمة لعظة الآخرين، فانتقاء الأسلوب المناسب للشخص أو الجماعة المناسبة، هو أول وأهم خطوة في الوصول إلى النتائج المبتغاة.

3- على الدعاة في عصرنا هذا أن يواكبوا التطور المعرفي الهائل وأدوات التطور التكنولوجي العظيم، لأنهما سمة هذا العصر، ولكي يجد الواعظ لدى الفئة المستهدفة لدعوته أدناً صاغية وعقلاً مستعداً للاقتناع، يجب أن يتبين لهم أنه من أبناء عصرهم لا من أبناء عصور غابرة، وأنه يمتلك قدراً معرفياً دنيوياً ودينياً جيداً، وقدرةً مميزة على استخدام أدوات التكنولوجيا والاستفادة منها.

والله سبحانه ولي التوفيق،،

الفهارس

وتشتمل على:

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الأعلام المترجم لهم
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

م	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
البقرة			
1	﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ... ﴾	251	113
2	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ... ﴾	257-258	87، 118، 173
3	﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ... ﴾	275	4
آل عمران			
4	﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾	28	155
5	﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾	31-32	124
6	﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾	62	3
7	﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ... ﴾	93	14
8	﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾	138	6
9	﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلوْ كُنْتَ فَظًّا ... ﴾	159	98
المائدة			
10	﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾	27	16
11	﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ... ﴾	27-30	79
الأنعام			
12	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً ... ﴾	74-84	31
13	﴿ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾	116	131
الأعراف			
14	﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾	73-79	49
15	﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا ... ﴾	80-84	135
16	﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ... ﴾	113-114	150
التوبة			
17	﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ... ﴾	40	137

77	114-113	﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾	18
يونس			
128	98-96	﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... ﴾	19
هود			
105	4-1	﴿ الرِّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ... ﴾	20
24-23	49-25	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ... ﴾	21
131	37-32	﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ... ﴾	22
-65، 24 169، 66	49-42	﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ... ﴾	23
،24، 15 65	49	﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا ... ﴾	24
49، 42	60-50	﴿ وَالِى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾	25
111	60-57	﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ... ﴾	26
128	58	﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ... ﴾	27
147	60-58	﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ... ﴾	28
104	65-64	﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ... ﴾	29
128	66	﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ... ﴾	30
133	68-66	﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ... ﴾	31
177	81	﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ... ﴾	32
101	93-91	﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ... ﴾	33
13	120	﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴾	34
يوسف			
15	3-2	﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فَرَاغًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... ﴾	35
10	3	﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾	36
141-140	17-7	﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ... ﴾	37
18	23	﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ... ﴾	38
143	35-23	﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ... ﴾	39

144	42	﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ... ﴾	40
17	111	﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ... ﴾	41
سورة النحل			
175	27-26	﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ... ﴾	42
الكهف			
16	13	﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَا هُمْ هُدًى ﴾	43
14	59	﴿ وَتِلْكَ الْفَرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾	44
10	64	﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾	45
83-82، 185	44-32	﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ... ﴾	46
مريم			
113	12	﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾	47
73	50-41	﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ... ﴾	48
109	45-43	﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي ... ﴾	49
طه			
158	39	﴿ ... وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾	50
95	44-42	﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ... ﴾	51
151، 60	76-65	﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ... ﴾	52
80	94-92	﴿ قَالَ يَا هَازِرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ... ﴾	53
98	134	﴿ وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا ... ﴾	54
الشعراء			
55-54	68-10	﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ... ﴾	55
19	152-143	﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ... ﴾	56
38	175-160	﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ... ﴾	57
الأنبياء			
119	67-51	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ... ﴾	58
145	72-66	﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ... ﴾	59

الفرقان			
133	40-28	﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ... ﴾	60
137	40	﴿ وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَّءًا ... ﴾	61
النمل			
114-113	44-22	﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ﴾	62
112	52	﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾	63
القصص			
16	3	﴿ نَتَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾	64
96	4	﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ... ﴾	65
158	9	﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ... ﴾	66
10	11	﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾	67
87	38	﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾	68
179	83-76	﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... ﴾	69
لقمان			
69	19-13	﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ... ﴾	70
سبأ			
3	46	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾	71
الصافات			
145	98-97	﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ... ﴾	72
137	138-137	﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... ﴾	73
غافر			
180	25-23	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ... ﴾	74
الزخرف			
89	56-46	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ... ﴾	75
الذاريات			
6	55	﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	76
المتحة			

77	4	﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾	77
الطلاق			
136	1	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ... ﴾	78
التحريم			
137، 176، 170	10	﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾	79
155	11	﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... ﴾	80
القلم			
163، 85	33-17	﴿ إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا ... ﴾	81
نوح			
29	9-5	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ... ﴾	82
107	12-9	﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ... ﴾	83
132، 29	27-26	﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ... ﴾	84
البروج			
159	8-1	﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ... ﴾	85

فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	نص الحديث	م
35	لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترون إلى قول لقمان لابنه ﴿ إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾	1
44	والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	2
70	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت	3
122-121	لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ (الصافات: 89). وَقَوْلُهُ: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (الأنبياء: 63) وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبه، فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأنته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر " قال أبو هريرة تلك أمكم يا بني ماء السماء	4
139	يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا	5
156	كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام	6

فهرس الأعلام المترجم لهم

رقم الصفحة	اسم العلم	م
4	ابن سبده	1
4	الفيروزآبادي	2
5	الخليل بن أحمد	3
5	ابن القيم الجوزية	4
44	الألوسي	5
45	الزمخشري	6
80	الأنباري	7
81	الرازي	8
99	عبد الله بن عمرو بن العاص	9
160	ابن إسحاق	10

فهرس المصادر والمراجع

- 1- أحكام القرآن: علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكنيا الهراسي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1405هـ.
- 2- أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - الرياض، 2008م.
- 3- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، 1995م.
- 4- إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش: دار ابن كثير - دمشق، ط4، 1415هـ.
- 5- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين - بيروت، ط5، 2002م.
- 6- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1418هـ.
- 7- أوضح التفاسير: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب، المطبعة المصرية ومكتبتها - مصر، ط6، 1964م.
- 8- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط5، 2003م.
- 9- بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1993م.
- 10- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، دار الفكر - بيروت، 1420هـ.
- 11- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، 1419هـ.
- 12- بناء المجتمع الإسلامي: د. نبيل السمالوطي، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ط3، 1998م.
- 13- بيان المعاني: عبد القادر بن ملا حويش السيد محمود آل غازي العاني، مطبعة الترقى - دمشق، ط1، 1965م.

- 14- تاج التفاسير، محمد عثمان عبد الله المرغني، دار الفكر للطباعة والنشر، ط2.
- 15- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي، دار الهداية.
- 16- التبيان في تفسير غريب القرآن: شهاب الدين أحمد بن محمد الهانم المصري الجياني، دار الصحابة للتراث- القاهرة، ط1، 1992م.
- 17- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد): محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984م.
- 18- التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبى الغرناطي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم-بيروت، ط1، 1416هـ.
- 19- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م.
- 20- تفسير ابن عباس المسمى تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، دار الكتب العلمية- بيروت.
- 21- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
- 22- تفسير الإمام ابن عرفة: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله، مركز البحوث بالكلية الزيتونية- تونس، ط1، 1986م.
- 23- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1420هـ.
- 24- تفسير التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التستري، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1423هـ.
- 25- تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث- القاهرة، ط1.
- 26- التفسير الحديث: درزوة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، 1383هـ.
- 27- تفسير الشعراوي - الخواطر: محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997م.
- 28- تفسير القرآن العزيز: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زمنين المالكي، دار الفاروق الحديثة- القاهرة، ط1، 2002م.

- 29- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2 (سلامة)، 1999م.
- 30- تفسير القرآن العظيم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، ط3، 1419هـ.
- 31- تفسير القرآن: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المرزوي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، دار الوطن - الرياض، ط1، 1997م.
- 32- التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي - القاهرة.
- 33- تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ط3.
- 34- التفسير القيم المسمى تفسير القرآن الكريم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار ومكتبة الهلال-بيروت، ط1، 1410هـ.
- 35- تفسير الماتريدي المسمى تأويلات أهل السنة: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 2005م.
- 36- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباب الحلبي وأولاده - مصر، ط1، 1946م.
- 37- التفسير المظهري: المظهري، محمد ثناء الله، مكتبة الرشدية - باكستان، 1412هـ.
- 38- تفسير المنار المسمى تفسير القرآن الحكيم: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- 39- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط2، 1418هـ.
- 40- تفسير النفسي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، دار الكلم الطيب - بيروت، ط1، 1998م.
- 41- تفسير النيسابوري المسمى غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1416هـ.
- 42- التفسير الواضح: الحجازي، محمد محمود، دار الجيل الجديد - بيروت، ط10، 1413هـ.
- 43- التفسير الوسيط للزحيلي: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط1، 1422هـ.

- 44- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط1، 1997-1998م.
- 45- تفسير آيات الأحكام: محمد علي السائس، المكتبة العصرية للطباعة والنشر-مصر، 2002م.
- 46- تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، دار الفكر الإسلامي الحديثة - مصر، ط1، 1989م.
- 47- تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 2003م.
- 48- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م.
- 49- الجامع لأحكام القرآن المسمى تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1964م.
- 50- الجدول في إعراب القرآن الكريم: محمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد-دمشق، ط4، 1418هـ.
- 51- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار القلم-دمشق.
- 52- الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت.
- 53- دراسات في القرآن الكريم وعلومه: أ.د. زكريا الزميلي، أ.د. عصام زهد، د. عبد الكريم الدهشان.
- 54- روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، دار الفكر-بيروت.
- 55- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415م.
- 56- زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط1، 1422هـ.
- 57- زاد المعاد في هدى خير العباد: الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط27، 1994م.
- 58- زهرة التفاسير: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي.
- 59- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار العلم للملايين - بيروت، ط4، 1987م.

- 60- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
- 61- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط5، 2008.
- 62- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط1، 1997م.
- 63- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، دار ومكتبة الهلال.
- 64- غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني: أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعي ثم الحنفي، جامعة صاقريا - تركيا، 2007م.
- 65- غريب القرآن لابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
- 66- فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، 1992م.
- 67- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط1، 1414 هـ.
- 68- الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: نعمة الله بن محمود النخجواني المعروف بالشيخ علوان، دار ركايب للنشر - الغورية/ مصر، ط1، 1999م.
- 69- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق - بيروت / القاهرة، ط17، 1412هـ.
- 70- القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط8، 2005م.
- 71- القصة في القرآن الكريم: مريم عبد القادر عبد الله السباعي، جامعة أم القرى، 1404هـ.
- 72- القصة في القرآن: محمد قطب، دار قباء - القاهرة، 2002م.
- 73- قصص القرآن: د. عبد الباسط بلبول، مكتبة أصول الدين - القاهرة.
- 74- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: د. عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت، ط2، 1975م.
- 75- كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1983م.

- 76-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتب العلمية - بيروت، ط3، 1407هـ.
- 77-الكشف والبيان عن تفسير القرآن: محمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 2002هـ.
- 78-لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشحبي أبو الحسن، المعروف بالخازن، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415هـ.
- 79-اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1998م.
- 80-لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر - بيروت، ط3، 1414 هـ.
- 81-محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد بن سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1418هـ.
- 82-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1422هـ.
- 83-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1422هـ.
- 84-المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، دراسة الأسباب رواية ودراية: خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي- الدمام، ط1، 2006م.
- 85-مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، المكتبة العصرية، الدار النموذجية - بيروت، صيدا، ط5، 1999م.
- 86-مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: محمد بن عمر نووي الجاوي البننتي إقليميا، التتاري بلدا، ط1، 1417هـ.
- 87-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، المكتبة العلمية - بيروت.
- 88-مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملق بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3، 1420هـ.

- 89- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 90- المنتخب في تفسير القرآن الكريم: لجنة من علماء الأزهر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- مصر، ط18، 1995م.
- 91- منهج التربية الإسلامية: محمد بن قطب بن إبراهيم، دار الشروق- القاهرة، ط16.
- 92- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: أ.د. حكمت بن بشير بن ياسي، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة المنورة، ط1، 1999م.
- 93- الموسوعة القرآنية: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، مؤسسة سجل العرب، 1405هـ.
- 94- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتب الإسلامي - القاهرة.
- 95- النكت والعيون المسمى تفسير الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 96- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2003م.
- 97- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، جامعة الشارقة - الإمارات، ط1، 2008م.
- 98- الواضح في علوم القرآن: مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الإنسانية - دمشق، ط2، 1998م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
أ	الإهداء
ب	شكر وتقدير
ج	المقدمة
1	التمهيد
2	المبحث الأول: مفهوم الموعظة وورودها في السياق القرآني
3	المطلب الأول: تعريف الموعظة لغةً واصطلاحاً
6	المطلب الثاني: الموعظة في سياق القصص القرآني
9	المبحث الثاني: مفهوم القصة القرآنية
10	المطلب الأول: تعريف القصة لغةً واصطلاحاً
12	المطلب الثاني: أنواع القصص القرآني
13	المطلب الثالث: أهداف القصة وخصائصها
21	الفصل الأول ميادين الموعظة في ضوء القصص القرآني
22	المبحث الأول: نماذج من المواعظ العامة
23	المطلب الأول: موعظة سيدنا نوح عليه السلام لقومه
31	المطلب الثاني: موعظة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه
38	المطلب الثالث: موعظة سيدنا لوط عليه السلام لقومه
42	المطلب الرابع: موعظة سيدنا هود عليه السلام لقومه
49	المطلب الخامس: موعظة سيدنا صالح عليه السلام لقومه
54	المطلب السادس: موعظة سيدنا موسى عليه السلام لقومه
64	المبحث الثاني: نماذج من المواعظ الخاصة
65	المطلب الأول: مواعظ الآباء للأبناء
73	المطلب الثاني: مواعظ الأبناء للآباء
79	المطلب الثالث: مواعظ الأخوة
87	المطلب الرابع: مواعظ للطغاة والمتجبرين

93	الفصل الثاني: أساليب الموعظة وآثارها في ضوء القصص القرآني
94	المبحث الأول: أساليب الموعظة في القصص القرآني
95	المطلب الأول: اللين
101	المطلب الثاني: الشدة
105	المطلب الثالث: الترغيب
109	المطلب الرابع: الترهيب
113	المطلب الخامس: الحكمة
118	المطلب السادس: المجادلة بالتي هي أحسن
124	المطلب السابع: الوعد والوعيد
127	المبحث الثاني: آثار الموعظة في القصص القرآني
128	المطلب الأول: التوبة والإيمان
131	المطلب الثاني: الإعراض والصد
135	المطلب الثالث: الإخراج من الديار
140	المطلب الرابع: السجن ومحاولة القتل
145	المطلب الخامس: الحرق والنار
148	الفصل الثالث: نماذج للناجين بالموعظة والهالكين بالإعراض عنها
149	المبحث الأول: نماذج الناجين بالموعظة
150	المطلب الأول: سحرة فرعون
155	المطلب الثاني: آسيا زوجة فرعون
159	المطلب الثالث: أصحاب الأخدود
163	المطلب الرابع: أصحاب الجنة
168	المبحث الثاني: الهالكون بإعراضهم عن الموعظة
169	المطلب الأول: ابن نبي الله نوح (عليه السلام)
173	المطلب الثاني: النمرود بن كنعان
176	المطلب الثالث: زوج النبي لوط (عليه السلام)
179	المطلب الرابع: قارون
185	المطلب الخامس: صاحب الجنة

190	الخاتمة
194	الفهارس
195	فهرس الآيات القرآنية
200	فهرس الأحاديث النبوية
201	فهرس الأعلام المترجم لهم
202	فهرس المصادر والمراجع
209	فهرس الموضوعات

ملخص البحث باللغة العربية

يتناول هذا البحث واحداً من أهم الموضوعات القرآنية وأجلّها خطراً، إنه مهمة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه للبشرية منذ نشأتها لهدايتهم وتخليصهم من الشرك والضلال، وقد تخصص هذا البحث في دراسة هذا الموضوع في ضوء ما جاء في القصص القرآني الكريم، لما لها من أثر هام في نفوس المؤمنين، وما يمكن أن تمنحهم من العبر والعظات.

وقد اشتمل هذا البحث على تمهيد ومقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وفهارس، حيث تناولت الباحثة في التمهيد، التعريفات التفصيلية لكل من العظة والقصة كما جاء في الأثر وأقوال علماء اللغة والقرآن، وأنواع القصص القرآني وأهدافه، ثم تناولت في الفصل الأول من الدراسة ما جاء من عظات الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم عامة، وما جابهوه في سبيل الدعوة من صعاب وعقبات، ثم عرضت بعضاً من نماذج الموعظة الخاصة التي تخص شخصاً بعينه كابن أو أب أو أخ أو طاغية من الطغاة والمتجبرين.

ثم تطرقت الباحثة في الفصل الثاني إلى الأساليب التي اتبعتها الأنبياء عليهم السلام في دعوة أقوامهم كل حسب ما يناسبه، وبعضاً من آثار هذه العظات ونتائجها على أولئك الرسل الكرام وعلى أقوامهم.

وفي الفصل الثالث، استعرضت الباحثة نماذج عدة، لأولئك الناجين بالموعظة ممن استمعوا القول فاتبعوا أحسنه، فجازاهم الله خير الدنيا والآخرة، ثم أولئك الذين استكبروا وأخذتهم العزة بالإثم فهلكوا في الدنيا وخسروا ثواب الآخرة.

ثم تختتم الباحثة بجملة من النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثها، وترى فيها فوائد جمة لمن أراد أن يسلك هذا المسار الشريف في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وأهم التوصيات التي توجهها سواء للدعاة أو طلاب العلم.

وقد وضعت الباحثة عدة فهارس لزيادة الفائدة للمطلعين على هذا البحث، وهي: فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث النبوية، فهرس التراجم والأعلام، فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات، ثم ختمت الرسالة بملخص عام للبحث، باللغتين العربية والإنجليزية.

Abstract

This paper deals with one of the most important topics Quran and the most serious. it's the task of the prophets and messengers who were sent by God to mankind since its inception to guide them and rid them of polytheism and delusion. This research in the study of this subject has been allocated in the light of the Holy Qur'an in the stories as they have a significant impact in the hearts of believers and what we can give them the lessons and sermons. This research includes a preface , an introduction , three chapters , a conclusion and indexes.

The researcher has used detailed definitions for the sermons and the stories s mentioned in the Sunna and sayings of the Arabic language scholars, and the types and aims of the Quranic stories , then the researcher has dealt in the first chapter of this study the lessons and sermons the prophets addressed to their folks, and what they faced of hardships and obstacles for their Dawah , after that the researcher has presented some samples of sermons that interest individuals such as a father , a son , a brother or a tyrant .

In the second chapter the researcher has presented the methods that the prophets followed in their Dawah for their folks and what suited them . She has also presented some of the sermons effects and their results on those prophets and messengers and on their folks.

In the third chapter , the researcher has showed some samples of those who were rescued after accepting the sermon who listened and obeyed that Allah gave them good in life and afterlife. But those who scorned and sinned that Allah destroyed in life and would lose in the life after.

The researcher concludes with a bulk of results that she reached from her research , she acknowledges many benefits for those who want to walk in the right path for Dawah for Allah the almighty , she also mentioned the most important recommendations that she addresses whether to preachers or students.

The researcher has includes some indexes for the readers of this research as follows

- 1- The Quranic verses index .
- 2- The Prophet's Hadiths.
- 3- Index for glossaries and scholars
- 4- Index for references and resources .
- 5- The subjects index .

In conclusion , the researcher has finisher her thesis with general abstract in English and Arabic